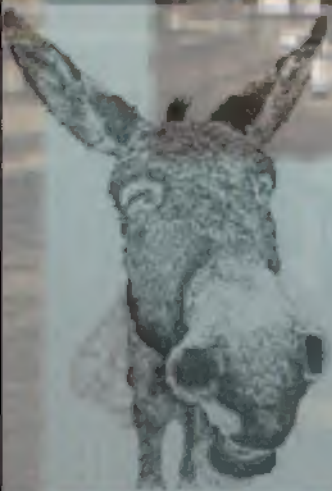


دفتر شایسته عقیده

مشارکت و موروپات
و نوآوری علی قاری و همکاران

www.alwaraq.com



المجلد

هذا الكتاب

ظمئ الشرق فيا شام اسكي واملاي الكاس له حتى الجعام
أهلك التاريخ من فضلتهم ذكرهم في غروة الذهر وسام
أمويون فإن ضقت بهم ألحقوا الدنيا بيستان هشام

هذي هي دمشق .. دمشق التي كانت يوماً عاصمة للدولة العربية الإسلامية الجبارة ، دانت لها أقطار العالم ، فانضوت شعوبه تحت لوائها الخفاق ؛ وبلغت حدودها في مطلع القرن الثاني الهجري ، من جبال القفقاس شمالاً إلى الصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً ، ومن سور الصين العظيم شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً .

دمشق ، موئل العروبة والمسيحية والإسلام ، دمشق التي صنعت للعرب مجدهم ، وكتبت بحروف من نور باكورة تاريخهم . دمشق التي روى تراجم شهداء الفتح في اليرموك ووادي الصفر ، دمشق التي تكسرت أمام أعتابها أحلام الغزاة وتبددت آمالهم ، دمشق التي انطلق منها الجيش المظفر الذي قاده بطل الأبطال وسيد الرجال الناصر صلاح الدين ، فسحق الصليبيين في حطين وحرر القدس الشريف ، بعد مئة عام من رجس الاحتلال .

هي دمشق التي تنوضاً بالعروبة خمس مرّات في كل يوم ، دمشق التي رامها الملوك ليخضعوها فأخضعتهم ، وقصدها الجبارة فأعجزتهم ، ثم لم يهنها أو ينتقص من علياء شرفها أن تمنح روحها وأسرارها لحبيها وعاشيقها .

أنا من عشاق دمشق ..

وهذا هو كتابي الثامن عنها . وقعت في هواها عام 1979 ، بعد كتاب قرأته عنها ،

وكتب قرأتها بين حاراتها ووجوه أطفالها ؛ وما عثمتُ في عام 1981 أن ألفتُ باكورة إنتاجي العلمي ، ثم في العام القابل نشرته ، وكان بالطبع عنها .

ومنذ ذلك الحين ، ما ارعويتُ ولا اكتفيتُ ، ولا أنا اليوم دون هواها بقانع أو مرتض .. سأبقى عاشقاً لدمشق ، ولن أكفّ عن الكتابة عنها حتى تجفّ من الكتابة يميني ومن الخفقان مرة قلبي .

* * * * *

غير أن في كتابي هذا اليوم ، اختلافاً كبيراً عن الكتب التي سبقت لي عن دمشق . كنتُ اعتدتُ التركيز على أسلوب الدراسات الأكاديمية البحتة ، مشفوعة بالتحقيق والتدقيق والترجمة ، وعمل الخرائط والصور التوضيحية . ولم يكن في ذلك أي شطط أو إفراط بطبيعة الحال ، إنما تبقى تلك الكتب برأئي منوطة بفئة معينة من الدارسين والباحثين ، يجدون فيها الفائدة قبل المتعة .

أما اليوم ، فغاييتي أن أهدي لعشاق دمشق كتاباً للقراءة ، لمتعة المطالعة والعودة على سطور الحنين إلى ماضي دمشق ونكهة ماضي دمشق . تمتيتُ يوماً لو أولفُ كتاباً في الأدب الشعبي الدمشقي ، يقرأه الكبير والصغير ، الباحث والمهاوي ، منه تفوح روائح الياسمين والكباد وعبير ثراب بساتين الشام بعد اغتسالها بالمطرة الأولى في تشرين . تمتيتُ أن يُقال يوماً : لهذا الفتى يدٌ في التاريخ للحبيبة دمشق ، وإسهامٌ في حفظ تراثها الأدبي الشعبي من الضياع .

صحيحٌ أنني جئتُ متأخراً ، ولكن عُذري أن هذا ما كان باختيارِي ، وما لا يُدركُ كُله لا يُتركُ جُلّه . ولأن الميسور لا يُترك بالمعسور ، فلا حُجة لي إن لم أبذل غاية الطاقة ، وأجتهد في المشاركة بواجبي تجاه حبيبتي الغالية .

كنتُ خلال الـ 23 سنة التي برّح فيها بقلبي هوى دمشق ، قد نخلتُ مكنتات الشرق والغرب ، وخزائن البيوتات الدمشقية ، عن كل ما له صلة بتاريخ دمشق وتراثها الحضاري . فكان أن اجتمعت لي ثروة طائلة من المصادر المتنوعة عن هذه المدينة ، مما لم تجمعها مكتبة أو

جامعة في العالم ، بالغة ما بلغت وكائنة ما كانت .

وكنت أرى من بين هذه المصادر والوثائق ، نصوصاً تصلح لثجمع في كتاب عن أدب دمشق الشعبي ، فرحنت ألقتها بعناية ، وأضمت واحداً إلى صنوه ، فما عثمت أن صارت بين يدي اليوم تكفي لتأليف ثلاثة مجلدات وافية .

فها أنا ذا الآن ، بعد طول لأي وبعد فرط اجتهد ، أطلع بكتاب طريف ممتع ، لا أخاله إلا يعجب ويسر كل من تافت نفسه إلى استطلاع نكهة حياة أهلنا وأجدادنا بدمشق ، في العصور الخوالي قبل قرون مضت .

اجتهدت في هذا الكتاب أن أقدم النوار من النصوص حول المذكرات المدونة ، والنوار الشعبي ، ونوار الأخبار التاريخية حول دمشق . وكان من شرطي أنني لن أعتمد أي نص ، ما لم يكن يرجع إلى وراء قرناً كاملاً ، أو بضعة قرون . فالأصيل يسمو ويتفوق على كل ما هو مفتعل أو مختلق ، وأنا في ذلك لم أخرج في منهجي عن أبحاثي الأكاديمية السابقة ، إنما كان جعل الخلاص في نوعية المواد المقدمة ، لا في أسلوب بحثها .

وإنني لأؤكد ، أنني لم أكون في كتابي هذا أية معلومة ، ما لم أكن نقلتها عن مصدرها الموثق المخطوط مطبوعة ، أو سمعتها من أصحابها أو ممن عاصروها ورأوها رأي العين ، فكانت مرتبتي كناقيل تأتي تلو الشاهد الباطن .

استفدتُ في كتابي خصوص طريفة ونادرة ، من كتاب اعتبره واحداً من اللطيف وأطرف مصادر تراثنا العربي في الفروع الوسطى ، هو كتاب «المختار في كشف الأسرار» لعبد الرحيم الجوبري . ثم نشرتُ أيضاً مجموعاً نفوس بالحياة عن دمشق في أواخر عهد المماليك ، نقلته من كتاب الكاتب المصري أبي القاسم البدرى «نزهة الأنام في محاسن الشام» ، وأحسب أن نشرتي لهذا النص هي الأفضل من ترجمته حتى الآن ، لسقم الطبعتين القديمتين .

وتابعتُ بنشر أربعة نصوص شديدة الندرة عن دمشق ، كتبها رَحَالون أوروبيون زاروا دمشق ما بين القرن الرابع عشر والسابع عشر للميلاد ، هم موندفيل ودي لا بروكبير وبولون ومازريك . وفي هذه النصوص نرى تَمَمَات شيقَة ومفيدة ، لما كان يرويه رَحَالونا ومؤلفونا من المسلمين .

أما أطرف أقسام هذا الكتاب ، فهي المذكرات الحَيَّة الشَّيْقَة ، المليئة بالحركة والحياة والصور المعبرَة عن حياة الشام قبل ربح من الزَّمان . فيلمح القارئ في مذكرات جدّة أمي فاطمة البديوي ، لوحة متكاملة لحياة امرأة دمشقية بسيطة ، عاشت حياتها بدمشق هانئة وادعة ، رضيت بحلوها وبمرّها ، وشاركت جميع أبنائها بأفراحهم ومصائبهم . وكذلك ، يجد القارئ مزيداً من المتعة في قراءة مذكرات أخرى ، كتبها ورواها الدكتور شاكر الخوري ، وأبي نوري الإبيش .

وأخيراً ، ففي الكتاب نص ممتع وهام عن الحرف الدمشقية ، وتاريخ نقاباتها ، أو ما يُعرف بالمصطلح التاريخي بـ «طوائف الحرف» ، يقدّم لنا مؤلفه فيه فوائد جليّة ، لا عن التراث الحضاري لدمشق فحسب ، وإنما حول لهجتها وتعاييرها العاميّة أيضاً .

وعلى ذلك ، فالكتاب يضمّ طائفة منوعة من المواد الطريفة والشَّيْقَة والهامة في نفس الوقت عن دمشق ، فبرغم طرافتها وخفّة ظلّ ما بها من مواقف ومعان ، تبقى لها قيمة الوثيقة ، وبوسعنا اعتبارها أشياء من الأصول الحقيقية لعادات وتعايير وأحداث ، بادّت وانقرضت ولم يعد لها أثر حتى في أذهان الناس .

شكر وامتنان

ختاماً ، أرى من واجبي التوجّه بالعرفان والشكر الجزيل ، إلى كل من أسهم بإمدادي بالمعلومات الشفهية أو بالوثائق والصور . أخصّ بالشكر خالتي الحبيبة زهراء آق بيق ، التي انتهجت معي مسلكاً مفيداً فقالت : «بتجي بتغدى ، وبحكيلك شو بدك عن سّتي» ؛ وكذلك خالي العزيز عدنان ، الذي لولا تسجيله لبعض مذكرات جدّته ، لضاع قسم منها كبير ، وإلى خالي العزيز نبيل ، لتقدمه صوراً قديمة ، الأمر الذي تكرّم به أيضاً السيد غازي

رجاء ملح

لو كانت دمشق ملكاً لأحد ، فإن من حقّه أن يضرّن على سواء بها .
ولكن ، بما أنّها حبيبتنا جميعاً ، وأمنا جميعاً ، وجدّتنا جميعاً ، فلا عذر لمن لا يشارك
بأقي محبّي دمشق بما لديه من معلومات أو وثائق مفيدة .
وها أنا ذا هنا ، أبثّها دعوة ملحّة ، ورغبة قلبية صادقة ، إلى كل من لديه قصّة أو
قُصاصة ورق ، أو حتى كلمة واحدة مهما صغرت .. أن يكاتبنا بها ، ويشاركنا بما لديه ،
حتى نتداركها في طبعات أخرى وكتب أخرى .
وهذا - لعمرى - أدنى معايير الوفاء للحبيبة دمشق .

وعنواننا البريدي : أحمد إيش - ص ب : 11252 - دمشق - سورية .

* * * * *

أحلام اليقظة

شرعتُ في الكتابة عن دمشق في عام 1979 - كما أسلفتُ - وكنتُ ما أزال غراً
يافعاً في السابعة عشرة ، غير أنني تتلمذتُ آنذاك على أيدي أشهر الباحثين في هذا المضمار ،
وأدرّكُهم جميعاً : الشيخ محمد دهمان والأستاذ خالد معاذ ، عليهما رحمة الله ، والدكتور
صلاح الدين المنجد ، مدّ الله في عمره .

واليوم ، تراودني رغبة ملحّة غامرة ، في أن أتمادى إلى كتابة المزيد عن «الأدب الشعبي

الدمشقي» ، من خلال الوثائق المكتوبة والشفاهية التي جمعتها خلال ما يقارب الربع قرن ، على غرار ما كان فعله مشاهير أرباب هذا الفن بدمشق : ألفة الإدليبي ، سهام ترجمان ، منير كيال ، ناديا خوست . وبكل هؤلاء الأدباء الكرام تربطني صداقة متينة ، ولهم أكنّ كل احترام .

قال لي صاحب متماجن خبيث ، لما أسررتُ بأحلامي :

«إيه منين لوين ؟ مالك بالقصر إلا مبارح العصر !.. لما رَح تعمل متل لما إجوا ليحدوا خيل السلطان ، مدّت البقة رجلها ؟!» ..

لكنني سوف لن ألقى بالاً إلى تخايب هذا صاحب الظريف ، بل أعد القراء المهتمين بتراث دمشق أن أكمل ما بدأته في هذا الكتاب بجزئين تالين ، بعنوان : «سقى الله هديك الأيام يا شام» ، و «الله يدملك يا شام» .

فإن تمّ ذلك ، بعون الله وتوفيقه ، يكون ردّاً مني لبعض الوفاء ، لحسناء بارعة الجمال أعشقتها ، أسيرة في عذوبتها ، جارحة في شفافيتها وبهاء طلّتها .. اسمها الشام ، شامة الله في أرضه .

دمشق ، 27 أيلول 2002

أحمد إيش

قمرٌ دمشقيُّ يُسافر في دمي وبلابلٌ وسنابلٌ وقبابٌ
 الفلُّ يبدأ من دمشقَ بياضهُ ويعطرها تنطيبُ الأطيابُ
 والماءُ يبدأ من دمشقَ ، فحيثما أسندتَ رأسك ، جدولٌ ينسابُ
 والشعرُ عُصفورٌ بمدُّ جناحهُ فوقَ الشامِ وشاعرٌ جوابُ
 والحبُّ يبدأ من دمشقَ ، فأهلنا عبدوا الجمالَ .. وذوبوه .. وذابوا
 والخيْلُ تبدأ من دمشقَ مسارها وتشدُّ للفتح الكبير ركابُ
 والدَّهرُ يبدأ من دمشقَ ، وعندها تبقى اللغات ، وتُحفظُ الأنسابُ
 ودمشقُ تُعطي للعروبة شكلها وبأرضها ، تتشكّلُ الأحقابُ

نزار قباني

الإله مداء

إلى صديقي وأخي الحبيب

قتيبة محمد شيخاني

من آلاء دمشق عليّ أنّها منحني
أخاً ممعناً في أصالته ، موعلاً في سموّ خلقه
متتاهياً في مودّته ووفائه
فإليه أهدي هذا الكتاب

مُلح ونوادر من كتاب
المختار في كشف الأسرار وهتك الأسرار
لعبد الرحيم بن عمر الجوبري
(توفي بعد 633 هـ / 1236 م)

زين الدين عبد الرحيم بن عمر الشافعي الجوبري الدمشقي ، نسبته إلى قرية جَوْبَر

شرقي دمشق . لا يُعرف تاريخ ولادته ولا وفاته ، ولا تفيد المصادر العربية عن سيرة حياته أي شيء ، فمعلوماتنا الوحيدة عنه هي المستقاة من مؤلفاته القليلة . ومن ذلك يتّضح لنا أن الجوبري عالم مؤلّف درس دراسة مستفيضة ، وعاش عيشة العالم المتجول في جميع بلاد الإسلام حتى بلغ الهند ، وسافر كثيراً في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، فقد زار مصر كما يذكر في كتابه مرات عدّة عام 607 هـ . وعام 617 هـ . وعام 623 هـ . و 626 هـ . ، كما زار آمد وأنطاكية ثم حرّان عام 613 هـ . ، والرّها عام 616 هـ . ، وساحل جدّة والحجاز واليمن والصعيد وعيذاب ، وجال في المغرب وتونس وكذلك الهند وهندبار .

وفي عام 629 هـ . ، قصد الجوبري بلاط الملك الأرمني مسعود بن مودود صاحب آمد وحصن كيفا الذي ولي الحكم عام 618 هـ . أو 619 هـ . ، وأقام لديه مدّة فكان يتردّد على مجلسه . وذكر أن الملك المسعود طلب إليه تأليف كتاب له عن أسرار أرباب الصنائع والعلوم ، على غرار كتاب ابن شهيد المغربي المشتهر آنذاك : «كشف الدّك وإيضاح الشك» ، فقام بوضع كتابه المعروف بكتاب «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار» على ثلاثين فصلاً ، سجّل فيه ما خبر من تدليس وحيل من صادفهم في رحلاته من الرّحّالين والدجّالين وأصحاب الكيمياء والصارفة ؛ فكان هذا الكتاب بحق كترّاً لمن يرغب بدراسة عادات أهل ذلك العصر ، كما يرى المستشرق بروكلمان .

وكان البغدادي في كتابه «هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين» قد ذكر أن الجوبري فرغ من تأليف كتابه عام 663 هـ . ، وهذا وهم على اعتبار أن زيارة المؤلف لبلاط الملك المسعود كانت عام 629 هـ . ، وفي نفس ذلك التاريخ طلب إليه تصنيف الكتاب ، فلا يستقيم أن يكون أمضى في تأليفه 34 عاماً . ومن الواضح بالتالي أن التاريخ المذكور قد ورد بنتيجة غلط من النسخ أو الطباعة ، ولا ريب أن البغدادي يريد أن الكتاب قد تمّ تأليفه عام 633 هـ . . وهذه فائدة جديدة ، وآخر ما يُعرف من تاريخ حياة المؤلف ، أما تحديد وفاته فيبقى في ضمير الغيب .

ظهرت أول طبعة للكتاب في دمشق عام 1302 هـ . ، وأعقبتها طبعة أخرى في إسطنبول دون ذكر لتاريخ الطبع ، ثم أعيد طبعه في القاهرة مرتين أولاهما عام 1316 هـ .

والثانية مُعملة التاريخ (حوالي 1908 م) . وله من المؤلفات أيضاً : «الصراط المستقيم في علم التنجيم» و «كشف أسرار المحتالين وبواميس الخياليين» .

كما ينقل بعض النصوص المتعقبة بدمشق من كتاب المختار ، بالاعتماد على طبعة دمشق وطبعة القاهرة الأولى ، وهذه النصوص أهمية خاصة لأن مؤلفها ذكر فيها بعض مشاهداته الشخصية بدمشق آنذاك ووقائع مما لا نجد له مثيلاً لدى مؤرخي ذلك العصر ، ومنها الحكاية الطريفة التي حثرت للسلطان نور الدين مع العجمي ، التي اعتمد الخوري بذكرها دون غيره من المؤرخين .

وقُصارى القول ، أن هذا الكتاب يبقى واحداً من أطراف وأئمن مصادر تراثنا في التاريخ الاجتماعي ، وهو ما زال ينتظر حظّه للظهور في طبعة علمية مستوفية لشروط النشر والتحقيق العمي .

المصادر .

- كتاب المختار لـخوري ، مقدمة المؤلف .
- دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة الخوري لبروكمان .
- هدية العارفين لسعدادي 1 : 524 .

كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار - طبعة دمشق ، 1302 هـ .

كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار طبعة القاهرة ، 1316 هـ .
من فصل كشف أسرار الذين يدعون المشيخة

وقد ظهر بدمشق رجل يُقال له المقصود فادّعى المشيخة ، وكان يُظهر الثمار في أوقات لا يمكن أن توجد فيها . فلما استمحل أمره ادّعى السوة وأنه عيسى ابن مريم ، وربط جماعة من كبار البلد ومن حملتهم أهل سوق المرحلين وأهل المِرة وكمرسوسه وغيرهم . فلما كثر الرّهج فيه سكر في موضع يُعرف بالصّقصاف ، وذلك في دوة الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وذلك مشهور بدمشق .

(المختار في كشف الأسرار ،

24)

وقد كان طهر بدمشق رحل يعرف بالشيخ عبي ، وسكن أرض حوران ودعى
 المنيحة وتبعه خلق كثير . وكان أصل مذهبه أنه يقول لمن يريد أن يتعلمه : لا تمنع النفس
 شيئاً من حظها ، فمهما طلبت نفسك فهو حقها فأبعتها
 ذلك ' وله أحاديث عجيبة وهذا الرجل طفر به السلطان الأشرف وحسه في حصص عرق
 ، فأقام حتى مات السلطان . والأمور يطول شرحها .

(المختار في كشف الأسرار ،

(30

من فصل كشف أسرار الرهبان

ومن ذلك أيضاً الكنيسة التي بصيدنايا ⁽¹⁾ ، وهي قرية من عمل دمشق ، ولها يوم تجمع
 الناس فيه ، ولهم فيها بركة الریت يؤحد منها في ذلك اليوم شيء عظيم للبركة . وقد ارتبط
 عليها جميع الطوائف ، وذلك أنهم أخذوا قرمة
 محلة ، ثم رلوا عليها بالمدقات حتى صارت مثل السمح ، ثم عثوا عليها بثوب شعر مثل
 المنحل ، ثم وضعوها في ذلك الموضع .

فإذا جاء العيد الذي لها سقوا تلك القرمة بالريت ، ثم ثقلوها بشيء يوارى برور ذلك ،
 فتبقى ذلك اليوم ترشح طول السهار . والناس يأخذونه ببركة وإزالة الأمراض ، فصار لها ذكر
 وشأن .

(المختار في كشف الأسرار ،

(40

(1) بلدة مشهورة في هضبة القلمون شمال شرق دمشق ، بها أديرة أثرية
 مشتهرة .

من فصل كشف أسرار أهل الكاف

وهي الكيمياء

ومن أعجب ما صادفته وأعرب ما وقعتُ عليه ، أنه كان لي بدمشق صديق نصراوي صانع يُعرف بابن ميسرة ، ويسمى هو في بعض الأيام حالس في الدكان إذ قد أتى إليه رجل متميز مسلّم عليه ، ثم باوله سبيكة فضّة مقدار ثلثمائة درهم ، وقال : لعلّ مبادياً يبيع لي هذه السبيكة . فأحدها منه وقال : يا سيّدي عبي الحمى ؟ قال : نعم ، وعبي الرّواص . وأعطاها للمصاوي ، فمادى عليها وناعها المائة مائة وعشرين . هذا وقد أصعده إلى الدكان وأحسسه في حاسه ، فمّا قبض الثمن دفع للمصاوي أجرة وافرّة ، ثم شال خمسة دراهم . وقال للصائع : سيّر لنا بعض أحراك يشتري لنا بهذه شيئاً نأكله بحسب المماخلة ، والحرام يُلزمي لا بدّ من ذلك . فبعث واشترى شيئاً من المأكول فأكلوا وتحدّثوا ساعة ، ثم نزل وقد جعل تحت طبع الصايغ عشرة دراهم .

وعاب أياماً ، ثم عاد وسلّم وصعد وقد فرح به الصائع ، فتحدّثوا ، ثم طالع سبيكة أكبر من الأولى ، فقال : ادفعها للمصاوي ، فدفعها له فبيعت المائة مائة وخمسة وعشرين . فقال للصائع : إن كنتَ تختارها فحدها ورأياً نورد فأحدها منه . ثم عمل مثل امرأة الأولى ، فمعه من ذلك ، فقال : يا فلان لأيّ سب تبرّط بهذه الفضة ؟ فقال له : يا هذا ، هذه السبيكة تكلف عليّ المائة درهم ونصف ، فما عسى أن يروح منها ؟ فلما سمع الصائع ذلك عظم في عييه .

ثم عاب أياماً وأتى ولم يصطحب معه سبيكة ، فسلم وصعد فتحدّثوا وكثما عبر شيء مثل حلاوة أو غيرها يشتري ويدفع القيمة للنائع كما يطلب ، ويأكل هو ومن في الدكان . فأقام يتردّد أياماً ولم يصحب معه شيئاً من السائلك . فسأله الصائع ، فقال : والله كنت قد عملتُ بكسيراً وفرع .. فلما سمع الصائع ارتبط ، ثم تحدّث معه ساعة ، وقال : أشتهي منك أن تجرّ قلبي وتأكل عدي حراً وملحاً في داري . فقال : ما أكفك ؟ فأقسم عليه ، فقال : إذا كان ولا بدّ من ذلك فهذه عشرون درهماً أعمل لنا بها شيئاً نأكل ، والحرام

يُلمِمي لا يَدَّ من ذلك . تم تواعدوا إلى العد .

فلَمَّا كان العد جاء الرجل إلى الدكان فوجد ابن الصائغ قاعداً في الانتظار ، فأخذه وراح به إلى الدار ، ومَّا استقر به الخموس قدَّم شيئاً كثيراً فأَكَموا ثم أَحَصَرُوا خَلَوْا وأَكَلُوا . فقال الصائغ . يا سيدي أَمَا تعمل إكسيرا ؟ فقال : يا أحي عدي بَعَقَة كثيرة وما أنا محتاح إلى عمه في هذا الوقت . وليس لي في هذه البلدة مكان ولا صاحب ، وأنا وحدي ما أقدر أدتُر هذا .

فقال له الصائغ : هذه القاعة هي ملكي ومالي فيها نساء ولا حريم ، وإنما هي رسم صديق أو صيف يأتيني ، وأنا أحبها لك وأساعدك وأخدمك ، واسي يكون في الدكان ، وما تحتاج أحضره لك . فقال : أكثر ما أريد عشرة دراهم أعممها إكسيرا ، ومتى صار يُعمل منه قساطير ، إلَّا أنه يريد تعاً وطول روح ، وأنا اليوم مالي همّة للعمل لأن عدي شيئاً أنفقه ستة وعشرة . ثم تَمَنَّع عليه وهو يسأله ، ثم مسكه تلك الليلة عنده وتمكَّن منه بالحديث وم يرل يُبَحِّ عيه حتى تفرَّرَ بينهم الأمر . ثم تحالفوا على وفاء العهد وأن الصائغ يقنع من الإكسيرا بأيسر ما يكون والباقي له ، فقال له : بل أنا أقنع منه بمقتال وخذ أنت الباقي . فصرح الصائغ . وحسب أنه يتعلَّم الإكسيرا .

ثم اتفقوا إلى يوم واحتتمعوا . واشتروا الخوايج وورن الرجل ثمنها ، وم يحل الصائغ يحسر شيئاً . فنبأ حصت الخوايج وسحقوا ما أمكن سحقه وهبأوا حوائجهم . قال الرجل للصائغ : تريد أن تعمل إكسيرا ذهب أو فضة ؟ فقال : من ذا شيئاً ومن ذا شيئاً ، فقال : أقسم هذه الخوايج بضعين ثم هات ما أمكن من الذهب والفضة حتى سقعه في ماء هذه الخوايج ثلاثة أيام ، ثم باخذ ماءها وسقي به الأدوية ، الذهب للذهب والفضة للفضة .

فعمد الصائغ إلى ستمائة دينار فدفعها له . فربطها في مسدبيل أمامه ثم جعلها في وعاء فيه ماء ، ثم قال : هات فضة فأحصر له ألفين وخمسمائة درهم ففعل بها كما فعل بالذهب . ثم أقاموا سبعة أيام يحدمون تلك الخوايج . ثم بعد ذلك قال له : قُمْ واطبع إلى جبل المِرَّة واجمع من الحصى الذي يُعرف بُزاق القمر مقدار رطل واحد وتعال . فقام الصائغ وصعد إلى الجبل يقي بُزاق القمر قدر حاجته . وأما ذلك الرجل فإنه فتح صرة الذهب والفضة وأحدهم

، ووضعت مكانهم فلوساً وقعد فلماً جاء الصائغ بالسراق قال : هذا يريد بتكس في أتون الرُّحاح ليلة ، ثم يُحدم نصفه بماء الذهب ويصفه بماء الفضة ، وإذا تكلس اقسامه واحده ، وها أنا حارج لصلاة الجمعة . ومضى واستقل الدرب ، فلم يطع له خبر .

فأقام الصائغ ينتظره مدة ثلاثة أيام لم يفتح صرة الذهب ولا الفضة ، فقال له ابنه : قد يكون أحد الذهب وراح ! فقال : ما أجهلك .. وحق المسيح بقدر أن يعمل حرائش وأموالاً ، وهذا غير محتاج إلى ذهبا . فقال له ابنه . كُسر عاقلاً واعتقد الذهب . فقال . أنت قصدك تفسد عيبا الشعل ؟ فقال : اعتقد الذهب وخلّ علك الصمغ . فلم يفعل ، فقام ابنه وحالته وفتح الصرة وقد قارت له ولأبيه الحوس ، وإذا بالذهب والفضة قد صار فلوساً !.. فظنّاً على الرؤوس حتى دهست مههما النفوس . فقال : أنت ما سمعت مي الخبر .

فأنصر هذا الذَّهَاء والمكر والحيل لهذه الطائفة .

(المختار في كشف الأسرار ، 64 68)

[حكاية العجمي والسلطان نور الدين]

ومن أعظم ما وقعت عليه ، وأطروف ما جرى للسلطان الملك العادل نور الدين بن ركي ، رحمه الله تعالى ، حديثٌ يُكتب بماء الذهب (2) .

وذلك أن بعض العجم جاء إلى دمشق ، فأخذ ألف دينار مصرية فبرّدها ، ثم أخذها دقّ الفحم وعقاقير وطحن الجميع ثم عجنه بعراء السمك ، وجعله بادق وحفقه حفافاً بالعا . ثم لس دلقاً وترياً بريّ الفقراء ، وجعل تلك اسداق في محلاة . ثم أتى إلى بعض العطّارين فقال : تشتري مي هذا ؟ فقال : وأي شيء هذا ؟ قال : طَرَمْتُ خُرَاساني ! وهذه كلمة مصحفة معها طترمك . قال العطّار : وهذا لأي شيء يفع ؟ قال يفع من السُّوم . ويدخل في جميع الأدوية التي تدفع الأحلاط ، وله نفع عظيم . ولولا أن أدركتني الحاجة ولم

(2) حقاً فهذه القصة من أعجب وأطرف ما يكون ، ولعمري أنها تصلح لتمثيلية تلفزيونية .

أقدر على حمله ما بعته ، لأنه يسوي ورأ بورن عند من يعرفه ! فقال العطار : بكم هو ؟ قال . بعشرة دراهم . قال له العطار : بثلاثة . فأبى ، ثم اشتراه منه بحمسة دراهم ، وجمعه في برنية وأحد العجمي الدراهم وراح

فاتطر إلى هذا الرجل وما أحسره ، ناع ألف دينار بحمسة دراهم ، فهذه حسارة عظيمة ، وقد قد القائل . من حاضر نفيس ملك نفيساً

فلما انفصل عنه ، لس برنة حسنة من ملابس الورياء ، ورثت حلقه مموكاً ونزل أكبر دار تصلح لورير ، وصار يمشي في الجامع ويتعرف بالأكار من أهل البلد ، ويعمل السماعات ويحسر حُمة ، ويدعي الوصول في عم الصُعة وأنه يقدر أن يعمل في يوم واحد حمة من المال . وشاع ذلك في دمشق ، فسأله الكُبراء أن يعمل عندهم ، فكان يقول : ما أنا محتاج إلى أحد ، فالدي يريدني أعمل عنده أي شيء حاجتي إليه ؟ وأنا قد آليت أن لا أعمل شيئاً إلاً لملك ، ومع هذا فإني لا أعمل شيئاً حتى يحف لي أن مهما عملته لا يُعفه إلاً في سبيل الله .

فاتصل حبه بالورير ، فأحصره وآسسه ، ثم دأكره بشيء من ذلك ، فقال : قد كان من أمري أبي حلفت أن لا أعمل شيئاً إلاً عندك ، بعد أن يعاهدني أنه لا يفق منه شيئاً إلاً في سبيل الله تعالى . فإن حصل هذا الشرط عملت وإلا فلا سبيل إلى عمل شيء .

ولما سمع الوريير ذلك افكر وقال : والله هذه سعادة للمسلمين وللسلطان ، هذه البلاد كلها للأفرنج إلى ناباس ، وكل يوم العارات تصل إلى ديارنا ، فإذا عمل شيئاً نفتح به هذه البلاد وهذه نعمة عظيمة ! ثم قال . أعرف السلطان ؟ قال . نعم ، إلا أنك تجمع بيني وبينه حتى أستوثق منه باليمين . ثم ركب الوريير فاحتس بالسلطان ، ثم عرفه ذلك ، فقال : والله قد هجس في فكري أنه لا بد من شيء يوصنا إلى قلع شأن هؤلاء الملاحين فأحصر الرجل في عاية الكرامة .

فأحد له حبة حسنة وبعة بسرح منحمة ، فألبسه الحبة وأركه إلى حانه ، ثم صعد واجتمع به السلطان . ثم تحدثا فقال : أصحيح ما قاله الوريير عنك ؟ قال : نعم يا مولانا ، لكن كل من ادعى هذه الدرجة فهو كذاب بصّاب دكّك ، بل أنا شرطي مع السلطان أن لا أمسّ يدي شيئاً ، بل أكون بعيداً من مولانا وأقول له . افعل كذا واصنع كذا ،

، ومولانا يفعل . فلَمَّا تَقَرَّرَ الأمر على هذه القاعدة قال السلطان . باسم الله اشرع عني بركة الله .

فأُحْدَ العجمي ورقة وكتب لهم استدعاء الخوايج ، من العقار الفلاني كذا [ومن العقار الفلاني كذا] . ثم قال : من الطَّبْرَمَك الحُرَّاسِي مائة مثقال . ثم دفع الورقة لأستاذ الدار ، وقال له . أحضر هذه الخوايج . فأحضر الجميع إلَّا الطَّبْرَمَك . فقال إنه ما وُحِدَ عند العطَّارين . فقال العجمي : في مثل دمشق يعدم الطَّبْرَمَك ؟ فقال السلطان : ما لنا شيء يُعَيِّ عنه ؟ فقال : لا والله ، ولا تحلو دمشق منه . بل إن مولانا السلطان يتقدَّم إلى المحتسب تفتيش دكاكين العطَّارين ، فإذا كان العدد ركبت أنا وهو وشهود عدول ففتح حانوتاً حانوتاً ففتشه . فلا بدَّ أن يحده . فقال . نعم .

وكان المحتسب يُقال له القائد ، فأرسلوا إليه ففعل ذلك ، وركب العجمي من العدد وأُحْدَ معه العُدُول وبرزوا مع القائد . ثم جعلوا يفتحون دكاكين العطَّارين حتى انتهوا إلى دكان الذي باعه العجمي الطَّبْرَمَك . ففقد الشهود والمحتسب ، وبرز صاحب الدكان وجعل يصع قدَّامهم برتية بعد برتية ، إلى أن جاءت البرتية التي فيها الدكَّة . فمَّا رآها العجمي تَهَلَّ وجهه فرحاً وقال هذا السلطان سعيد ! ثم قال للشهود والمحتسب : احتموا عليها ختموكم ثم ابعثوا بها إلى القلعة . ففعلوا ذلك .

فقال لصاحب الدكان : من أين لك هذه ؟ فقال . انتعتها من رجل فقير قال بكم ؟ قال : خمسة دراهم . فأُحْدَ مبديله وقال : هذه عشرة دراهم من عدي ، ولا تطل شعك ولا تطع إلى الديوان .

ثم ركبوا جميعهم ، وطلعوا إلى القلعة وعرفوا السلطان . وقال له العجمي : هذه أوَّل سعادتك ، هذا يعمل شيئاً كثيراً ، فيشرع مولانا من البيلة وبالله التوفيق

فمَّا أمسى عليهم المساء . استدعوا ما يحتاجون إليه من الآلة ، ثم قعد السلطان وحادم في صُفَّة والعجمي قد اعتزل عنهم في ناحية . ثم قال : يزن مولانا من العقار الفلاني كذا ومن الآخر كذا ، وجعل يعدِّ عقاقير جميعها . ثم قال : ومن الطَّبْرَمَك مائة مثقال . ففعل ذلك

حتى احترقت جميع تلك الحواشي ودار الذهب . ثم قال : اقلب عني ركة الله تعالى ! فقلت
الودقة ، فزلت سبيكة ذهب مصري لا يكون شيء أحسن منه . فلما نظر السلطان إلى ذلك
حار ودُهِش ، ثم قدّم له تلك البيلة شيئاً يساوي ألف دينار .

ولم يبالوا يعملون حتى فرع ذلك الطيرمك . فطبوه فسم يحدوه . فقال السلطان :
كيف عمل بالطيرمك ؟ فقال العجمي : نعت نجيب منه من حُرّاسان ، فإنه معد في الحبل في
معاراة إذا أراد إسان أن يحمل منه ألف حمل حمل . وأنا دحيتُ إليها وأحدثُ منها شيئاً كثيراً
، وعندي في داري منه مقدار قطار .

فلما سمع السلطان قوله قال: ما لهذا الأمر عيرك ، فإن تعدّر الوصول إلى المعارة فاحمل
الذي عندك ، وإن وصت إلى المغارة فاحمل مهما قدرت . وأنا أكتب معك كتاباً إلى
السلطان الأعظم لا يمنعك أحد من ذلك !

فلما سمع العجمي قال : إن رأى السلطان أن يعنت عيري ، فأنا قد طابت لي دمشق
وحدة السلطان . قال : لا عبا عن رواحك ، فإن لك في ذلك أعظم الأجر . ولم يرل عليه
حتى أنعم بالسمر ، فلما شرع يتحجّر حجّره يستير حمل منها شُرْب عمل تيس ودمياط ومن
عمل اسكندرية ، ومنها سكر بالأحمان واحمال والحمالين ، ثم أعطاه حيمة ومطحاً وفرّاشين
ونفقة الطريق إلى بغداد وإلى العجم ، وكتب معه كتاباً إلى سائر البلاد بالمرعاة والخدمة
والإعانة . ثم خرج السلطان وأرباب الدولة إلى وداعه ، وراح وقد وصل هذا إلى الحجر
المكرّم وحصل له الإكسير الأعظم .

ومن أعجب ما في هذه القصّة أنه كان بدمشق رجل يكتب أسماء المعقلين المحارفين ،
فسمع بهذه القصّة ، فكتب في رأس حريدته : «السلطان نور الدين محمود بن زنكي رأس
المعقلين» . فشاغ ذلك ولم يعلم أحد باطل القصّة ، حتى قيل للسلطان : قد كتبك شخص
رأس المعقلين ، فقال : وأي شيء أبصر من تعقلي حتى يكتب اسمي ؟ هاتوه ! فزلت إليه
الحدايرة وقالوا له : باسم الله . كُتِبَ السلطان . فأحد الحريدة في كُتِبَ ومشى معهم .

فلما وقف أمام السلطان ، قال : أنت فلان الذي تكتب أسماء المعقلين ؟ قال : نعم .
قال : وكنتني ؟ قال : نعم ، وهذا اسمك .. ثم أظهره . فقال : وما بال لك من تعقلي حتى

كنتي ؟ فقال : ومن يكون أعقل منك ؟ حاءك عجمي نصّاب عمل عليك حيلة ودك عليك ألف دينار ، أحد بها مال المسلمين وراح ! فقال : راح يأتي بطيرمك وكأنت نه وقد حاء ومعه الطيرمك عمل منه أموالاً لا تُحصى . فقال له: يا حود إن رجع العجمي وحاء ، عجتُ اسمك من الخريدة وكتبتُ اسمه ، وما يكون في الأرض أعقل منه !

فمّا سمع السلطان ذلك ، صحك وقال : «اعصوه شيئاً يُفقه عليه» . فأعطوه شيئاً وراح . وكان كئيباً أفس ، أحد الخريدة ووقف على باب القنعة ، فإذا ركب السلطان ، فتح الخريدة ويقول «ما حاء ، وهذا اسم السلطان مكتوب !» . فيصحك ، ويُطلق له شيئاً .

فانظر إلى هذا الدكّ والخسارة على بيع ألف دينار بحمسة دراهم

فأقام السلطان على ذلك حتى مات ⁽³⁾ ، والطيرمك لم يأت .

(المختار في كشف الأسرار ، 68-

(74

من فصل كشف أسرار الصيارف والدكّ عليهم

ومهم من يدكّ على اصيارف ، فاعلم أن هؤلاء لم يكن في الطوائف أرحل منهم ، وذلك أنهم يدكّون على من هم أشطر الصوائف . فإن الصيارف يتعيّشون على كل الناس وهؤلاء يتعيّشون عليهم ، فهذه عين الشطارة .

وقد رأيتُ بدمشق رجلاً من أهل حلب يُعرف بجمال الدين يوسف ابن النقاش ، وهو

(3) وكانت وفاة السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي الشهيد في عام 569 هـ .

منمَّير وعليه حشمة طاهرة ، ورأيتَه يدك على الصَّيارف . فإذا أراد ذلك أتى إلى الصَّيرفي
ومعه دينار أو درهم ، فإن كان ديناراً يكون بُهْرُح ، وإن كان درهماً يكون نحاساً . ثمَّ إليه
يكون معه إما دينار أو درهم حيَّد عني قدر ما يريد أن يدك ، ويكون على نقد ذلك الزعل
الذي معه .

فيقف على الصَّيرفي ويدفع إليه الدينار الحيَّد ، ويقول : يدفع لي بهذا
دراهم . فيأخذ الصَّيرفي الدينار ثمَّ يبقده ، ويرنه ويدفع إليه الدراهم . فيقول : كم ورنيت ؟
فيقول : كذا وكذا ، فيقول : ما آخذ إلاَّ كذا وكذا . فيقول : ما أعطيتك إلاَّ هذا القدر .
فيقول : هات الدينار . فيناولَه الدينار بمقدار ما يحصل في يده وقد جعله موضع الدينار البُهْرُح
وخلف له البهرح ، وقال : هات ، وهذا ناقص عن حقِّي !

فيكون الصَّيرفي قد ورن الدينار وبقده ، فيأخذه ويرميه في صدوقه ويدفع له الدراهم
طَّيب القلب بوربه وبقده ، وكذلك الدَّرهَم أيضاً .

فافهم ذلك ترشد .

(المختار في كشف الأسرار ، 136

137)

* * * * *

دمشق في أواخر العهد المملوكي

من كتاب

«نزهة الأنام في محاسن الشّام»

لأبي القاء أبي بكر بن عبد الله بن محمد النّدي

(توفي 894 هـ . / 1489 م)

أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد ، أبو ابقاء ، تقي الدين الندي الدمشقي المصري الوفاي . أديب عارف بالتاريخ والشعر . ولد بدمشق عام 847 هـ . وسكن القاهرة ، ثم نقل إليها وبين مكة ومدينة والشام ، وكان يتكسّب بالتجارة ، وتوفي بعرّة عائداً من الحج عام 894 هـ .

ترك الندي عديداً من المؤلفات الأدبية ، من أشهرها «راحة الأرواح في الحشيش والراح» و «عرر الصّباح في وصف الوجوه الصّباح» و «مطالع البدرية في المنار القمرية» و «نزهة الأدياء وسوة العرّاء» و «نزهة الخاطر وقرة الناطر» و «روضة الحليس ونزهة الأليس» . غير أن أهمها وأشهرها هو كتابه الدائع الصبب «نزهة الأنام في محاسن الشّام» . الذي أتم تصبفه عام 887 هـ . في عهد السلطان المموكي الرّحي الأشرف قايناي ، والذي يعتبر بحق أحد أفصل كتب «المحاسن» في فنون الجغرافية الإقيمية بأواخر عهد المماليك

من المؤكّد أن المؤلف قد أمضى شطراً طويلاً من حياته بدمشق وعرفها معرفة وثيقة ، كما يعكس بحلاء في مصبّه ، الذي قدّم لنا فيه صورة حيّة لدمشق بأواخر القرن التاسع

المحري في خواتيم أيام الدولة المملوكية ، فرسم لها مشاهد حذيرة بالاهتمام ، وتجاوز ذلك إلى المواضيع القرية منها ، وتناول بالوصف أمارها ومساحدها وحناماتها ومتزهاها وأسواقها وقعتها ، كما لم يهمل الحديث عن قراها وأرباصها المشهورة بأرهاها وبناتها وأشجار فاكهتها .

وفيما يتعلق بالجانب الأول ، فهو يورد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية الهامة ، ثم يحتتم كتابه بذكر من عاش بدمشق من الصحابة والمشاهير ، وعن مقابر المدينة وما بها من أضرحة ومزارات معروفة أما توزيع مادة الكتاب فغير متحاسن ، ويلوح أن المؤلف قد افتر بصورة خاصة بالأنسجار والأرهاق والبقول والثمار التي تنمو بدمشق وبواحيها ، وخصص لها ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً ، وهو يقل عن مصنفات مختمة في الطب واسباب حول العوائد الطبية والعذائية لكل ما يذكره من سادات .

أما أسلوبه الكتابي فلا يحبو أحياناً من التكلف ، وتشت فيه الاستشهادات الشعرية وفقاً لموضوع الذي يعالجه . وهو بالرغم من إقامته بدمشق ومعرفته الجيدة بحامعها الأموي ، فقد أثر عند وصفه له أن يعتمد إلى النقل من رحلة ابن خبيرة الشهيرة التي ترقى إلى القرن السادس المحري ، وهي ظاهرة منتشرة كما نعلم لدى جميع الجغرافيين العرب .

ويؤج للدارس أن يص البصري قد اكتسب خطأ وافرأ من الشهرة بالشام ، فقل عنه غير واحد من اللدائيين اللاحقين . وبشكل عام ، يبقى كتابه هذا أحد أهم امصادر عن مدينة دمشق المملوكية ، ولا عى عنه لكل من يتصدى للبحث في تاريخها المدني بتلك الفترة .

طبع الكتاب للمرة الأولى في المطبعة السلفية بمصر عام 1341 هـ ، ضمن مشورات المكتبة العربية بعداد ، بعاية صاحبها نعمان الأعظمي . وهي طبعة سيئة مشحونة بالأعلاط . ثم صدرت في بيروت عن دار الرائد العربي عام 1980 طبعة منقولة حرفياً عن طبعة بعداد رادها صفتاً عى إبالة ، وبقي الكتاب عى أهميته إلى يومنا هذا بغير طبعة عمية تستوي حقه من الصسط والتحقيق .

وكنا في العام 1998 قد نشرنا مه ما يتعلّق بالتاريخ الطبوغرافي لدمشق في كتابنا «دمشق الشام في بصوص الرّحاليين والجغرافيين والسدائيين العرب والمسلمين ، من القرن الثالث

وهذا ما حدا بنا ها ها إلى إعادة استخلاص فصول كريمة من الكتاب في شرتنا الخاضرة ، وتصحيحها مع التعيق عليها قدر الإمكان . مع التنبيه إلى أننا انتحنا من الكتاب كل ما يتعلق بالطوغرافيا التاريخية والمعلومات اللدانية فقط ، وأهملنا العصول المطولة التي أسهب فيها المؤلف بذكر اسانات وفوائدها الطيبة ، الأمر الذي أثقل على الكتاب وشوش مهيجته وتوويه . وكذلك أسقطنا من اعتارنا مطع الكتاب الذي يذكر محاسن إقيم الشام وأصل ساء دمتق وتاريخها القديم ، مع وصف الخامع الأموي ، إذ كنا قدما القول أن دك برمته مقول ، وليس يتسم بالأصالة .

وشرعنا في النقل من حيث تبدأ رواية البدري لمشاهداته الشخصية ، بدءاً من وضعه نقلعة دمشق ، ومروراً بذكر أمهارها ومحللاتها وأسواقها ومتنزهاتها وأرباصها وقراها وحدها، وانتهاءً بذكر صاعاتها ومقارها ومن دوف فيها من الأولياء والصالحين وتسهيلاً لقراءة النص قمنا بتبويبه إلى فقرات استهساها بعاوين من عندنا .

هذا ، ومما وحدنا فيه إمعاناً في فائدة هذا البحث وأهميته . كان دراسة مواقع الأماكن التي ذكرها البدري قبل سنة قرون وثلاث القرن ، وما يطبق عبيها في عصرنا بدمشق . فقما بدلت على أرض الواقع ، متوحيين الدقة والتحري حسب الإمكان . فكان هذا الجزء من العمل يتسم بطرافة ومتعة قلّ نظيرها ، وبحسب أن قد أصعبنا به فوائده حمة حول الطوغرافيا التاريخية للمدينة .

المص . ماذر :

- الصوء اللامع للسحاوي ، 11 : 41 ، 189 .
تاريخ الأدب الحفراي العربي لكراتشكوفسكي ، 505 506 .
الأعلام للزركلي ، ط 2 ، 41 .
دمشق الشام في بصوص الرحالين للإيش والشهاوي ، 2 : 633 .

قلعة دمشق

ومن محاسن الشام قلعتها وحسن سائها واتساعها فإنها قدر مدينة . وبها صريح السيد الحليل أبي الدرداء رضي الله عنه . وبها جامع وحُطبة كالمدينة فإنها بفرد حطبة لا غير ، وحارح المدينة الحطب الكثيرة يعسر الان عليها تعدادها . وبها حَمَام وطاحون وبعض حوايت سبع المصانع . وبها دار الصُرب التي تُصرب فيها السقود . وبها الدّور والحواصل، وبها النظارمة التي ليس على وجه الأرض أحسن منها ، كأنها أُفرغت بقلب من شمع ينظر الرائي أعلاها فيحس نظره وإن طال مرّاه .

وهي تسمتُ رؤوس الحمال . يقال إن ثمرلك لما أن حاصرها وعجز عنها أمر أن يُقَب تحتها وتُقطع الأشجار وتعلّق بها ، حتى إذا انتهى تعليقها أطلق النار فيما تحتها من الأحشاش وطرأها تصحج بذلك وتسقط شتَر مندر فيبلغ مُرادها من أحد القنعة . فمما عمّت النار فيما تحتها ركت بصوت أروع الوحود كما يرك الأسد ، فمن ثم سَمّوها بالأسد البارك ، وهي الآن على التلّين من عنوّها

وبالقنعة آبار ومخارٍ لسماء ومصارف ، بحيث إذا وقع الحصار وقُطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه .

وبها بحر بحر (بابياس) وينقسم فيها قسمين ، يستمر أحدهما على حاله طاهراً للمنافع والاستعمال ، والآخر تسحب عنه الأوساح والقادورات ، وهو المسمى قُلَيْط ، يمرّ تحت الأرض سحو من قاتنين لتشعب الماء الطاهر فوقه يمياً وشمالاً ، حتى في بعض الأراضي يسع سبعة مجارٍ من الماء العذب ليس لأحدها احتلاط بالآخر .

ومصارفهم تسقط على نهر قليط ، ويمرّ في المدينة إلى أن يخرج من الباب الصغير، وينصل بمحّة (المرار) فيصمحلّ فيما يليها من الأراضي التي تررع الكرسة والقصة والبقية والقنب وما أشبه ذلك . وغالب ما يُسقى به القنب ، وهو أبيض أملس كالزّماح في الطول مخوّف لا عُقد به ، يُصبّ الماء من رأس الواحدة فيجري من آخرها ، وقشره يُعمل منه الحيوط والحمال ، وتورى بالقنب النار وهو يقوم مقام الشعشع والطرفاء لكنه أطفئ منهما وأسرع

وقيداً . كما ان الشَّيْخ أحسن من الحماء بعرفه الدكي أحصر وناشعاً . ويقال إن القس هذا يُعمل من ورقه الخشيش إذا أصيب إليه الورق البرِّي . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا (راحة الأرواح في الخشيش والراح) فليراجع انتهى

(نزهة الأنام 60-62)

تحت القلعة

ومن محاسن الشام تحت قلعتها ⁽⁴⁾، فإنها مهبل للعرب ومرتع للقريب ، وهي ساحة سماوية كبركة الرّطلي في الوسع لاجتماع البرّية ، تحفّها الدّور وتعلوها القصور ويحفظها كل ما يرومه الإنسان وتشتهيه الشّعة واللسان ، لا يحتاج فيها سكّانها لحاجة من المدينة ولا لحرّاتها . فيها دار البطيخ الذي يُباع فيه جميع فواكه البند ⁽⁵⁾ . وله العين المشهورة لنُجم عى برودة مائها وعدوته وحفّته . وتحت القبة سوق للقماش المدروغ وسوق قماش لمحيط . أحدهما للرحال والأحرّ للساء . وبها سوق للعرّا والعبي وغير ذلك . وبها سوق السقطين وسوق النحاس ، وبها سوق السكاكيين وبها سوق القرييين وبه للأرميين ، وبها سوق قماش الحيل والغال والهائم والأعنام ، وبها سوق القشّاشين وبها سوق المدهون والحصريين ، وبها سوق الحمايريين والحّارين والحراطين ، وبها سوق النقييين وبها دار الحصر وبها سوق الناحليين والرحّاحين .

وأما ساحة تحت القبة فإنك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما به من المتعّشين والوطئعية . ويتحلّل بينهم أرباب الخلق والعالاتية والمصحكون وأصحاب الملاعب والحكوية ومسامرون [و]كل ما يتندّد به السمع ويسرّ العين وتشتهيه النفس صاخاً ومساءً عى هذا لا يفترّون ، لكن المساء أكثر اجتماعاً ويستمرّون إلى طلوع الثلث . وهو عبارة عن ثلاثة طول

(4) موقعها اليوم ينطبق على الزّرابلية والسّنجدار وسوق الهال وسوق العتيق .

(5) موقع دار البطيخ هذه في أيامنا عند سوق القرماني جنوبي مدرسة ست الشام .

متفرقة بأعنى القنعة ، يصرونو الثلث الأول كل واحد منهم صرة ، والثلث الثاني من الليل يصرب كل واحد صربتين ، والثلث الآخر من الليل يطلع المؤذن على مارة اعروس بالجامع الأموي ، ويعلق هم قذيل الإشارة ، فيصرب كل واحد منهم ثلاث ضربات ويسوق الثنثين من اتسبيح والأدود الأول إلى السلام ينتهي الصرب .

وبها حطنتان : الأولى بأحرها بملدرسة المؤيدية ، والثانية بصدرها في جامع يلبغا⁽⁶⁾ . وهو من أحسن الخوامع ترتيباً ومتنزهاً ، يصحبه بركة ماء مرتعة داخلها فسقية مستديرة بها بوفرة يصعد منها الماء قامة ، ومن فوقها مكعب عليه عريشة عجب ملون يصل الماء إلى قطفوها الدائبة . وبجانبها حوصان فيهما من أنواع الفواكه وأحساس الرياحين . وله شبايك تطل على جهاته الثلاث : الأولى على تحت القنعة من جهة الشرق ، والجهة الثانية تطل على بين الهرير وهي العربية ، والجهة القنسية تنظر إلى بحر بردى وما هناك من الأشجار والأرهار ، وهناك شجرة حور يختاط بها أربعة رجال فلا يطر الواحد من يقاسه لعظم ساقها . وللجامع ثلاثة أبواب : الأول الشرقي وهو في صدر تحت القنعة ويسمى باب الخلق ، والثاني شماليه يجرح إلى الميضا ويسمى باب الفرح ، والثالث عربي يُحدر منه في درج إلى أول الوادي ويسمى باب المتره . انتهى

(برهة الأنام 62-65)

بين النهرين

ومن محاسن الشام (بين النهرين)⁽⁷⁾ . وهو متبدأ الوادي يشتمل على فرحة سماوية بها دور وقصور وسويقة بها حانوت صباخ وصاحاتي وقطفاني وفقاعي وحواضري وفاكهاتي وشوّا وقلايين وسكرداني وقلبي وقاعة من وعدة للحلية وحمام يشرح صدور البرية وقطرة يتوصل

(6) كان جامع يلبغا الشهير يقوم إلى الجهة الشمالية من منطقة بين النهرين (ساحة المرجة حالياً) ، بناه نائب الشام المملوكي يلبغا اليحياوي عام 847 هـ ، وكان ثاني أكبر جوامع دمشق - بعد الأموي مباشرة - ومن أبهاها وأفخمها . هُدم عام 1960 لأسباب أكثر من تافهة ، ولم تُذكره مع الأسف إلا في الصور ، فكنا لم نبصر التور بعد .
(7) موقعها اليوم ينطبق على ساحة المرجة .

مها إلى حرية لطيفة من رأسها ينقسم بحر ردى فيصير بحرين، والمقسوم منه بحر الصالح المعتقد الشيخ ارسلان أعاد الله عمينا من بركاته وعلى المسلمين طول الرمان . وبها مقصعان للطلالين فيما بين المقسمين وقالتهما راوية للشبب الثائب ، يُقام به الست والثلاثاء من الأوقات بالوعاط والدواحل ما يصير الحاصر عائاً . ويتوصل إلى رفاق القرابين المشتمل على قاعات وأطباق وعُرف وكم رواق ، الجميع يطل على بين النهرين . ولكل مكان من ذلك ناعورة يستند صاحبها بأسها وتحب له الماء إذا سمع حسها .

(برهة الأنام 65-70)

الشرفان

ومن محاسن الشام شرفاها ⁽⁸⁾ وما حويا من المناظر والقصور ، وما فيهما من الولدان والحوار . وتقرب إلى الله تعالى أهلها بساء المدارس ، رعة في حوار المحرد الفقير السائس . ورثوا له من الحر واللحم والطعام ، والريت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام فيجلس الطالب في شاكرها بطر إلى الماء والخصرة والوحه الحسن ، فكيف لا يسعث إلى طلب العلم ويتحرك من فهمه ما سكر !

ويقول إن مدرسة الكُححابية قُبة بها طاقات عدد أيام السنة ، والشمس دائرة على تلك الطيقان ولا تدخل إليها وهذا من حسن الهدسة

وأما جامع تسكر ⁽⁹⁾ فإنه في الشرف الأدنى ، وهو من العايات همدسة وساء فيه عشرون

(8) الشرف الأعلى هو المنطقة التي تمتد في أيامنا من البحصنة غربي ساروجة إلى فندق الميريديان والأركان ، أما الأدنى فمن ساحة المرجة والسرايا إلى التكنية والمعرض .

(9) هذا أيضاً كان من محاسن جوامع دمشق في العهد المملوكي ، فلم يبق منه في عصرنا سوى منارته الرائعة وقسم يسير منه ، أما بناؤه الأصلي فقد «قُطش» باقتراح بعض عباقرة الهندسة ، الذين لو هاجروا من بلادنا إلى البرازيل لأراحوا واستراحوا !

شباكاً على حط الاستواء يشرف على الأهمار ومرحة الميذان وما حوى . وبوسط صحبه يمر
نهر باتياس يتوصلاً منه الساس . وبه ناعورتان يملآن ويفرعان إلى حوصيين بهما سائر الأشجار ،
وجميع الرياحين والأرهار . وببهما ركة مربعة بها كأس في غاية التدوير، يجري الماء إليها من
البواعير . فهو متتره يقصد ولمصلي معد . وفي كل شرف مبهما عدة من المدارس
والمساحد ، ولكل واحد ما يكفيه من الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء
فأظهروا فيها أنواع المفاسد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكل شرف يطل على (الشقراء) و (الميذان) ، و (القصر الأبق) و (المرحة) ذات العيون
والغدران . وما أحسن قول الشيخ شمس الدين محمد النواحي الشافعي في وصف الشرف
الأعلى .

ألا إن وادي الشام أصبح آية محاسنه ما بين أهل النهى تتلى
وإن شرفت بالليل مصر فم يرل دمشق لها بالعوطة الشرف الأعلى

ونقتُ من حط العلاء عني س المشرف المارديني في علام اسمه علي في الشرف الأعلى

حنى عليّ ولكن وجهه حسنُ وفعنه المرتضى يخلو به الشّعفُ
بدرُ من الشرف الأعلى نه نَسْتُ وهل يعبر عني يُسبُ الشرفُ

الأمير محير الدين محمد بن تميم يصف الميذان :

عجماً لميذاني دمشق وقد عدا كلُّ نه شرفٌ إليه يؤول
والهر ببهما لعبر حاية سيفٌ عني طول المدى مسلول

وقال ابن الشهيد في (الشقراء) و (الميذان) :

ولم تحك حلق في احساس بلدة قولٌ صحيح ما به يهتانُ

ولئن عدوت مفاصلاً في غيرها ها بيب (الشقرة) و(الميدان)

ومن تحرير القيراطي قوله في وصف الشقرة :

سرّ بي إلى الشقرة من حلق واث إلى الحصراء منك العنا
فيها حاد لو رأى حسها أبو نواس لَلَهَا عن (حان)
وانزل بواديها الذي ثُرته مسك وحصا الهر منه حُمان
(برهة الأمام 70-)

(73)

المرج . ة

ومن محاسن الشام مرحتها ⁽¹⁰⁾، قرأتُ كتاب وقف تربة السلطان الملك الظاهر
(برقوق) ، سقى الله عهده ، الكائنة بالصحرأ حارح (باب النصر) من (القاهرة) المحروسة ،
وهومتصل الثوت إلى آخر وقت تسحيله على بعض القصاة الشافعية ؛ من حمته طاحون
الشقرة بمرحة (دمشق) المحروسة طاهر قصر الملك الظاهر أبي الفتوحات (بيبرس) سقى الله
عهده ، بالقرب من (راوية الأعمام) ، ويبها قصة سوق عدّة حوايتها أحد وعشرون حاوتاً
وعبوا الطراف المطلة على بمرحة المذكورة وأحراها المسحد المظل على مهر بردي . انتهى .

قلتُ . وأدركتُ الطاحون غير دائرة . وقد هدمها وكيل المقام الشريف برهان الدين
الساسني المعروف ناس ثات في أوائل دولة السلطان المنك الأشرف (قايتباي) حنّد الله تعالى

(10) المقصود بهذه المرجة ما كان يُعرف حتى النصف الأول من القرن
العشرين بمرجة الحشيش ، أما قبل ذلك فبالمرج الأخضر ، وفي عهد نور
الدين ميدان ابن أتابك . وموقعها اليوم يمتد من التكية السلیمانية إلى
المتحف الوطني والمعرض حتى ساحة الأمويين . وفي حوزتنا مجموعة
صور فوتوغرافية قديمة لهذه المرجة قبل إعمارها ، نقلنا بعضها هنا .

ملكه⁽¹¹⁾. فعلى هذا كانت المرحمة عمرة أهمة وهي من المحاسن التي لا تُدرك ، وبعضهم يشبهها بصدر الدار ، كأنه شبهها به لأن الوادي يصم من رأسها ويعلوه حلال وشبه هذين الشرفين بالأحبة .

ونقت من حط التقى اس حجة قوله فيها :

ذكرتُ أحتي بالمرح يوم فقوت أدعني بيران وهي
وصرت أكابد الأحران وحدي وكل الس في هرج ومرج

ومن مديع القاصي محي الدين من عد الطاهر قوله فيها :

ومرحة في ودي يروفت روصها ولا سيما إن حاد عيث مسكر
بها فاص مهر من الحبر كأنه صفائح أصحت بالسحوم تُسمر
تلاحظها غير تميص بأدمع يفرقها منه هالك محجر
وكم عارلته للعرالة مقلة تسارق أوراق العصور فتطر
إذا فاحرته الريح ولت عيبة بأذيال كنان الريا تتغر
به الفصل يندو والربيع وكم غدا به الروص يحي وهو لا شك حعفر
(نزهة الأنام 73-

(76)

الخلخال والمبيع

ومن محاسن الشام محمداً (الخلخال) و (المبيع) ، فمحنة (الخلخال)⁽¹²⁾ بها سويقة

(11) يتضح من قول البدرى أن تأليف كتابه كان في أيام سلطنة الأشرف قايتباي ، كما قلنا .

(12) محلة الخلخال موقعها في أيامنا كما نظن حي الحلبوني ومحطة الحجاز ومبتداً حي زقاق الجن خلفهما ، ووراءها كانت اللؤلؤة الصغرى وقينية

وحوانيت وفرن وحمام وهي مسكن الأتراك ، وكذلك اسميع والشرفان وبه يدق طسحاتهم ، وبها راويتا الأدهمية والحصوية وهي تحفّ بالناس والأعيان .

وما أحسن قول الشيخ حمال الدين محمد بن سَناة في وصف الخنحال :

يا حنّدا يومي نوادي حلقَ ونُرهي مع العرل الخالي
من أوّل الجهة قنّته مرتشماً لأحر الخلحال

و(المبيع) ⁽¹³⁾ محلة وسوقة وحمم وأفرون وبها مدرسة (الخاتونية) ⁽¹⁴⁾ وهي من أعاجيب الدهر ، يمر بصحبها نهر (بنياس) ونهر (القنوت) على باهما ، ولها شاييك تطل على المرحلة وبها أنواح الرحام لم يسمح الزمان سطرها وعدّة حلاوي لمطسة ، وبحوارها دار الأمير الأصيل (اس محلك) رحمه الله تعالى ، وبها سكن القاضي بها، الدين بن حنّي الشافعي رحمه الله تعالى . وهذه المحلة من محاسن دمشق وشرفها . انتهى .

نقتُ من حظ الشيخ شمس الدين محمد البواحي في وصف المبيع :

يا سادة اهدوا محاسن حلقَ لطري فعاصت بالكا عيراتُ
مُنبُع حمي فوق روة حهتي يريدُ ودمعي عدكُم قنوتُ

اللتين تنطبقان على زقاق الجنّ ، والحميرية (الحميريين) التي تنطبق على منطقة المجتهد ودوّار كفر سوسة .

(13) المُنْبِيع محلة قديمة بدمشق ، بدلالة اسمها الأرامي الذي يعني : عين الماء المتدفقة . تقع إلى الغرب من المدينة ، إلى الجنوب من نهر بردى ، ويمرّ بها نهرا بانياس والقنوت . موقعها في أيامنا يمتدّ من الحلونى والبرامكة والجامعة حتى الجمارك غرباً بأعلى ساحة الأمويين . وهي تواجه بذلك الشطر الغربي للشرف الأعلى ، وبينهما مجرى بردى .

(14) المدرسة الخاتونية البرانية ، إحدى آثار العهد الأيوبي (الدارس ، 1 : 502) . كان موقعها عند مبنى التلفزيون بساحة الأمويين حالياً . ذكر ابن كثير في حوادث سنة 581 هـ : الخاتونية البرانية التي على القنوت بمحلة صنعاء دمشق ، ويُعرف ذلك المكان الذي هي فيه بتلّ الثعالب .

مَنْتَرَةُ الْجَبْهَةِ

ومن محاسن الشام مَنْتَرَةُ الْمَسْمُومَةِ بِالْحَمِيَّةِ⁽¹⁵⁾، وهي أَرْضٌ مَرْتَعَةٌ قَدْرُ فَلَائِينَ عِيَهَا
سَقَائِفُ تَطْلُهَا مِنْ عَيْرِ طَيْرٍ بَيْنَ شَجَرِ الصَّفَصَافِ وَالْخُورِ وَالْخُورِ، وَكُلُّ مَعْرِشٍ حَصِيرٍ تَحِيطُ بِهِ
حُدُودُ الْمَاءِ مِنْ أَرْبَعِ حِجَاهَاتِهِ مَعَ التُّرْكِ وَالْمَحْرَاتِ بِالنَّوَارِ وَهِيَ عَلَى حِصْبٍ مَحْرٍ (بَرْدِي)، وَهِيَ
الْبُوعَايِرُ وَبِهَا حَوَايِثُ لِلشَّرَابِجِيَّةِ وَالْحَرَّارِيِّينَ وَالطَّاحِينَ وَالْحَوَاصِرِيَّةِ وَالْأَقْسَمَاوِيَّةِ وَالْكَاهِلِينَ وَغَيْرِ
ذَلِكَ. وَبِهَا مَسْجِدٌ وَمَدْرَسَتَانِ وَمَرْبُطٌ لِلدُّوَابِّ، وَمَقَاصِفَةٌ وَاقْعُونَ فِي حُدُودِ الْمَاءِ.
وَعِنْدَهُمُ اللَّحْفُ وَالْأَطْعَامُ وَالْعِيْرُ مِنْ بَيْتٍ.

وَفِيهَا يَقُولُ النَّفِيُّ ابْنُ حِجَّةَ الْحَمَوِيُّ (دُوَيْت):

مَا مَلَأَ (الْحِمَى . . . هِجَةً) نُفُوسَهُ عَنَى ذَلِكَ حُوفُ الْعَارِ
قَالَ انصَرَفُوا سَمْتُ مِنْ بَدَنَتِكُمْ وَ (الْحِمَى) مِنْ مَنَارِلِ الْأَقْفَارِ

وَفِيهَا يَقُولُ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ صَاحِبُ (الْمَرْقُصِ وَالْمَطَرِبِ) وَقَدْ رَأَاهَا عِنْدَ شَمْسِ الْأَصِيلِ
قُبِيلَ امْعَرَبٍ:

إِنْ لِلْحِمَى فِي قَلْبِي هَوًى مَ يَكُنْ عِنْدِي لِلْوَحَى الْحَمِيلِ
يَرْقُصُ الْمَاءُ بِهَا مِنْ طَرَبٍ يَمِيلُ الْعَصْرُ فِي الطَّلِ الطَّلِيلِ

(15) يَنْطَبِقُ مَوْقِعُ الْجَبْهَةِ فِي عَصْرِنَا، كَمَا يَتَبَيَّنُ، عَلَى سَاحَةِ الْأُمُويِّينَ وَمَبْتَدَأُ
مَرْجَةِ الْحَشِيشِ، أَيْ عِنْدَ بِنَاءِ الْمَسْرَحِ الْقَوْمِيِّ وَالْمَسِيحِ الْبَلَدِيِّ وَمَوْضِعُ
مَطْعَمِ النَّبْلَاءِ. ذَكَرَهَا ابْنُ طُولُونِ الصَّالِحِي فِي مَطْلَعِ الْقُرْنِ الْعَاشِرِ فِي
كِتَابِهِ الْمَخْطُوطِ «ذُخَائِرُ الْقَصْرِ»، وَذَكَرَ قُطَيْبَةُ مَعَهَا.

وتوَدَّ الشمس لو نالت بحـ فـدا تصـمـرَ في وقت الأصيل

ويعبـوها كـمـا (القنـوات) و (بابـياس) المـحـدر المـاء إـيـها مـه ، و مـن فـوق الـهـر حـمـم الـرـهـة
(16) وإلى حاسه مقصف نحوابت فيها الصائغ ويمر بوسطه كمر القنات ويتوصل منه إلى
راوية الحريري المشهورة ويس أندع من مطرها . ويحدر منها الماء إلى المترة المسماة (قطية)
(17) . وهي مقصف على كمر بردي وعليه البوعيرمتشعة أراضيها بمداول الماء والبرك والسحرات
وبه قصة ذات حوابت يعبونها أربعة أطباق ومربط للدواب . وعند المقاصي العبي
واللحم والأطعـام حـتى الأطـباق والمـلاعق مـن بـأكـل . وهدا مما لا يـوحـد في بلد مـن البلاد
أشندي قاضي القصاة عر الدين أحمد الكتاني الحسلي فيها :

أيا حُسْن سلسال عني كمر قصبة إذا ما جرى فيها نحوص وسعب
تهدده أعصاها برؤوسها فيطر من طرف حمي ويهرب

وقال ابن عماد الأندلسي وأبدع :

كمرٌ يهيمُ حُسه من م يهم و يحيد فيه الشَّعر من م يُشعر
فكانه وكأد حُصرة شطه سيفٌ يُسلُّ عني بساط أحصر

(برهة الأمام 77)

(80)

متـرـة النـيرـين

(16) كان الحمام بأسفل جسر الأياسة (حديقة الجاحظ) ، وعُرِفَت أرضه حتى
منتصف القرن العشرين ببستان الحمام ، وقامت فيها بعصرنا مكتبة الأسد
المطلّة على ساحة الأمويين .
(17) ينطبق موقعها في أيامنا على الأرض التي قام بها فندق الشيراتون ، مع
جزء من ساحة الأمويين . ومن جميل الاتفاق أننا عندما كنا نزور مقهى
«النيربين» في الفندق المذكور ، المقام على نسق متنزهات دمشق القديمة
بالأشجار والمياه الجارية ، نتخيل أننا في قطية .

ومن محاسن المنام امتنزه المسمى بالهسية . وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأرهار مع عيون الماء ، وتطهر منه إلى (مرجة حمر اس شواش) ⁽¹⁸⁾ نه مقاصفي وبيع وشراء ، ويتوصل منه إلى أراضي (حصص) ⁽¹⁹⁾ ما بين رياض وعياص . ويعلوها محلة (النيريين) ⁽²⁰⁾ ، وهي [من] أعظم المحلات وأحصرها وأضرها ، حسة الأثمار كثيرة الأرهار وبها سوقة وحمّام يقبل له (حمّام الرمرد) وجامع محصة ، وهي مسكن رؤساء والأعياد وبها دار قاضي القضاة محم الدين يحيى س حجي وفيها قتل رحمه الله تعالى ، ومنها تدخل إلى أرض الرّوبة وأعجب من هذا أن السالك إلى الرّوبة من حبر يجرح من باب (جامع يلعا) يعيش بين أشجار وأثمار ومياه وطل طليل ، لا يمكن أن يرى الشمس إلا أن يقصد رؤيتها انتهى

(18) أي عند بساتين كيوان ، ما بين فندق الشيراتون وزقاق الصخر الواقع إلى الشرق من مستشفى المواساة ، التي قامت على بستان السيلون . وكانت هذه المرحلة على حالها إلى أيامنا ، إلى أن بُدئ مؤخراً بتجهيزها لبناء مجموعة من الفنادق ، في بساتين كيوان على ضفة بردى إلى الشرق من طاحون الرهبان (المعروفة بطاحون كيوان في العهد العثماني وحتى يومنا الحاضر) ، وكانت من ضمن بساتين الوادي التحتاني . أما الجسر فينسب إلى الحسن بن علي بن شواش المقرئ (437 هـ) ، وما زال باقياً إلى أيامنا وله أربع قناطر حجرية ، على وضعه السابق بعد ترميمه في عام 886 هـ كما يذكر المؤرخ ابن طوق .

(19) انفرد البدرى بذكر أراضي حمص هذه بين من أرّخ لدمشق وخططها ، باستثناء الأديب الرحالة تقي الدين بن حجة الحموي ، الذي ذكر في رحلته لدمشق عام 791 هـ : نهر حمص . ويُستخلص من قوله ومن قول البدرى أنه فرع من نهر بردى يتفرّع منه في منطقة (الوادي التحتاني) شرقي الرّوبة ، في المنطقة المعروفة في أيامنا بكيوان . وكانت المنطقة الواقعة إلى الشرق من مرجة جسر ابن شواش وأسفل محلة النيريين تُعرف باسم أراضي (حمص) كما يُفهم من نصي الحموي والبدرى مجتمعين . وموقع هذه المنطقة اليوم ينطبق على الجزء الأسفل الجنوبي من حديقة تشرين على طريق بيروت ، وصولاً إلى الأرض التي كان بها مسبح السيريانا سابقاً .

(20) موقعها اليوم ينطبق على حي المالكي وغيّبه ومنطقة مشفى الشامي وحديقة تشرين .

وفيها يقول بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي يصف النيرين :

رعى الله (وادي النيرين) فإسي	قطعتُ به يوماً ليدناً من العمر
دري أني قد حنته متراً	فمدّ لأقدامي ثياباً من الرهر
وأوحى إلى الأعصاب قربي فأرسلت	هدايا مع الأرياح طيبة الشر
وأحدمي الماء القراح وحيثما	سحتُ رأيت الماء في حدمتي يجري

وأحد الوداعي بقوله ثم أفاد :

ويومٌ لنا بالنيرين رقيقةٌ	حواشيه حال من رقيب يشبهه
وقفاً وسلماً على الدوح نُكرةٌ	فردت علينا بالرؤوس عصونه

سيف الدين المُشدّ ، وأبدع .

وصاً صنتُ من (قاسيون) فسكت	بهبوها وصت العفود السالي
حاصت مياه (النيرين) عشية	وأنتك وهي بنية الأديال

(زهوة الأمام 80-

(82

ربوة دمشق

ومن محاسن الشام محبة (الربوة) ⁽²¹⁾ ، قال بعض المفسرين : الربوة أحدثها سو كعاد وانتدأوها . وهي المذكورة في قوله تعالى : { وأوياهما إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين } ، يعني مريم

(21) ما تزال المحلة معروفة إلى عصرنا ، كمتنزه يعج بالمطاعم والمقاهي ورائحة الشواء .

وعيسى عبيهما السلام وإنما قيل لها ربوة لأنها مرتفعة مشرفة على عوطتها ومياهها وكل
رأب مرتفع على ما حوله يقال له ربوة ومنه تربية الصبي لترفعه في النفس والجسم ، والمعين
الماء الذي يخرج من الأرض .

وقال ابن مطرف في تربيته : الرُّبُوة فيها ثلثي لغات : رُبُوة ، وِرْبُوة ، وِرْبَاوة ،
وِرْبَاوة ، وِرْبَاوة ، وِرْبَاوة ، وِرْبِي ، وَاِجْمَع رُبُ .

والرُّبُوة معارة لطيفة بسبح الحبل العربي ، وبه صفة محراب يقال إنه مهد عيسى عليه
السلام يُرَار ويُدر له . وبها جامع وحصة ومدارس وعدة مساحد ⁽²²⁾ ، وبها قاعات وأطاق ،
وبها عين ماء يقال لها (المشَم) ومرباط لدواب وبها سوقتان قاطع بينهما نهر (بردي) ، وبها
صَيَادو السمك يصطادون ⁽²³⁾ ، والفلّايون على حل النهر يقلوبه ، ويُدبح فيها كل يوم خمسة
عشر رأساً من العجم خلاف ما يجيء من اللحم من المدينة ، وبها عشرة شرايحية ليس هم شغل
غير الطبخ والعرف في الربادي والصحوون وكل ما تشتهيهِ الأنفس فيها وبها فرمان وثلاثة
حوايت يرسم عمل البحر التتوري ، وأما العواكبه فلا قيمة لها فلا يشتري الرطل برع درهم
، وكذلك الرطل الدمشقي من المشمش منه والتفاح كذلك .

وبها حمام ليس على وجه الأرض نظيره لكثرة مائه وطاقته ، وله شايك تطل على
النهر وهو مني ما بين الأنهر من فوقه ومن تحته وبها طارمة المسحد الديلمي الذي حدّده نور
الدين الشهيد وله أوقاف على قراء ووعاظ وقراءة البحاري وغير ذلك كالمودود والمرّاش
والنوّاب والوقاد . وفيه يقول تاج الدين الكندي :

إِنْ (نُورَ الدِّينِ) لَمَّا أَنْ رَأَى فِي السَّائِينَ قُصُورَ الْأَعْيَاءِ
عَمَرَ (الرُّبُوةَ) قَصْرًا شَاهِقًا بُرْهَةً مُطَقَّةً لِمُقَرَّرِ

(22) لم يبق في عصرنا أي شيء من ذلك ، إنما هناك كتابة أثرية نادرة على
متن الصخرة المعروفة بـ (المنشار) ، تؤرخ ببناء مسجد هناك عام 444 هـ
في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي .

(23) أي كان في نهر بردي عند الرُّبُوة سمك ، وكانت مياهه عذبة شروبة . أما
اليوم فحتى الضفادع تأنف من العيش في بردي لقذارته وئنته .

وقال الأمير محير الدين محمد بن تميم وأحسن رحمه الله .

يا حُسَّ طارمة في احوّ شاهقة	ما ان تملّ بها العيان من نظر
ترّه خاطك في طافاها لترى	أصاف ما خلق الرحمن لشر
ترى محاسن وادٍ يحتوي رهاً	لداذة السمع والأبصار والفكر
وربوة قد سمت حتى تحال لها	سراً تحدّثه للأبحم الرهر
ما بين روص وأهّار سلسلة	تجري وتحمل أنواعاً من الثمر
كم بتّ فيها وحدي شادن عح	حوو الشّي كعص الباة البصر
أشكو إليه الذي أنقى ومقته	تشكو إلي الذي يلقي من السهر
حتى رأيت بحوم الليل قد عرت	عاه وهبت علينا سمة السحر
فما بجرّ أديال العفاف بها	والله يعلم مّا صحّة الخير
لاحير في لذة تمصي ويعقها	حطيّة تسلك الإنسان في سقر

ومن لطائفه قوله :

موضع القس حنة اخلد أضحت	مهحتي كل ساعة تشتهيها
طوّقتني بعصلها فلهذا	كنما ررّتها أعرّدت فيها

وهذه القاعة التي بناها نور الدين الشهيد هي على شعب حل جميعها متحتة بألواح من حشب ، سقفها (هر يزید) وأساسها من تحتها (هر ثورا) ومظرها من العايات التي لا تُدرك .
وقالها في الحل العربي⁽²⁴⁾ ضريح العاشق والمعشوق وغيهما صومعتان ميصتان وبيهما سبعة مقاصف كل مقصف فيه من الثريات والمصابيح والعتاء والوطاء ما لا يحتاط به الوصف ، حتى

(24) الجبل الغربي هو جبل المزّة ، ولا وجود لضريح عشاق به في عصرنا ، إنما به السجن المعروف الذي أقيم في أوائل القرن العشرين .

أن بعض الناس يصلح اليها ليتتره فيها يوماً فيقيم بها شهراً ، وحلاها متقابلان متلاقيان عبيها ،
الحل العربي يديه دفت الرعمران والحل الشرقي رأسه مثل الحد . ولهذا أطب الشعراء في
وصفهما

وقد الشيخ جمال الدين محمد بن سانة في وصفهما :

يا حلك من معي دمشق حائم في دوف أشجار تشوق سطعها
فإذا أشار لها الشحي بكاسه عنت عيه يحكها ودقها

وطع الشيخ شمس الدين محمد بن الخياط الشهير بصمدع مع ابن حلكان إلى الربوة ،
فوجد عمداً يعومون ويعمون في نهر (ثورا) الذي تحت التحوت المعروف بالمبقية (25) ، فأشد
ضفدع قوله :

لربوتا واد حوى كل بححة فعيش اورى يحو نديه ويعذب

(25) يقدم لنا البدرى هنا فائدة هامة في الطبوغرافيا التاريخية لمدينة دمشق ،
فاسم المنقبة المذكور كان يشكل لغزاً استغل على الحل مدة طويلة . فقد
ذكر المؤرخ الدمشقي يوسف بن عبد الهادي في أواخر القرن التاسع
الهجري برسالته «غدق الأفكار في ذكر الأنهار» : نهر ثورا .. مقسمه من
الربوة .. يهبط في نقب يُقال له [...] . وقد سقط من المخطوطة اسم هذا
النقب بسبب تاكل أطراف الأوراق ، فبقي اسمه مجهولاً ، وكنا أمضينا في
التفتيش عن اسمه سنوات طوالاً ، إلى أن أسعفنا به البدرى أخيراً . وكان
الرخالة الكبير ابن بطوطة الطنجي قد وصف النقب في رحلته لدمشق
عامي 726 هـ

و 749 هـ ، ولكن دون أن يسميه : وهو يشق تحت الربوة ، وقد نُحت له
مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير . كما عثرنا أيضاً على ذكر للمنقبة
في أواسط القرن التاسع الهجري في كتاب «خريدة العجائب وفريدة
الغرائب» لابن الوردي ، ص 181-182 ؛ وكذلك في النصف الأول من
القرن العاشر الهجري في كتاب «مفاكهة الخلاخ في حوادث الزمان» لابن
طولون الصالحي (1 : 320) : قطع ماء نهر المنقبة . ويُفهم من كلامه أن
اسم المنقبة كان يُطلق في عصره على مجرى نهر ثورا بعد أن يهبط من
النقب المذكور .

ترقّ لنا الأثمار من تحت حنكه فلا عجب أن يحوص ولعب
فأنشد اس حلّكان رحمه الله .

وسرب طء في عدير تحالهم ندوراً نأفق ماء تلدو وتعرب
يقول حليبي والعرام مصاحبي أما لك عن عهد الصباية مذهب
وفي دمك المطبول حاصوا كما ترى فقلت له دعهم يحوصوا ويعبوا
(نزهة الأنام 82-

(91

المقنة . . م

ومن محاسن الشام (المقسم) الذي تقسم منه السعة أثمار ، وأصله من يابيع (عيون
التوت) (26)

وإليها يشير برهان الدين القيراطي بقوله :

عندي لأرض دمشق فرط صباية فسقى حماها الرّحّ صوب عيوث
وعيوثا لفراق مشمشها حكي حريانُ أدمعها (عيونُ التُّوت)

وعر [بردى] عني قرية الربداني كالبحر إلى أن يتقي على قرية (الفيحة) الفيحاء [عياه
يسوعها] .

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي في وصف الربداني

دمشق وافي بطيب عيمها المتداني

(26) أي نبع بردى في قرية الربداني غربي دمشق .

ويقال : من طاهر (باب السلامة) إلى ظاهر (باب توما) ثلاثمائة وستون عيماً تجري إلى القلعة . قلت : ورأيت عالها وارتويت من عدها . انتهى .

وتقسم هذه الأنهار السبعة منها : (يريد) و (ثورا) بذيل الحمل الشرقي . ويشق نهر (بردي) بطن الوادي ، ونهر (بايلاس) ونهر (القنوات) ونهر (الغاية) ونهر (الدّاراني) بذيل الحمل العربي .

واحر ما يتصمّى من هذه الأنهار ويفصل منها هو نهر (بردي) ويترن في (المقسم) على نحو من عشرين درجة كانشادروان ، فرؤيته تُذهب الهم وتزيل الحر .

وما أطف قول القاضي صدر الدين بن الأدمي رحمه الله :

قالوا فؤادك برّد عن محبتهم فقت نار الهوى لا تطفي أدا
برّدت قنبي عن الأحباب مُد رحبوا بما (يزيد) علي (ثورا) وما (بردا)

وقل صاحب دواوين الإثناء العلاء بن فصل الله :

ابرل بماناس فمي نهرها سرُّ به نخلي عروس السرور
واسمع حديث الماء في حريه فانه يشمي عليل الصدور

وجمعها الشيخ شعبان الأثاري في قوله وأحد :

شوقي (يزيد) وقت الصّبّ ما (بردا) و(بان ياسي) من (المعشوق) حين غدا
ومدمعي (قنوات) و(العذون) حكى (ثورا) يوم الفقى في عشقه حسدا

(27) يقصد بذلك المثل المتداول قديماً بين أهل الأدب : «من عاشر الزّيداني فاحت روائحه» . راجع الريف السوري لوصفي زكريا ، 2 : 272 .

على معية . ة (بالحنك) (شبابية) كم بها من (عاشق) شهيد
 والبدر (حيثها) والرّدف (ربوها) وحلّها مات من (حشاها) كمدا
 (برهة الأمام 91)

(94)

حواكير دمشق

ومن محاسن الشام (الحواكير) ⁽²⁸⁾، وهي كالحقائق في سفع (حبل قاسيون)، فإن العاصل بينه وبين (حبل الرّبوة) عقبة قرية (دمر) التي تحّد (قّة سيار). يقال إن سياراً هذا وشاراً كانا يتعدان على رأس هذين الخليلين المدينين للرّبوة وكأنهما كانا من أصحاب الخطوة، فإذا أراد أحدهما الاجتماع بالآخر يصعّ قدمه على حبل الخيل والأخرى عند صاحبه، فكأنهما كانا يمشيان في الهواء، فسوا لهما هاتين القبتين على هذين الحسرين.

رجع: وكان حكماء اليونان اردرعوا هذه الرياحير والأرهاير في سفع (حبل قاسيون) لحكمة وهو أنه يقيها البرد كوكها في داره، وأن السسيم إذا مرّ بها يحمل منها [من طيب الريح] ما استطاع ويسري به إلى من تحتها من أهل المدينة والسكان ⁽²⁹⁾.

ومن محاسن الشام (الورد)، وهو حس من ستة أنواع بدمشق حلا الأسود، وقرية الرّنداني هي قعة الورد، يسترحون بها ماورد القاهرة المحروسة ومكة المشرفة وغيرها من البلاد ⁽³⁰⁾. وكذلك فاكحتها هي اسقولة إلى القاهرة المحروسة وغيرها.

(28) كان اسم الحواكير ما يزال متداولاً معروفاً بدمشق حتى أواخر السبعينيات من القرن العشرين، ولقد أدركنا أواخر هذه الحواكير المزروعة بالصّبار والأشجار المثمرة، إلى أن تم اجتثاث آخرها وقامت بها الأبنية الشاهقة، قال حتى اسمها إلى النسيان. وموقعها اليوم يُعرف بغربي المالكي، وصولاً إلى مشفى الشامي وساحة آخر الخط.

(29) هذه كانت دمشق، أما الآن فالحرارة بها في الصيف تسجل 47 درجة مئوية، وأكثر.

(30) للجغرافي الدمشقي شيخ الرّبوة الدمشقي (المتوفى عام 727 هـ) نص طريف ونادر عن صناعة تقطير الورد في عصره بكتابه «نخبة الأذهار في

ومن محاسن الشام . الورد التّسريني ، والتّسريس ، والتّرحس ، والسفسح ، والياسمين ،
 والمثور ، والسّوس ، والرّسق ، والبهار (وهو الأقحوان الأصفر) ، والأقحوان ، والأدريون ،
 والبانوح ، والأس ، والرّيحان ، والسّمام ، وشقائق العمان ، والبيوفر ، والسن ، والأس البرّي
 (قف وانظر) ⁽³¹⁾، وتغرّختا ، والحيلاني (وهو شجر يشبه الصمغ) ، وشجر الرّبرحت ،
 وشجر السّرو .

قلتُ : وجميع هذه المحاسن بالخواكير ، غير أن بناء لا يصل إليها إلّا بمجهود كبير نعوّدها
 عن نحر يريد . فاصطعوا لها الدّولات ودورانه بكلّ مقيم شديد . وفيه يقول ابن نؤلؤ النّدهي :

حاكورةٌ دولابها إلى العصون قد شكّا
 من حين صاع رهرها دار عليه وبك

(رهة الأناضول 102)

(185)

المرّة واللّوان وكفر سوسية

ومن محاسن الشام أرض «المرّة واللّوان» ، فإنّ حكماء اليونان لما رأوا الحجاب الشمالي
 يصلح لرعاية الأرها ، ورأوا طيبة أرض الحجاب القسي احتاروها لعرض الأشجار .

فمنه : المشمش ، وانقراصيا ، والكمثرى ، والتفاح ، والدّراق ، والحوح ، والأحاص

وكل هذه الأصناف والأنواع بالمرّة وأرض اللّوان ، وفي الدّور الوسيعة انشاء المبيحة

عجائب البر والبحر .

(31) انقرض هذا الأس البرّي من دمشق ، وكانت صديقتنا الكبيرة الأدبية ألفة
 عمر باشا الإدلي نقلت في بعض كتاباتها الأدبية الشّيقة عن دمشق ، من
 ذاكرة بعض بساتنة الصالحية القدّامي من الرّعيّل الأول ، أن أباءهم أدركوه
 وكانوا يسمّونه : الأفضّر .

الأساس والسء وفيها أعيان الناس ، وهي الجامعة بين حسن الأنواع والأحاسيس مع الهواء
الصحيح والاعتدال بالترحيح . وبها سويقتان ، فيهما سائر ما يُشْتَهَى من الألوان . ومصلى
محطة وحطبة محامع حديد ، وفيها صريح الولي المُعْتَقَد الشيخ سعيد⁽³²⁾ ، أعاد الله علينا من
بركاته وأمدّ بصاح دعواته .

وَيُتَوَصَّلُ منها إلى قرية (كفر سوسة) ، وبها معصرة ريت وأشجار ريتون من رم
عيسى عليه السلام ، مع المواكه الكثيرة بطريق الاصمام .

(رهة الأمام 187)

(212)

المزّاز والشويكة

ومنها إلى أرض (نزار) و (الشويكة) ، وهي من محاسن الشام وإليها يُنسب الرُّمّان
الشويكي .

(رهة الأمام)

(214)

دارية . . .

(32) كنا في كتابنا «معالم دمشق التاريخية» (ص 384) قد بحثنا بغير جدوى
تسمية محلة «الشيخ سعد» المعروفة في أيامنا بمنطقة المزة القديمة ، والتي
سكنت عنها جميع المصادر المعتبرة . فها هو البدري هنا يحلّ لنا هذا
اللغز بتسمية الولي الشيخ «سعيد» . وذكر ابن طولون في القرن العاشر
(مخطوط ذخائر القصر) : ومنها الشيخ سعيد قبلي المزة ، تجاه محل
استسقاء أهل دمشق ، وقد أدركتْ به منبراً من حجر حتى قبته .. يهرع
الناس إلى هناك للفرجة على الوادي فوقاني ذهاباً وإياباً ، ويزورون الشيخ
سعيداً ..

ومن محاسن الشام قرية (داريّا) ، وهي قلبي (الشويكة) . وبها السيّدان الحيلال أبو سيمان الداربي وأبو مسلم الحولاي ، أعاد الله عليهما من بركاتهما المتواترة وأعافى عليهما من بحار علومهما الراحرة . وإليها يُنسب الطّيح الداربي .

(نزهة الأنام 219-

(220

يل . . .

ومن محاسن الشام قرية (يَلْدَا) ، وهي من القلعة إلى شرقي قرية (عربيل) ، وما بينهما من القرى الجميع يرسم زراعة كروم لعبت وعرائشه .

قلتُ : وبين هذه الكروم المذكورة قطع أراضي جميعها أصول لور ، ليس لها بطير في أيام توويرها ، وهي من محاسن الشام .

(نزهة الأنام 223

(235

مرج الشيخ أرسلان

ومن محاسن الشام (مرج الشيخ أرسلان)⁽³³⁾ ، أعاد الله عليهما وعلى المسلمين من بركاته

(33) يقع هذا المرج موضع تربة الشيخ أرسلان بظاهر باب توما ، ويتضح من كلام البدرى أن المرج كان يشمل منطقة أكبر من المساحة التي يقع بها المقام والتربة الحاليان ، ويبدو أنه كان يضمّ عدّة بساتين ومحالّ ، كالأحد عشرية وطاحون الجاج إلى أكناف ما يُعرف اليوم ببساتين الطبّالة والدويلعة . أما الشيخ أرسلان فهو المتصوّف المشهور في القرن السادس الهجري ، له عند أهل الشام إلى اليوم مكانة روحية متناهية السموّ ، وما برح اسمه يُذكر دوماً في العراضات الشعبية . وكنا في عام 1984 قد نشرنا عن سيرة حياته كتاباً بعنوان : «غاية البيان في ترجمة الشيخ

، وأحرى علينا من صاح كراماته ، وفيه أقول .

يا من عدا قبيه قاسب قم لولي صادق البرهاد
وقف بدلً واكسار وقل بمدمع يا سيدي أرسال

وهو يشتمل على أكار وأشجار وبواوير لها مع السليم رشاش ، وعاب تلك الأراضي
تررع احشاحش .

(برهة الأمام)

(248)

الوادي التحتاني

ومن محاسن الشام (الوادي التحتاني) ⁽³⁴⁾ ، وهو شرقي (مرح الشيخ) ، وهو يشتمل
على عياص ورياض ، فالرياض هي رياض السَّرحل ، وفيه يقول القيراطي .

فؤادي إلى بانات حنق مائل ودمعي على أكارها يتحدّر
فؤاي إلى رهر السرحل شيقاً إذا ما بدا مثل الدرهم يتر
عباصٌ يقبص الماء في عرصاتها فتزهو حملاً عد داك وترهر
ترى ردى فيها يحور كأه وحصاؤه سيفٌ صقيل محوهر

وهما بكنة لطيفة وهو أن الشيخ حمال الدين محمد بن سانة قدم إلى دمشق في أيام
السرحل فأصافه الشيخ حمال الدين يوسف بن عام في (الوادي التحتاني) لأحل رؤية رهر

أرسال» ، للمؤرخ الدمشقي ابن طولون الصالحي .
(34) يريد البدرى بهذا الوادي التحتاني القرى القبلية للغوطة الشرقية ، الواقعة
شرقي مدينة دمشق ، جنوبي المجرى الرئيسي ليردى . مع التنبيه إلى عدم
الخلط بينه وبين الوادي التحتاني إلى الجنوب الشرقي من الرّبوّة ، فيما
يُعرف بإيامنا ببساتين كيوان .

السفرجل ، فصادف بحار حرّ وقبط شديد ، فأشدّ الشيخ حماد الدين محمد بن سُرّة المصري .

قد أشبه الحمام منزل طوبا فالماء بسحر والأراهر تحق
فلذاك جسمي مشد ومصحفٌ عرق على عرق ومثني يعرق

فأحابه الشيخ حماد الدين يوسف بن عام يقول .

ما أشبه الحمام منزلُ طوبا إلّا لمعى راق فيه المطلق
فالدّوح مثل قنابه والرهز كالـ حمامات فيه وماؤه يتدفّق

وأما العياض فهي عياض الحور ، وهو في علو السواري حائض الاعتدال ورقه بوجهين
أحصر وأبيض ، له مع السيم حفيف لطيف ساق أبيض صقيل ترتاح الأنفس إليه.

وه (عبيصة السطان) ⁽³⁵⁾ ، وحورها لا يستطيع الإنسان أن يدخل فيما بينه لأنصمامه
ولئلا يضل عن الطريق ، كأنه سكّب بقوال من الشمع .

وبهذا الوادي متّره يقال له (ستّ الشام) ، وهو مرحلة حصراء ما بين هذه العياض وبها
عين تحري ماء بارد عذب .

(رهة الأمام 249-

254)

الح . . مرج

ومن محاسن الشام [مرج] ⁽³⁶⁾ ، وأوله منتهى (الوادي التحتاني) وآخره (البحرة) ⁽³⁷⁾ ،

(35) كانت هذه الغيضة تقع بين قريتي جسرين وحتيّة جرش على نهر بردى ،
ولكنها لا تُعرف بهذا الاسم اليوم . ولا علاقة لها بقرية مرج السُلطان

المعروفة في المرج ، والمنسوبة للسُلطان العثماني سليمان خان القانوني .
(36) الكلمة ساقطة بالأصل ، وما زال المرج يُعرف بهذا الاسم حتى أيامنا ،

يقال إنه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية تررع العنة والحيوانات ، وفي العال الشعي

و(الحرّة) إليها يصبّ ما يقص من مياه أنهار دمشق ومنها صيدها من السماء والماء من الطيور والأسماك صيفاً وشتاء⁽³⁸⁾.

(رهة الأنام

(255

الضمير

ومن محاسن الشام «صمير» ، وهي من القرى القديمة تحدها اليونان ، وإيها يُسب
الطيح الصميري الأصغر .

(رهة الأنام

(256

برزة

ومن محاسن الشام «برزة» ، وهي من متّهرات دمشق التي يُرحل إليها ، وهي شمال
صمير وبها مقام بي الله اراهيم اخيل عليه السلام ، وقد تقدّم سب تسميتها برزة . وإيها
يُسب التبر البرري.

(رهة الأنام 260-

(261

وقديماً عُرف بتسميات عدّة : مرج دمشق ، مرج راهط ، مرج عذراء ،
مرج الغوطة .
(37) أي بحيرة العنّبة المعروفة ، التي يصبّ فيها ما يفضل من بردى .
(38) وأين هي الطيور والأسماك اليوم ! لقد غدت واحة دمشق في خاتمة
الألفية الثانية منطقة أدعى إلى الجفاف أيلة إلى التصحّر بسبب الاكتظاظ
وسوء استخدام الموارد المائية .

القابون

ومن محاسن الشام «القابون» ، وهي حسة لماء واهواء ، وهما قابونان: فوقاني وتحتاني ، وهما أرض (مصطبة السلطان) ⁽³⁹⁾ ، وهي مصطبة في قدر فدان يصعد إليها في بيف وعشرين درجة من جهاتها الأربع ، وفيها قصر حوس الساء يتزل به الملوك والسلاطين عدد توجههم إلى الأسفار .

وإلى هذا القابون يُنسب الخيار .

(برهة الأمام 264)

(265)

بيت لهما والعنابة

ومن محاسن الشام (بيت لهما) ⁽⁴⁰⁾ والعنابة) ، ومن الناس من يقول (بيت الآهة) وهو مكان مبارك يُزار ، ويقال إن حواء عليها السلام كانت مقيمة بهذا المكان . ونقل بعض المؤرخين قال : كانت حواء عليها السلام في (بيت لهما) وآدم عليه السلام في (بيت أبيات) وهابيل في (سطرا) وقابيل في (قيية) .

فائدة عن عبد الرحمن بن يحيى بن اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، قال : كان حارح باب الساعات صحرة يوضع عليها القربان ، فما تقبل منه جاءت نار فأحرقتة وما لم يتقبل بقي على حاله . وكان هابيل صاحب عمم وكان منزله في (سطرا) ، وكان قابيل صاحب ررع وكان منزله في (قيية) ، وكان آدم في (بيت أبيات) ، وكانت حواء في (بيت

(39) يريد بها مصطبة السلطان ، كانت في سهل القابون بينها وبين برزة ، وهي مصطبة عظيمة كان الملوك والنواب والقواد في العهد المملوكي ينزلون بها إذا قدموا من جهة حلب ، ثم تخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ، ويدخلون دمشق بموكب حافل .

(40) موقعها اليوم حي القصاع المعروف ، إلى الشمال من محلة باب توما .

لهيا) . فحاء هابيل كئش سمين من غمه فحجعه على الصخرة فأحدثه النار ، وحاء قابيل
نقمح من علقته فوصعه على الصخرة فبقي على حاله ، فحسد قابيل وتعه في هذا الخبل يريد
قتله حتى صار من أمره ما صار .

قال بعض المؤرخين : وهذه الصخرة هي الآن في الجامع عند باب حيرون بالقرب من
(حاصل الریت) وهي صحرة سوداء مقرورة . انتهى .

(رهة الأنام 268

(270

العنابة

وأما (العنابة) ⁽⁴¹⁾ فهي محبة الآن تشتمل على دور وفصور ، والسب في تسميتها أن
كاهناً في زمن الروم كان يتعد في صومعة تلك الأرض فحصل له عنة أشرف منها على الهلاك
، فترل عنده تاجر من تجار الروم ومن حملة متجره حمسة أحمال عتاب ، فحبها ونشرها ،
وكانت دمشق مُمحلة من العباب وليس يوحد بها حنة عباب ، فصار هذا الكاهن يتناول منه
وقد طاب له . فلما أصبح حاء إليه الطبيب فوحده قد نصل من تلك العلة ووحد الكاهن في
نفسه شاطئاً ، فقال له : ما الذي استعملت البارحة ؟ قال: الشيء الغلابي ، وسي ان يذكر
له العباب . فقال الطبيب : ونعلك استعملت عتاباً ؟ قال : نعم ، ومن أحرك بذلك ؟ قال
: نعمي أن علتك هذه لا يرئها سواه ، وهو معدوم ، واحتشيتُ أن أعلق حاطرك به .

فررع الكاهن الأرض التي حول صومعته جميعها عتاباً ، وتقرّب بها في كل من احتاح
مها إلى شيء بأحده ، حتى يقال إن في الإسلام وُحد من ذلك العباب فرد شجرة وُئي ما
حولها ، فسميت تلك المحلة بها ، والله تعالى أعلم .

(رهة الأنام 268-

(41) موقعها في يومنا شمالي محلتي القزازين والسادات ، عند جادة الخطيب
والقصور .

سطرا ومقرى

ومن محاسن الشام أرض (سطرا ومقرى) ، وهما من الأراضي الطيبة الفيحاء وفيها يقول حلال الدين ابن حطيب دارياً :

حيليّ إن وافيتما الشام بُكرةً وعايتما الشقراء والعوطة اخصرأ
فما واقراء عي كتاباً كتيته بدمعي لكم مقرى ولا تسبأ سطرأ

وفيها يقول ابن عُبَيْر :

ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً وطَلْتُ يا مقرى عليّ طيلُ
دمشقُ في شوقٍ إليها مَرَحٌ وإن لَحَّ واشٍ أو أَحَّ عدولُ

وبيهما منتهً يسمى باليلكي ، يجتمع فيه الناس أيام رهر السفرحل ويسبّون الماء تحت أشجاره ويوقدون في طمّة الشهر قشور البيض ويطفئونها في الماء ، ويعلقون قشور النارج موقدة في الأشجار ، ويضربون الخيام في بستان الخاحب ويقطعون فيه أوقاتاً من السدة والاشراح يعحر الوصف عنها .

(رهة الأمام 273-

أراضي المزارع

ومن محاسن الشام أراضي المزارع⁽⁴²⁾، وهي حصرة مع الغلة وكثرة المياه ومن خصوصياتها الهليون والطرحون والكرنب والبادججان والكراث والحرر، وبها الرعتر والمحل والسداد والعباع والرشاد والبقة والإسماع والكرفس والسلق والهندباء والبصل والثوم والكسبرة والكراويا والكمون والقرع، وبها الكمأة وهي من حواصها، وبها البوباء والأرر والبقلاء والدرّة والدّحس والمناش والقرطم والعنّس والسّمسم ونزر فطونا والترمّس والخمّص والحلة واحسّ.

(رهة الأيام 275-

(310)

الميطور والسيلون

ومن محاسن الشام أرض (الميطور)⁽⁴³⁾ و (السيلون)⁽⁴⁴⁾، وهما من متّرهاها، ويقال إن أول من عرس بها غراساً بيده سيمان بن عبد الملك [وبهما شجر] السدق والمستق.

ويقال إن سليمان بن عبد الملك كان مهماً في الأكل، فحواه بستاني ليضمّن بستانه هذا، فقال: أركبُ إليه أولاً أنظر فاكهته ثم صمّكت إياه. ثم ركب ودخل البستان فم يدع به من الثمار إلا اليسير حتى ما حتّى فيه من البندق الأخضر والمستق إلا ما عرب عنه. ثم نادى الصامّ سيمان وقال لشهود: اكتبوا على هذا صمان هذا البستان. فقال الستاني: كتّ

(42) يخيل لنا أنه يقصد بها منطقة بساتين أبي جرش، بما يصاقب اليوم منطقة شرقي ركن الدين والحزام الأخضر وملعب الفحاء ومبتدأ أوتوستراد القابون.

(43) الميطور من أراضي الصالحية المعروفة شرقيها بين نهري يزيد وثورا على طريق برزة.

(44) لا نظنه بقرب الميطور بالأرباض الشرقية للصالحية، بل بالتّيرب، وسنأتى على ذكره. وكان أسفل الميطور ونهر ثورا محلة بيت أبيات، بنواحي مشفى ابن النفيس اليوم.

أضمه قبل دخول أمير المؤمنين إليه !.. فصحك منه . ويقال إن قشر السدق والفسق تجمّع
فحاء قدر مكّوك طائفي وفصل عنه .

نقل الحافظ ابن عسّاكر في تاريخه عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث قال : أحبرنا أن
سيمان بن عبد الملك أمر قيّم بستانه أن يحس على الفواكه لا يحبي منها شيئاً ، وأمري
بالركوب معه عند طلوع القمر من آخر الليل ومن حصر من أصحابه فلما دخلنا إلى
البستان انبرد كل منا يأكل حتى ارتفع النهار ، ثم صرنا إليه وقد أكلنا قدر الطاقة . ونحن
نقول : هذا القطف العس استوى ، فيحرطه في فيه . وهذه التاحة نصحت وهذه الاحاصة
ناعمة ، وكلما رأينا شيئاً صيحاً شير إليه فيتناوله ويأكله .

حتى أن الصّحى ، فأقبل على قيّم البستان وقال : ويحك يا شمردل إني قد جعت ، فهل
عندك شيء تطعمنيه ؟ قال . نعم ، عناق حولية حمراء . قال : انتني بها بلا تأخير . فحاء بها
مشوية على حواو وهو قائم بين أشجار العاكةة . فصار يتناول منها قطعة بعد قطعة ويتناول
عليها العاكةة إلى أن فرغت .

فقال له . يا شمردل هل عندك غيرها ؟ فقال : نعم . دحاحتان معلوفتان قد عميتا
شحمًا . قال : انتني بهما . ففعل كما فعل بالعناق وأتى بهما وهو قائم بين أشجار العاكةة
حتى فرعا ، وقال له : إن كان عندك سوق بسم سلا وبعض سكر فانتني به فإني جائع .
فحاء بذلك فأكله . واستدعى ماء بارد وحل شمردل يصب عليه الماء وأمير المؤمنين يحرّكه
حتى كفاه فارعاً .

ثم أعاد الأكل في العاكةة فأكل ملياً ، وإذا ناسمات حصر فحس يأكل كأنه لم يأكل
شيئاً قال الحارث . فعجبنا منه .

ويقال إنه عرضت له حمى عقبب هذا أشرف منها على الموت ، وقيل بل سب موته
أنه أكل أربعمائة بيضة وسلّتي نين وسعمائة رمانة وحروف وست دحاحات ومكّوك ربيب
طائفي . انتهى .

وبما ذكر ذلك على سبيل الاستطراد وذكر بستانه والله أعلم

السهم

ومن محاس الشام (السهم)⁽⁴⁵⁾، وهو متصل بأرض الصالحية، وهو درب ما بين دور وقصور وفاكهة ورهور ومياه تحري بدير كالبحور . وفيه يقول القيراطي :

دمشق بواديها رياضٌ رياضٌ بها ينحلي عن قلب باطرها الهُم
على نفسه فليك من صاع عمره وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمٌ

ومن لطائفه قوله فيها وفي السهم :

قاع دمشق للأمير شائر فقف بمعاي حكها مترما
قاعٌ إذا قوس الرناب سهمه رماها عدت بلوشي برداً مسهما

(برهة الأنام 317-

(318

بصارو وبهران

ومن المحاس أرض (بصارو)⁽⁴⁶⁾ و (بهران)⁽⁴⁷⁾، وهما معدن الثوت وأصل حُسه

(45) كان هناك سهمان : السهم الأدنى موقعه في عصرنا طريق الجبة على كتف نهر ثورا شرقي محلة الجسر الأبيض ، والسهم الأعلى بمحلة طريق الشيخ محيي الدين بأعلى الجبة .

(46) من بستائن الصالحية المعروفة ، ذكره ابن طولون الصالحي في القلاند الجوهريّة (1 : 315) ، وأثبت الشيخ دهمان موقعه في مخطّطه عن الصالحية بين محلتى الميطور والشبلية بأسفل نهر يزيد . قلنا : ينطبق في أيامنا كما نرى على حي ركن الدين .

الصالحية

ومر محاس الشام (الصاحية) مشحوة بالروايا والترب والمدارس حتى أن بها قصة دون
مير نمشي فيها بر ترب ومدارس ساء حميل ، استور عبيها لشارون والطار ، فأرأوا منها
العين ولم يبق سوى الآثار . فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح ، وأمست في
ظلمة بعد تلك المصايح ، وهي
تقول : أصحتُ حاصلاً ، بعدما كان إيواني بالقرء عامراً أهلاً ، وهذه تقول : أصحيتُ مريضاً
للهمائم ، بعدما كنت معدداً للقائم ومصائم . وهذه تقول : اتحدوني مسكناً . وهذه تقول :
جعلوني متباً . وهذه تقول : هتوني ، وأحدوا سقي وكشموي . وهذه تقول : أحربوا
حداري وباعوا الباب ، وحعلوني مأوى للكلاب . والأوقاف تستعيث إلى المولى المعيث ،
فيقال لهم : اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن : { إنا إلبا إياهم ، ثم إنا عينا حساهم } .

فيا شوقاه لحس (الحركسية) وحلاوة (الركسية) ، ويلهامه على (جامع الأفرم)
(الناصرية) ، تعبرت تلك المعاهد ، وعققت أبواب تلك المساحد
والمعاهد . إنا لله وإنا إليه راجعون . إنا هذا هو البلاء الحسيم . فلا حول ولا قوة إلا بالله

(47) ذكر ابن كنان الصالحي في القرن الثاني عشر الهجري بكتابه «المروج
السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية» (ص 66) : والنيرب غربي
الصالحية ، وهو من محاسن دمشق ، أوله بستان بهران . وذكر د. صلاح
الدين المنجد (تاريخ دمشق لابن عساكر ، 2 : 337) : كان في النيرب
الأعلى بين النهرين مكانان اسمهما بهرام وسيلون . قلنا : أما السيلون فهو
موقع مشفى المواساة اليوم ، وأما بستان بهران فكان يقع جنوبي وغربي
الفواخير ، بين محلتى الباشكاتب ونوري باشا في عصرنا ، أي أول بساتين
النيرب غربي الصالحية .

وبالصاحية نهران فيها بحريان : (ثورا) و (يريد) ، وكم عليهما من عرفة وقصر مُشيد

يُحكى عن ابن الصائع الحمي أنه لما قدم من القاهرة إلى دمشق المحروسة برل في (الحسر الابيض) عند الأمير محير الدين بن تميم ، وهر ثورا يمر بداره المأنوسة ، فأحسسه على جانب النهر لأجل برد الهواء ، فرأى شمس الدين ابن الصائع ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما أعجبه ، ثم التفت لاس تميم وقال له : أنت يُعيبك هذا النهر عن شراء الفاكهة ببيع فصله العميم . وأشدّه في الحال ارتحالاً :

يقول وقد رأى ثورا حليبي يعيص بسائر الثمرات ويطا
أيكمكم فلا تشرون شيئاً فقتُ نعم ، وسيعُ أيضا

فقال ابن الصائع : وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان ؟ قال له ابن تميم : إنما هذه من اشتاك الأشجار وأحائها عليه ، فيلقونها السيم عندما تشتك الأعصاب ، وأما الساتة فإنهم يصعّون فواكه مجموعة على أبواب الساتين ، كالركاة لمن يمرّ بها ويحتاج إلى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين .

وأخبرت في القديم أن بعض الفقراء يصعّ مكنثه على رأسه ويسرح في طرق الساتين ، فيعود وقد امتلأ مكنثه مما يسقط من الأثمار ، من غير أن يتناول بيده شيئاً . وفي الساتين من يزرع أشجاراً للفقراء يعرفونها بالتركّار ، وعالماً ما يُزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها . انتهى .

وعال أهل الصاحية يُهادون سكان المدينة بالسّجّ والأترُج والكتّاد ، لمؤ حسه عندهم وبصارته التي هي في ازدياد .

(برهة الأنام 320-323)

جبل قاسيون

ومن محاسن الشام (جبل قاسيون) ، فإن الصاخبة في سمحه وتحت دراه ، وهو جبل مبارك به آثار الأسياء والصحابة والأولياء ، وبه (الكهف) ويقال إنه كهف أصحاب القصة ، وبه مغارة الدم يقال إن كل ليلة جمعة يرى بها قطرة دم ، وبه محاريب الأربعين محل تعبدهم وبه يست من عند الله تعالى من الأرهاز والأشجار ما لا يست في غيره . وسقيه بالأمطار . فمن أزهاره القرنفل والحرام والشيخ والسماق والرعرور والريروفون والحروب .
(برهة الأنام)

(45 39)

قرية متين

ومن محاسن الشام قرية (مير) ، حصرة نصره وهي شمالي جبل قاسيون ، وبها السيدان الحليان (الشيخ حدل) و (الشيخ أبو الرحاب) أعاد الله علينا من بركاتهما . ويقال إن الشيخ حدل لا يقل من أيام عنده ، فإذا نام الإنسان حول الصريح يفتح عينه يجد نفسه مقي حارح المرار ، وقد اشتهر ذلك عنه .

وإلى مير يُنسب الحور الميبي . وبها التنج الذي يقيم من العام إلى القابل ، ويُحمل ثلج السيطان إلى القاهرة مدة العام . وما يستعمل دمشق الجميع منها يخرّونه في حواصل معدة له .

ويست في الثلج الريس ، ويست في حبال الثلج أيضاً أمير باريس ، قال ابن البيطار هو ابن باريس وبالعارسية الرّرشك . ويست بهذا الجبل النصور .

وتم أشياء لا تست إلا في الأراضي الحارة كالقُنْقال ، فإنه يطلق بأرض قرية العور من أعمال دمشق ولا يست في غيرها من أرض الشام . ومنها المور وقصب السكر .

غوطة دمشق

قت . وأما محاسن الشام⁽⁴⁸⁾ فإنها لا تحصى ، وعوطتها الجامعة للمحاسن لا تُستقصى وقد جاء في الأخبار عن كعب الأخبار رضي الله عنه . «عوطة دمشق ستان الله في أرضه».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿وَأَوْبَاهَا إِلَى رُبُوعٍ دَاتٍ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ، قال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هي في الشام بأرض يقال لها العوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام وفي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما بقط . «قال هي دمشق» .

قال الذهبي وأجمع سواح الأرض والأقطار على أن متزهات الدنيا أربعة ، وهي (صعد سمرقند) و (شعب بؤال) و (نهر الأبلّة) و (عوطة دمشق)

قال أبو بكر الخوارزمي في رحته : رأيتها كلها فكان فضل عوطة دمشق على الثلاث كفضل الأربعة على غيرها ، كأنها الحية وقد رُحِرت وصوّرت على وجه الأرض .

وما أحسن قول الشيخ علاء الدين علي بن المشرف المارداني وقد أشدّ به شقيقه ركن الدين محمد عند قدوم أحبه إلى دمشق بخروسة في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة :

ليس في الحسن نشام نظير لا يغرك بالبلاد العرور
كلّ ما تشتهي به نفسك فيها وبها البشر والها والسرور

(48) كُتِبَ في محاسن الشام وفضائلها مصنفات جزيلة ، من أشهرها «فضائل الشام» للربيعي .

قَتُّ لِرَكِّ مُذْ أُنْحَا عَلَيْهَا وَتَرَاءَتْ وَلَدَاهَا وَاحْجُور
هَذِهِ الْحَيَّةُ ادْحُوا سَلَامًا لَدُنَّ طَيْبٍ وَرَبٍّ عَفُور

وقال الشيخ عبد الله الأرموي رحمه الله . دمشق من أي جهة أقبلت عليها تحدها حلة
بيضاء طرازها أحصر .

وقال الشهاب محمود من رسالة : وأما دمشق فكأنها وحه الخبيب ، وقد دار به العدار
الأحصر الرطيب .

وقال الشيخ عبد الولي الحضرمي رحمه الله : سُحِتُ البلاد ورأيت ما بها من الأعاجيب
، فلم أطر كصعد سمرقند ، وهو بحر تحف به قصور وبساتين وقرى مشبكة العمائر مقدار اثني
عشر فرسحاً في مثلها ، وهي في وسط مملكة ما وراء النهر ورأيت شعب بَوَّان وهي بقعة
مذكورة بيسابور طوها فرسحان وقد التحفتها الأشجار ، وحاست حلالها الأثمار . وهذا
الشعب لبَوَّان بن أيوب بن أفريدون ، وفيه يقول أبو الطيب المتنبي من قصيدة تشتمل على
وصفه :

يقول بشعب بَوَّان حصايي أعن هذا يُسَار إلى الطعان
أُنوكم آدم سَرَّ المعاصي وعَنَمكم معارقة الحنان

ومررتُ سهر الأتلة وهي من أعمال البصرة ، طوله أربعة فراسخ وعلى حانبه بساتين
كأنها بستان واحد قد مُدَّ على حط الاستواء محله كأنه عرس في يوم واحد . ودحبت إلى
دمشق وتزهت في غوطتها ، أحدها أحسن من الثلاث وأكثرها حيراً ، طوها ثلاثون ميلاً
وعرضها خمسة عشر ميلاً مشبكة القرى والضياح لا تكاد الشمس تقع على أرضها لعزارة
أشجارها واكتاف أعصاها .

وقال الميديمي في كتابه (لطائف الأعاجيب) : كان بعوطة دمشق أشجار تحمل
الواحدة منها أربع فواكه كالشمش واخلوخ ، والتفاح ، والكمثرى . وبها ما يحمل الثلاث

وأقنهن اللوات من الفاكهة .

قَتُّ . وهذا موحود إلى يومنا هذا ، فهي رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر ورأيت بوادي اليربين شجرة توت تطرح الثوت الأبيض والأسود وهذا من صبعة الفلاحة يسمى التطعيم ، وهو أن يُؤخذ قطعة خشب من التفاح ويُشق ساق شجرة كمثرى تكون ساقين ، وتوضع تلك القطعة في إحدى الساقين المشقوقه ، وتشدّها بحرقه وتسقيها وتعاهدها إلى أن تنحمر بها ويخرج الورق الحديد ثم تنمر .

رَحَّعُ إلى بقية كلام الميديمي ، قال . وكان عرسُ الأشجار في بعض البساتين كالسُّطور التي تُقرأ . انتهى والله أعدم .

(رهة الأمام 356-

(360)

صناعات دمشق

ومن محاسن الشام ما يُصنع فيها من القماش والسيح على تعداد نقوشه وصروبه ورسومه . ومنها عمل القماش الأطلس بكل أحاسه وأنواعه⁽⁴⁹⁾ . ومنها عمل القماش المُرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله . ومنها عمل القماش الأبيض القطبي المصور لأحياء القصور ، وأموات القبور . وفيها أيضاً عمل القماش السَّائوري بجميع ألوانه وحُس لمعانه .

وفيها تعمل صناعة الذهب المسوك والمصروب والمحرور والمرفوع والممدود والمرصوع . وفيها تعمل صناعة الفرطاس بحس صقاله ونقيّ أوصاله . وفيها تعمل صناعة القرصية ودعاغها المرصية . وفيها تعمل صناعة الرموط والأنواع وتحمل لسائر البلاد والصبايع . وفيها صناعة الحرير بالقتل والدواليب والسريير . وفيها تعمل صناعة السلاح ، بما فيها من

(49) وهذا يُضارِع ما أدركناه بعصرنا من أصناف البروكار والذامسكو والأغباني والديما .

الأعاجيب والاقتراح . وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهود مما تختار فيه الواطر والعيون .
وفيها تعمل صناعة السحاس من الصرب والتفصيل والقوش التي تشرح صدر الناس . وفيها
صناعة ألواح الصقل ودهن ألواح صغار الكتاب ، وحقاق القصع وتفصيل القنقات .

وعالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عنده أبادي الصنّاع من الواحد بعد الواحد
إلى أن يبيف على عشرة صناع حتى تتم .

واعلم أن هذه الصنائع استحدثتها الحكماء بحكمتها ، ثم تعمها الناس منهم وبعضهم
من بعض ، وصارت وراثه من الحكماء والعلماء ومن العلماء لمتعلمين ومن الأستاذين
لتلامذة للصناع . هكذا بقه ابن جماعة في شرحه على بقول العيد ، انتهى .

(برهة الأنام 362)

(364)

قافات دمشق وخبراتها

ومن محاسن الشام ما يُحمل منها إلى الديار المصرية عشرة قافات اُخذت بها ، وهذه
مسمياتها : قصص ذهب ، قبع ، قرصية ، قرطاس ، قوس ، قنقات ، قراصيا ، قمر الدين
من المشمش ، قريشة ، قتب .

وكت في هذا المجل أكتب ، وإذا شحخص حليع يعلب عنده الحال والدخل يتردد إلي
من أهل مصر العتيقة يقال له «تعاير» ، جاء إلي وقال : عر لي هذا الممام : رأيتُ البية في
اليوم رحلاً حيلاً من أهل الشام ، أعطاني قُصعة بها آثار قُص فيه بعض قُصامة مربوطة بحيط
قُب . فأردتُ أن أدخل عليه سروراً ، فقنتُ له : يا تعاير ، من ماساة الحال القُصامة .
وهي ذهب وقصة في وعاء مشدود معقود ، تاله من بعض رؤساء الشاميين . فسرُّ بذلك
وهارقي .

فأحدثتُ أتعجب من الاتفاق وذكر هذه الأربعة قافات المحلوبة من الشام إلى القاهرة .

وفيما أنا في مثل هذا السياق ، إذا أنا نه في اليوم الثاني حائي وهو يصحك ، فقت . ما بالك وما حرك ؟ قال : فارقنك فأحدث بي قطعة حبر ورطت وجلست اكلهم برعيف في عقة قدّام انقياس ، وإذا برئيس شامي في خدمته عبيد وعلمان نزل إلى تلك العقة ، وقال للوئي : اطعم
 لثورره ، وزورنا الآثار ، وقال لعلمانه : لافونا باخيل إلى الآثار فنهربي بعض العبيد وقال : ما تحرج ! فقال له سيّده : دعه يؤاسا . وسألني عن اسمي ، فقت له : الناس يسموني تعاتير ، وإعما اسمي أبو الخير . فتهلّل وجهه وقال . هذا المكان ما اسمه ؟ فأقول له كيت وكيت ، وهذا يُعرف بكدا

إلى أن توحها إلى دزج الآثار وأرد الطنوع ، وإذا عديبل سقط منه في المركب ، فبادرت لمساولته إياه ، فقال لي أعط منه للوئي ديناراً وحده بك بما فيه فقلت يده ، وقال بي : ما تروح معا ؟ قت له : مرسومتك هذا اللوئي اس حارتي ، وأرجع معه . فقال . أدع لنا . وتركته وأنا لا أصدق من الفرح ، فقلت لعص عمنده . أيش يقال لهذا الرئيس بين الشاميين ؟ قال : هذا القاضي بدر الدين بن المرقئ⁽⁵⁰⁾ . دعوت له واصرفت أحد بالمديبل حمسة دناير ذهباً وسعير فصّة ، فدفعْتُ للوئي ديناراً ، وحتت لأتشكر منك على تعبير المنام وأحيرت بتفسيره . فقت له : هذا أعحب من الأول . انتهى .

وعالب ما عددناه وأوردناه من محاسن الشام افردت به دون غيرها ، ويُحمل منها لعاب البلاد لكثرة حيرها . ومن أعاجيبها أن حيرها في الغالب لعير سيها ، حتى أنه يُسي الأهل والأوطان . ولو فارقها لعاد إليها على طول الرمان .

وقال القاضي الفاضل :

يقولون لي ماذا رأيت شامهم فقت لهم كل المكارم والعصل
 فلدنهم حير البلاد وأهلها بإحسانهم تُعني العريب عن الأهل

(50) بنو المزلّق من أسر العلم الشهيرة بدمشق زمن المماليك ، لا ندري أين طوّح بهم الذّهر .

فصول السّنة بدمشق

ومن محاسن الشام أن كل رهة ذكرناها ، ها أو ان يتفرّح أهل البلد فيه ، ورماد يتعاهدونها به ويرجعون إليه . ومن محاسن الشام صيفيتها ، وأنها معللة بحياة الأهرار وعمو الأثمار . وشتوتيتها مؤذنة بموت الأشجار بالاصفرار ، وتعميها بعد التحريد بالأمطار .

لكن يعتدّون للشتاء بالأسمان والأدهان ، وبموتون البيوت بالحونات ، ولحم القديد والمعسولات والعاكهة المعلقة ، والحلاوات المؤنقة . ويكون في الأماكن السحرات ولا يجرعون منها

فيها سدة كثيرة المحاسن ، وماؤها غير أس . وهي مباركة وفيها البركة وعيشها رعد في السكون والحركة . ولكن استقري من كان مولده فيها م يرل في قص⁽⁵¹⁾ ، ما دام بها إلا أن يترل إلى تحت الأرض . ويقال إنه لا يوجد بها اثنان من أهلها على قس واحد متصافيان

(رهة الأمام 368

(373

بركات دمشق

ويقال إن من قصّدها سوء وبواه أكله الله تعالى فيه وأعره . وما قدم عبد الله ابن

(51) يراد بذلك أن مناخ دمشق يورث الاكتئاب . راجع ما كتبه الحاج خورشيد المسائل الحلبي في رسالته الطريفة : «مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام» ، في كتابنا هذا . أما قوله : لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان ، فيعني أن بها علّة الحسد والتباغض . ومن يقرأ أخبار الحسد بين علماء دمشق في كتب التراجم ، كالكواكب السائرة للغزي ، مثلاً ، يجد في هذا القول نصيباً غير يسير من الصّحة ، للأسف !

عبي بن عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم ، دمشق وحاصر أهلها ، فمما دخلها وهدم سورها وقع منه حجر كاد عليه مكتوباً باليونانية ، فأرسل حلف بعض الرهائن قطعه وقرأه فإذا عليه مكتوب : **وَيْلُكَ أُمُّ الْحَبَابَةِ** . من رماك بسوء قصمه الله . **وَيْلُكَ** من الخمس الأعيى ، **نَقْضُ سُورِكَ** عني يديه بعد ألف سنة . فوحدوا الخمس الأعيى عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب

فهى بلدة كثيرة البركات غزيرة الحيرات ، بعم بلدة الأنبياء وموطن الأصفياء والأولياء . وبها صحابة من الأخلاء ، ومقابرها حوت أمثال الفضلاء .

(نزهة الأمام 373)

(374)

جَبَانَات دِمَشْق وَمِنْ بَهَا مِنَ السَّادَات

ومنها حَتَّانة باب الصغير كما بلال الحشني رضي الله عنه ، وبها السيدة سُكينة بنت أبي بكر الصديق⁽⁵²⁾ رضي الله عنهما ، وبها السيدة ربيب بنت الإمام علي رضي الله عنهما ، وبها معاوية رضي الله عنه ، وبها أُويس القرني رضي الله عنه ، وبها أبو عبيدة بن الخراح على ما قيل خارج الجامع المعروف به .

وبينها مقبرة محلّة القرواة ، وبها جماعة من الأخلاء والفضلاء .

ومنها حَتَّانة باب شرقي ، بها أُمِّي بن كعب ، رضي الله عنه ؛ وبها حنبل ابن مُعاد ، رضي الله عنه ؛ وبها صرار بن الأروار ، رضي الله عنه ؛ في حارة السَّادة القدماء ، عفا الله تعالى عنهم .

وتنهيها مقبرة الشيخ أرسلان ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وعنده جماعة

(52) هذا غلط ، فالصواب أنها السيدة سُكينة بنت أحمد السَّبْطِي ، ولها في باب الصغير قبر يحمل كتابات كوفية فاطمية مشجرة ، من أجمل روائع الخط العربي .

وحارح باب توما شرحيل كاتب وحي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والسيدة حولة [ست الأورور] رصي الله عنهما .

وحانة بيب لها ، بها سادة وأعيان وصالحون لهم قدرٌ وشان .

ويليها مقابر باب الفراديس ، بها أبو الدحداح [الصحاني] رصي الله عنه ، وبها عند الرحمن بن أبي بكر الصديق ، رصي الله عنهما .

ومقبرة سوقة صاروحا ، بها صالحون من أهل المسمير .

ومقابر الصوفية ، بها جماعة من العلماء أئمة الدين وصالحو المسلمين ، كان الصلاح وابن تيمية وابن المبارك ، وغيرهم .

ويليها مقبرة القوات و باب السريحة ، وبها علماء الأمة وأهل الرحمة . آحر من دفن بها شيخنا المرحوم العلامة محب الدين النُصروي الشافعي ، رحمه الله .

ومها حانة الحمزية ، وبها المرحومون من الأولياء والصالحين .

ومها مقابر محلة السيدة عائكة ، رصي الله عنها ، ويقال إن في طاهرها صريح الماسك لركاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رصي الله عنه .

ومها حانة حمة القيسات ، وبها العبناء العاملون والحداد والصالحون كالسيد الشريف الشيخ الراهد العالم تقي الدين أبي بكر الحصني الشافعي ، أمدًا الله بمدده .

وهذه حمة المقابر التي في المدينة الحارحة عن مقابر الصاخية والقابوين وغير ذلك . وتَمَّ صحابة في قرى الصواحي ، رصي الله عنهم . كسعد بن عُدادة رصي الله عنه بأرض المبيحة ، وتميم الداري ، رصي الله عنه ، بقرية تميم التي سميت به ، وأبو الدرداء رصي الله عنه ، فإنه داخل قعة دمشق ، والسيدة ريسب الكبرى ست الإمام علي بن أبي طالب ، رصي الله عنهما . وهي أحت أم كلثوم الكبرى التي تزوجها عمر رصي الله عنه ، وكانت مع أحيهما

الحسين لما قتل وقدمنا الشام . وهاتان والحسن والحسين ومُحسن الذي مات صغيراً أولاد الإمام عبي من فاطمة ، رضي الله عنهما ، ثم تروّح بعد موت فاطمة وتسرى ، فعلاه بنون وسانت ، ومن حملة السات ريبب الصعري وأم كلثوم الصعري . وهكذا ذكر شيخنا الحافظ برهان الدين التّاحي رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وقد الشيخ العارف أبو بكر الموصلّي ، رحمه الله تعالى ، في كتابه (فتوح الرحمن) : توفيت السيدة ريبب الكبرى ست علي رضي الله عنهما بعوطة دمشق عقيب محبة أحيها ، ودُفنت في قرية من ضواحي دمشق أسمها راوية ، ثم سُميت البلدة بها . فالان يقال للبلدة الست ولا تعرف إلا بقبر الست ، رضي الله عنها .

قال : وكنت أرورها في أول أحد من العام ، ومعني جماعة من أصحابي الفقراء ، ولا ندخل إلى قهرها بل ستقيسه ونعصُ أنصارنا ، لما قرّره علمائنا في أن الرائر للميت يعامله كما لو كان حيّاً من الاحترام . فبيما أنا في البكاء والخشوع والخصور ، وكأني بها وقد تراءت لي في صورة امرأة كثيرة محترمة موقرة لا يقدر الإنسان أن يملأ نظره منها احتراماً . فأطرقْتُ فقالت : يا بُني رادك الله أدياً ، ألم نعم أن حدّي رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه كانوا يزورون أم أُمى لكونها امرأة محترمة ؟ وبشّر الأمة أن حدّي محمداً وجميع أصحابه ودرّيته يحثّون هذه الأمة ، إلا من حرج عن الطريق فإنهم يعصونه . فلحقني إزعاج⁽⁵³⁾ من كلامها عيني ، فمما عدتُ إلى الحسن لم أحدها ، فواطتُ على زيارتها إلى يومنا هذا . انتهى .

وبالقرية المذكورة صريح السيد اخليل مدرك [الفراري الصحابي] ، أعاد الله عينا وعلى المسلمين من بركاته .

وهذا الذي وصل إلينا من معرفة من بدمشق من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وثمّ فيها من الأنبياء والصحابة والأولياء الصالحين غير ما ذكرناه ، لكن لتوالي المحن والندراس العنم والمعاهد والدمى وانقراض المحبر انقطع الخبر فلا عين ولا أثر .

وأما فصائل الشام فكثيرة ومحاسنها حمة عزيزة ، وبركاتها مشهورة وأحبار حيراتها

(53) لا يريد بمعنى الإزعاج المضايقة ، وإنما الانبهار والذهشة لرؤياها ، رضي الله عنها .

مأثورة . ولهذا أطلقنا عناد القلم في غيضاها وروضاتها وقطوفها الدَّانية للمتفكر في متنهاها ،
وهيَّمتنا إلى الدور في تسلسل أثمارها ونَبَّهنا الأحداق في حدائق أزهارها .

(نزهة الأنام 374-

384)

* * * * *

وصف دمشق

من خلال نصوص نادرة لبعض الرحالة الأوربيين
من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر للميلاد

م نزل دمشق مد القدم واحدة من عواصم الدنيا المعدادات ، ولدت فيها حصارات وعاشت شعوب ودول ، وازدهرت علوم وثقافات وهون . وما نرحت هذه المدينة احالدة دوماً قبلة أطار الناس ، يتوافدون إليها من كل حدب وصوب . ويتقاطرون طلباً للعلم والراحة والبهجة ، أو للسباحة والريارة والتجارة .

ومن حمة هؤلاء الذين راروا دمشق ، عدد كبير من الرّحّالين الأوروبيين الذين اعتادوا ريارة بلاد الشرق لأغراض شتى ؛ كالسمرات والبعثات أو السباحة والاستطلاع أو التجارة والحج . وقد حدثهم دمشق إليها عما أوتيته من جمال وعنى ومتعة للقصا و النواهد . ولم تأحد هذه الرحلات شكلها الفعلي إلا في القرون الوسطى بمصاحبة الحملات الصليبية عنى الشرق . وبقيت بعد جلاء هذه الحملات ذات وتيرة منخفضة . حتى حلول القرن الثامن عشر ، ثم نلعت رحلات الأوروبيين إلى الشرق أوحها في القرن التاسع عشر بطهور المكتشفات الحديثة وحاجة الدول لمعاصرة إلى التعامل والتبادل التجاري ، ثم سهولة طرق المواصلات نسبياً أداث

نتيجة ذلك ، وصننا مذكرات مئات الرحلات إلى الشرق في القربين المذكورين . وأما ما قبل القرن الثامن عشر فلا نجد من هذه الرحلات سوى عدد ضئيل (ناستثناء الأراضي المقدسة : فلسطين) ، وهذا ما دعانا في هذه الشرة إلى التركيز عنى بعض هذه الرحلات البادرة .

نطالع في هذه الشرة أربعة بصوص قصيرة لأربعة رّحّالين أوروبيين راروا دمشق : الأولان منهم رارا المدينة في عهد المماليك ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الثامن والتاسع الهجريين) ، أحدهما رّحالة إنكليزي والثاني نورغندي والأخران رارا دمشق في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين) . وأحدهما رّحالة فرسي ، والأخر نورتعالي .

دمشق في القرن الرابع عشر

نص للرحلة الإنكليزي «جون موندقيل» 1322 - 1356 م

Sir John Maundeville

أشهر وأطرف رحّالي القرن الرابع عشر ، معاصر الرحّالة السديقي ماركو بولو ورحّالنا الكبير ابن بطوطة الطنجي ، يعرفنا بنفسه بقوله : «أنا جون موندقيل الفارس .. انمولود في إنكلترة .. ركبْتُ البحر في سنة 1322 م ، في يوم القديس ميخائيل .. ومرتُ بلاداً محتمةً وحرراً كثيرة ..» .

شعنت أسفار موندقيل وروايته اهتمام معاصريه ، ففيها أوصاف لبلاد الشرق التي رارها : سورية ومصر والعراق وفلسطين . وقد نقل عن مصادر محتمة أحاراً وقصصاً متنوعة (ومنها حراي) حشاها في كتابه . ويستطيع أن نصم المؤلف إلى رمرة الدعاة إلى إعداد حملة صليبية جديدة .

نُشرت الرحلة في ندر عام 1848 ضمن مجموعة «الرحلات الساكرة في فلسطين» ، بعناية توماس رايت :

Wright, Thomas: Early Travels in Palestine, London, 1848.

وفي كتاب رحلات جون موندقيل وصف تمتع بدمشق التي رارها أثناء حكم الدولة المملوكية أيام السلطان اساصر محمد بن قلاوون (1294 - 1341 م) عائناً ، وكانت دمشق تمرّ بأرهي عهودها خلال حكم نائب الشام سيف الدين تكرر⁽⁵⁴⁾ ، فصارت في عهده من بعد القاهرة أرقى مدن الشرق وأنهاها . وفيما يلي وصف موندقيل للمدينة ، ترحاه عن الإنكليزية

(54) للمقارنة راجع نصوص الرحالين العرب حول دمشق آنذاك ، كابن فضل الله العمري وابن بطوطة الطنجي ، في كتابنا : دمشق الشام في نصوص الرحّالين ، 2 : 471-548 .

بعد أن أحرقتُ القارئ عن سكان بعض البلاد التي مررتُ بها ، أعود الآن ثانية لأصف طريق العودة :

فمن أراضي الحبييل التي تحدتُ عنها يعود المسافرون أدرحهم إلى دمشق ، وهي مدينة حسنة وهجمة جداً ، ومليئة بكل أنواع البضائع . تعد عن البحر ثلاثة أيام ، وعن القدس خمسة أيام . يحمل إليها التحار بضائعهم على الحمل والبغال والخيول والحمير والدواب الأخرى ، وتصل إليها البضائع محراً من الهند ووزيران والعراق وأرمينية ، ومن ممالك أخرى عديدة .

كانت هذه المدينة قد سبت على يد «هيليوريوس داماسكوس» Helizeus Damascus ، الذي كان تابعاً لإبراهيم النبي وحامداً ، قبل مولد إسحاق . ولأنه كان يأمل أن يرث إبراهيم ، فقد بنى المدينة وسمّاها باسمه «داماسكوس» Damascus . وفي هذا المكان الذي أقيمت فيه دمشق قتل قابيل أخاه هابيل . وقرب دمشق جبل سير Seir

يوحد بدمشق عدد كبير من ينابيع المياه ، وتنتشر فيها وحولها البساتين البديعة المترعة بعموم أصناف الفاكهة . إنها مدينة لا تُقارن من حيث جمال حدائقها للاستحمام . وهي مدينة كبيرة مبنية بالسكان ، ويدور بها سورٌ قويٌّ مردوح ، وبها العديد من الأطباء .

دمشق في القرن الرابع عشر

نص للرحالة البورغندي «برتراندون دي لا بروكيير» 1432 - 1433 م

Bertrandon de la Broquière

بورغندية Bourgogne إمارة أوروبية تقع إلى الشرق من فرنسا أسّسها أقوام دوو أصل حرماي . وفي بدايات عصر النهضة الأوروبية بعثت هذه الإمارة شأناً عظيماً من القوة في عهد دوقها فيليب الطيّب Philippe III le bon ، بحيث أصبحت واحدة من أعظم الإمارات الأوروبية . ويدو أن فيليب كانت تراود مخيمته أحلام عرو الشرق في حمة صليبية

حديثة ، فأوهد برتراندون دى لا بروكبير في مهمة استطلاع أحوال الشرق مدياً واقتصادياً وعسكرياً .

ولقد أصر لنا دى لا بروكبير نفسه العرص من كتاب رحلاته في المقدمة بقوله : «إنه كتبه ليحدث قلوب الناس الراغبين في رؤية العالم ، وليرصي سيدة دوق بورغوندية ، وليقدم المعلومات اللازمة عن البلاد الواقعة ما وراء البحار لمن تحدّثه نفسه من ملوك أوروبا وأمرائها لفتح بيت المقدس» .

أبحر دى لا بروكبير عام 1433 م متجهاً إلى القدس ، في عهد السلطان المموكي الأشرف برنساوي ، وبعد زيارتها ذهب إلى باقي بلاد الشام دون أن يتاح له زيارة مصر ، وتقل في هذه البلاد مفتاح الأدن والعين ، فوصف مدنها وصفاً مُسهماً وحصر الطرق الخيوية بعناية دقيقة . وحتم دى لا بروكبير كتابه بالحديث عن قوة الممالك العسكرية وحططهم الحربية وسلاحهم وعُدّتهم .

ونُشر كتاب برتراندون دى لا بروكبير في لندن عام 1848 بالإكبرية ، ضمن مجموعة الرحلات المذكورة سابقاً ، بعناية توماس رايت .

Wright, Thomas: Early Travels in Palestine, London, 1848.

كما أعيد نشره بالفرنسية في باريس عام 1892 ، بإشراف شيفر :

Le Voyage d'Outremer, edit. Ch. Schefer, Paris, Leroux, 1892.

أما بالنسبة لزيارة دى لا بروكبير لدمشق عام 1433 م (= 836 هـ) ، فكانت في عهد النائب المموكي حارقطي ، الذي ولي دمشق بين 835-837 هـ . وكان ذا سيرة حسنة . وها هو ذا الص فيما يلي :

تعرفتُ في بيروت على تاجر سدي يدعى حاك برفيرين فصحي بالسفر إلى دمشق ، مؤكداً لي أنني سأأجد هناك تحاراً من النديقة وقطالوية وفورنسة وحوه ، وغيرها

وتستغرق الرحلة من بيروت إلى دمشق يومين . والعادة المتبعة عند المسلمين تجاه الأحاسن في جميع أنحاء الشام هي أنه لا يُسمح لأحبي بدخول الشام راکباً ، فلا يجرؤ أحبي على دخولها إلا ماشياً .

وعلى هذا ، قام المكارري بإزالة أن والسيد ساسون قبل دخول المدينة . ولم يكد يدخلها حتى هرع إليها إننا عشر عربياً التقوا حولنا لمشاهدتنا ، وكنتُ ألس قنعة ذات إطار عريض لم يعتد أهل البلاد على رؤية مثلها ، مرفع أحدهم عصا كادت بيده وأطاح بها عن رأسي واحقّ أي هممتُ بأن أنظمه بجمع يدي لولا أن المكارري وقف يساً ودفعني حاساً ، وجاء عمله هذا من حُسّ حظي ، إذ أن حوالي ثلاثين أو أربعين شخصاً أحاطوا بنا في الحال ، ولا أدري ما الذي كان سيحلُّ بي لو أنني لطمته .

وأورد هذه الحادثة لأتبي أن سكان دمشق قوم أشرار يحب على الإنسان أن يحتاط لنفسه بينهم ، ويحدث مثل هذا في جميع بلاد المسلمين . وتنت لي بالتحفة أن على الإنسان أن يتجنب المزاح معهم ، ولا يبدو حائفاً أو فقيراً ، إذ يصبح هدفاً لاحتقارهم . وعنده ألا يتطاهر بالعنى لأهم شديدو الحشع ، كما يعرف جميع من برلوا في بافا وتكلفوا مبالغ باهضة . ويبلغ عدد أهل دمشق كما سمعتُ مائة ألف نسمة ، وهي مدينة عنية ومركز تجاري ، كما أنها ثاني مدينة في السلطة بعد القاهرة . ويحفُّ بها من الشمال والجنوب سهل واسع ، وفي عريبتها جبلٌ قامت على سفوحه صواحيبها . ويشقُّ المدينة بحر تتفرع منه محار عدة .

وتحيط الأسوار بالمدينة دون الصواحي ، وذلك لكبر الصواحي واتساعها . ولم أر أوسع من بساطتها ، ولا أفصل من فواكحها ، ولا أوفر من مياهها . ويقال . إن مياهها متوفرة إلى درجة تسمح بوحود نافورة في كل بيت .

ووالي دمشق نائب لسلطان ، ولكن السلاطين عملوا على كبح حماح الحكام وإيقانهم تحت إمرتهم بسبب ما قاموا به من ثورات . وفي دمشق قلعة حصينة تقوم على أحد حواشها باتجاه الجبل ، وتحفُّ بها الخنادق ، ويعيّ السلطان للقنعة نائباً ولا يسمح لائب الشام بدخولها وحررت القلعة في سنة 1400 م على يد تيمورلنك ، ولا تزال بقايا التحريب طاهرة

ويقوم بحاسب بؤاة بولس حي كامل لم بعد ساؤه حتى الآن . وفي المدينة حاد محصص لبودائع ، ولتأثير راحة التحار وإبداع صائغهم ، ويدعى حاد بركوت Berkot⁽⁵⁵⁾ لأنه كان في الأصل بيتاً لرحل يحمل هذا الاسم وأطه فرسياً . وقد حملي على هذا الطل وعود شعار زهرة الرسق مقوشاً على أحد أحجار البيت ، ويبدو هذا النقش قديماً قدم الحدران . ومهما يكن أصل هذا الرحل فقد كان شهماً ، ولا زال يتمتع سمعة طيبة في هذه البلاد . وم تقو حيوش الفرس والتتر خلال حياته أن تترع أية قطعة من الأراضي الشامية⁽⁵⁶⁾ ، إذ كان يحفّ إلى ملاقة حيوشهم ويلاحقهم حتى ما وراء حلب عند النهر الفاصل بين الشام وفارس . وأستطيع أن أستنتج أن هذا النهر هو نهر حيحون الذي يصبّ في بلاد التركمان⁽⁵⁷⁾ .

وقد قر في ذكر أهل الشام أنه لو مُدّ في أحبه لما تمكن تيمورلنك من دخول بلادهم ، وعلى كل حال فقد أمر تيمورلنك عندما أحرق دمشق بالإلقاء على بيت بركوت ، وإقامة حارس ليحفظه من امتداد ألسنة اللهب إليه ، الأمر الذي حفظ البيت ودلّ على مروءة تيمورلنك .

وأهل دمشق يكرهون الأحناب . وبلحاً التحار الأوروبيون إلى بيوتهم في مساء ، ويقفلها عليهم أساس معيون لهذا العرص ، ويفتحوها في صباح اليوم التالي عندما يروق لهم ذلك .

(55) هكذا كتب اسمه بالأصل ، والحق أن بعض الرحالين الآخرين ذكروا أن إقامتهم بدمشق كانت مخصصة بخان برقوق ، ويبدو أن هذا ما عناه الكاتب . أما شعار زهرة الزنبق فرغم أنه استعمل للملكية الفرنسية ، فهو قبل ذلك من شعارات (رنوك) أمراء المسلمين في القرون الوسيطة . انظر بحثنا «وصف دمشق في القرن السابع عشر» ، ص 42 .

(56) حكم السلطان المملوكي الظاهر برقوق بين 792-801 هـ (1390-1399م) وكان قد اعتاد الخروج من مصر إلى الشام لمناجزة المغول ، ونجح بصدهم . فبعد وفاته ، دخلوا الشام عام 803 هـ ، ودمروا حلب ودمشق .

(57) كتب رايت ناشر الرحلة يقول : لا شك أن دى لا بروكيير يريد بهذا النهر نهر الفرات .

ولقيتُ في دمشق الكثيرين من تجار حوة والسدقية وكلابريا وفلورسة وفرنسا ، وقد جاء تجار فرنسا لشراء مختلف الأشياء ، وخاصة التوابل ، ويوون نفقها إلى بلادهم بطريق بيروت في السفينة القادمة من نابون . وبين هؤلاء التجار حاك كور Jacques Cœur الذي قام بأعمال عظيمة في فرنسا ، وكان يُشرف على ملابس الملك . وقد أُحبري بأن السفينة كانت إداك في ميناء الإسكندرية ، وأن السير أندرو ورفاقه الثلاثة سيركبونها من بيروت .

وسيوف دمتق حير السيوف ، وأفضل ما يُصنع في بلاد الشام⁽⁵⁸⁾ ، ومن الطريف أن يرى الإنسان طريقة الصّاع في صقلها ، ويقومون بهذه العملية قبل سقيها ، ويستخدمون هذا العرص مقصاً من الخشب تُنتت به قطعة من الحديد يُحرونها على شفرة النصل . وبذلك يسوّونه كما يسوّى مسح الحارة سطح الخشب . ثم يسقون النصل ويلمّعونه ، وهذا التلميع بلع حدا من الإتقان بحيث أن المرء إذا أراد أن يصنع من شأن عمامته أتحد من نصل سيفه مرآة . وأما سقي السيوف فعلى غاية الإتقان ، ولم أر سيوفاً أمصى منها قط .

وتُصنع في دمشق وما حوها من الديار مرايا من المعدن تكبر الأشياء كالرخاح العاكس لسور ، رأيتُ بعضها وقد عرّضت للشمس فعمكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد 15 أو 16 قدماً

وفي اليوم التالي لوصولي شاهدتُ قافلة الحجاج عائدة من مكة ، وقد قبل إنها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الحمال . وفي الواقع استغرق دخول الحجاج المدينة يومين ونسيتين ، وقد كانت هذه المناسبة ، على مألوف القوم ، يوماً بالغا في الحفاوة .

وقد حرح والي دمشق يحفُّ به مقدموا المدينة . لاستقبال الحجاج إجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه ، وهو كتاب الشريعة الذي حلّقه محمد لأتباعه

وكان ملفوفاً بعلاف من الحرير عليه كتابة عربية ، وكان الحمل الذي يحمله محلاً بالحرير . وكان يتقدم الحمل أربعة من حمة المزمار والطبول والكوسات الكثيرة وكنها تدقّ ،

(58) هذا الكلام يدلّ على أن صناعة السيوف الأصيلة لم تنقرض بدمشق إثر نكبة تيمورلنك .

وكان يحيط باحمل نحو ثلاثين شخصاً يتكّبت بعضهم الأقواس ويشهر آخرون السيوف ،
ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون الميران بين القمية والأخرى⁽⁵⁹⁾.

وكان يتمو الحمل ثمانية رجال أحلاء يعلون إبلاً سريعة العدو ، وحيولهم الخموحة محملة
بالقمماش المرر كمش تعلوها سُروح مرحفة ، على حاري عادة القوم هاك وقد تلا ذلك
هودج معطى بالقمماش الحميل يحمله حملان ، وفيه سيّدة قريية للسلطان ، وقد كان ثمة عدد
كبير من هذه الدواب المحملة بالقصب المدهب . أما الحجيج فقد كانوا عرباً وأتراك وبرابرة
ومعولاً وفُرساً ، وغير ذلك من المسلمين .

* * * * *

دمشق في القرن السادس عشر

نص للرّحالة الفرنسي «بيير بولون» 1546 - 1549 م

Pierre Belon du Mans

بيير بولون واحد من أشهر رحالي القرن السادس عشر ، قام برحلة دامت ثلاث
سنوات ، رار فيها بلاد اليونان وبعض مدن القارة الآسيوية ، وحصّن فلسطين بأوصاف
مسببة ، كما رار مصر والحريرة العربية ويداناً أخرى عديدة . وتتميز أوصافه بالدقّة وقوة
الملاحظة .

وطُبِعَ كتاب رحلات بولون في باريس عام 1553 ، ثم تُرجم إلى اللاتينية وأعيد صبعه
مراراً .

(59) كانت الأسلحة النارية معروفة في ذلك العصر ، بين أيدي فرسان المماليك
، وإن كان استخدامها غير منتشر على نطاق واسع ، كما كان الحال لدى
العثمانيين في القرن التالي السادس عشر . راجع كتابنا : حوادث دمشق
اليومية غداة الغزو العثماني للشام ، صفحات مفقودة تُنشر للمرّة الأولى من
كتاب «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» ، لابن طولون الصالحى ؛ دار
الأوائل بدمشق 2002 ، ص 105 .

Les Observations de Plusieurs Singularités et Choses
Mémorables trouvées en Crèce, Asie, Judée, Egypte,
Arabie, etc. (1546-1549), Paris, 1553 .

زار بولون دمشق في حلال رحلته ، وكان ذلك بعد ربع قرن من الفتح العثماني لبلاد
الشام ، الذي تم عام 922 هـ . = 1516 م . ولذا فيمكن لما اعتار وصفه لها ذا قيمة
خاصة ، على اعتبار ندرة المصادر التي ذكرت دمشق في أعقاب الفتح مباشرة . وها هو ذا
وصفه ، ترجمناه عن العربية :

تتميّز دمشق بوفرة كثيرة في المياه ، تستمدّها من نهر حريسوروس
Chrysorrhoeas (نهر الذهب) الذي يتعرّش بالسّاتين المحصورة من مسعه حتى مصّبه ،
أما فروعها في المدينة فهي ضيّقة ومتعرّجة . وفي المدينة نارار (أي سوق) بديع للغاية ، وهو
معطى في أعلاه . أما دور دمشق فتبدو أحمل ما يكون وبأؤها بديع ، لكنّ اللطف ما فيها
مداحها المسقوفة التي تجس لها التهوية والانتعاش .

ولدمشق أسوار مردوحة كما هو الحال في انقسططبية (استاسول) ، وليست حادّتها
المملوءة بالماء على عمق كبير ، ومنها تسقى أشجار التوت الأبيض التي يربى عليها دود القز
لإنتاج الحرير . وعلى كلا اسورين أبراج كثيرة متقاربة ؛ إذ أن كل برج مصع صحم يقوم
بين اثنين احريين أصغر منه ، وهما مستديرا وأحدهما أكبر من الآخر . وهناك قلعة صغيرة
مصلّعة خارج نطاق الأسوار غير أنّها تبدو كما لو كانت لحماية المدينة فقط ، وذلك لأنّ
الضواحي أكبر من المدينة مرتين ، كما أن الأسواق توحد في هذه الضواحي ، أم المتاجر
والبرستات (أسواق الأقمشة) فهي داخل نطاق الأسوار .

وأبواب المدينة معطاة بصفائح من الحديد ، على عكس أبواب القاهرة المعطاة بالخشب
وإلى جهة الشرق يقع برج مصلّع نُقشت على أعلاه كتابة بحروف عربية يقال : إنّها جمعت
عبيه حين استعيد من أيدي الصليبيين ، لأنه تحت هذه الكثافة قليلاً تشاهد زهرتا رسق
مقوشتان على الرّحام ، وهما شعار فرنسا أو فلورنسة . ولكن إلى جانب هاتين الرسقتين

نُقش اسم شخص ، يعني أن تكون هذه الشعارات عائدة إلى فرنسا أو فلورنسة⁽⁶⁰⁾.

تبدو دكاكين الصاعات اليدوية كذلك التي في القاهرة . والصائع في الشام عموماً وفي دمشق تباع مقابل ورات نقدية تدعى الرطل Rotulo ، وهو يعادل سبع ليرات (7 Livres) ، كما في مصر تماماً . وفي المدينة دكاكين يُصنع فيها كاعد الورق الدمشقي . يملحون القطر فيفصلون عنه السدور ، ولديهم لهذا الغرض صفحة من الحديد طولها قدم واحد ، وثخنها مقدار أصعير يصعطون به القطر فوق السداد ، فتخرج عندئذٍ السدور المكورة من أمام القطعة الحديدية

دمشق في القرن السابع عشر

نص للرحالة البورتغالي «سيباستياو ماريث» 1629 1643 م

Sebastiao Manrique

مارييث راهب بورتغالي ، انطلق من بلاده عام 1629 م في رحلة طويلة إلى بلاد الشرق ، فراراً ببداً عديدة في القارتين الأوروبية والآسيوية ، وتوخته في آخر هذه الرحلة إلى الشرق الأقصى ، وراح كلاً من الصين والهند . وبعد ذلك قفل عائداً إلى بلاده ، فعاد إلى الشرق الأوسط مراراً سعاداً ، ثم توخته منها إلى دمشق التي مكث فيها شهراً ووصفها كما سرى ، وذهب بعد ذلك إلى الساحل الشامى وعادر البلاد من مرفأ صيدا إلى قبرص فمالطة . حتى وصل إلى بده البرتغال ، حيث احتتم رحلته عام 1643 .

ويتصف أسلوب مارييث بالرواية الشخصية ، فحده يهتم بذكر ما وقع معه من أحداث أكثر من اهتمامه بوصف ما يرى . وكذلك يشتمل أسلوبه على إرداء واضح لكل الشعوب التي رار بلادها ، وعند كلامه على سكان الشام ودمشق من المسلمين أتى بافتراءات

(60) ذكر هذا البرج أيضاً الرحالة الفرنسي لوران دارفيو ووصفه في كتابه «مذكرات الفارس دارفيو» ، ولقد قمنا بترجمة ما جاء عن دمشق فيه (عام 1660م) في كتابنا «وصف دمشق في القرن السابع عشر» . وعملنا بحثاً حول البرج المذكور وشعارات زهرة الزنبق بدمشق فيه ، ص 42-46 . والطريف أن البرج الذي كان مجهول الموقع في أيامنا ، تم اكتشاف قاعدته في حفريات أجريت عام 2000 ، بعدما كنا نبهنا إليه في كتابنا المرقوم .

في عاية الرقاعة والدعاء ، وقد حذفنا ذلك من الترجمة الحاضرة ، كما كنّا حذفنا بعض ما يشير في نص دي لاروكيير ، وتركنا ما يُحتمل ليدلّ على بطلانها .

قامت نشر كتاب مارتيك جمعية «هاكلوت» الجغرافية البريطانية The Hakluyt Society المختصة بنشر كتب الرحلات الأوربية إلى بلاد الشرق ⁽⁶¹⁾ ، وطبع الكتاب في لندن عام 1917 .

The Travels of Fray Sebastien Manrique, London 1927.

وفيما يلي وصف مارتيك لمدينة دمشق :

بعد مضيّ سبعة وثلاثين يوماً على معادرتنا بغداد ، حطّط الرّحال في مدينة دمشق العظيمة ، أو كما يسمّيها أهلها «الشام» Sciam ، عاصمة بلاد الشام قاطبة ، والتي يطلق عليها بعض الكتاب بطلاً مكاتها العائقة اسم «حّة الأرض» . ولديهم من الأسباب الكثير لإطلاق هذه التسمية ، فالإضافة إلى مباحها الصّحّي الرائع العائد إلى هوائها النّظيف النقي ، نعم بوفرة عظيمة في المياه الرّقاقة التي تجري في أنحاء المدينة قادمة من عدة بياض .

والمدينة مشيّدة في وسط سهل فسيح على سفح جبل لسان Libanus ، وتنع مساحتها فرسحين . ويحيط بها سور مردوح متين ، ترى في بعض حباته تلك الشّعارات (البروك) الطّافرة العائدة إلى ذلك القائد العربيّ الشهير لمانح ، الذي حدّد اسمه بشجاعته ومآثره النّاهرة ، حتى صار اسمه بين أسماء التسعة الأوائل من مشاهير الرّجال ⁽⁶²⁾ ولا رار على السور المذكور نواة يُسمّيها المسيحيّون «نواة بولس» ، وقريباً منها يحدّدون مكان

(61) نشرت الجمعية من هذه الرّحلات منات الكتب ، التي توفّر مكتبة ضخمة ، ولم يُترجم منها إلى العربيّة شيء ، كما لو أنّها كانت مختصة بجزر الواقع ، وليس بلادنا .

(62) يلاحظ تمجيد الكاتب لفرنسا ، لأنّه على مذهب الكاثوليك الذي كانت فرنسا تُعدّ الحامي الأول له . وأخطأ الكاتب أيضاً بنسب شعار زهرة الزنبق بدمشق إلى فرنسا (رغم أنّه لم يصرّح بذكرها لكنّه يعنيها) ، والغالب أنّها شعار نور الذين الذي رُمّم سور دمشق .

الذي كان يقوم عليه مترل حايبا النقي .

وهذه المدينة محمية أيضاً بقلعة تقوم في وسطها ، وهي مسية شكل مرتع ومسورة بحدردان صلة ومحاطة بحدق ، ولها مدحل واحد فقط في جهتها الشرقية ، يُعبر إليه على حسر يمكن رفعه إلى الأعلى عند الضرورة بواسطة سلاسل حديدية .

والمدينة محملة بحدائق غناء ببيعة ، وكذلك بعدة مبان فحمة ، وأهم ما فيها مسجدها الكبير (أي المعبد الإسلامي) ، والتكية التي يتزل بها الحجاج⁽⁶³⁾ ، وحمامات السوق ، ومنها ساحة فحمة لعابة مرتعة الشكل ومحاطة بيوانات حمية ذات أقواس ، تمتلئ دائماً بمختلف أصناف الأطعمة .

وهذه الماكل تنمو بكميات وافرة في ضواحي هذه المدينة العنية ، طراً لخصوبة تربتها ولسقاية الوافرة التي تالها من المياه العذبة لهري «أبانا» و «فرور» المنسابين فيها ، وهذا ما دعا التعمد الآرامي إلى امتداحها في التوراة .

وثمة سب آخر لمكانة هذه المياه عند عن إحصائها لتربة ، وهو تميرها بخاصية معينة تفيد الصيقلير (أناع قولكان Vulcan) - أي صناع السيوف - بإنتاج أحواد التفورات وأفساها ، وذلك بتسقيتها في هذه المياه .

وكذلك فإن حقول هذه البلاد الحصبة تعل ريتوناً طيباً ذا حبات كبيرة ، وبعض أشجار الرتون ها تحمل في مواسمها ثماراً أكبر من الرتون الصحم الدائع الصيت الذي يعمو في منطقة «الشرف» Aexarafe في إشبيلية ، وما لا يقصر عن هذا كله أهمية في ريادة عظمة وعى مدينة دمشق . وعود مصع هام بها كبير ومشهور⁽⁶⁴⁾ ، به أنوال عديدة تُسح عليها أصناف متعددة من الأقمشة الحريرية المُفصصة ، والمسوحات المطررة بحيوط الذهب والعصاة . وعدا هذا المصع ، هاك في جميع أنحاء المدينة أنوال أخرى عديدة في كثير من الدور

(63) أي التكية السلمانية في المراج الأخضر ، التي بنيت عام 962 هـ / 1554-1555 م .

(64) هذه معلومة هامة عن تركيز حرفة النسيج آنذاك بدمشق في مصنع محدد كبير .

بعد أن أتممنا مشاهدة وتفحص كل هذه الأشياء ، حصل ما معنا من متابعة رحلتنا على التو ، وذلك لأن جميع الأقمشة العائدة إلى جمالنا ودينا احتجرت بسبب بعض الديون التي استحققت عليه ، وظالمنا أن أقمشتنا أيضاً كانت معه ، فقد وجدنا أنفسنا محجرين على الانتظار في هذه المدينة ما يريد على ثلاثين يوماً على حساب وقتنا .

وحلال هذه الفترة ، أتيت لنا فرصة مشاهدة رحيل قافلة محمل الحن ، التي تذهب في كل سنة إلى مكة ، حاملة أصنافاً متنوعة من البضائع . وهذه القافلة تتألف من ستة آلاف رجل كما عشنا ، ومن جمع عفير من الدس ، منهم تجار ومنهم مكارية ، وفصلاً عن عدد كبير من المحتاج الذين يذهبون بإيمان عميق إلى مكة

ولقد كان من عادة هؤلاء البرابرة عندما يحين موعد انطلاق قافلة الحن تشكيل موكب عظيم وفخم ، وتسييره عبر الطرقات الرئيسية في المدينة . ويرافق هذا الموكب الباشا Baxa أي والي دمشق مصحوباً بالأئمة ، ومعه مجموعة تمثل أعيان البلد وأشرافها . ويسير الجميع مرتدين اللؤلؤ المبيسة الرائية ، ممتطين حيولهم المظهمة ذات اللؤلؤ المرركشة . بينما يسير الباشا وأمامه الشعار المميز الذي يشير إلى منصبه (65) . وحلقة ثمة من العسكر النظاميين لداسهم الرسمي التركي . وفي وسط كل هذه الأئمة والأساق نُحمل على طول الموكب كسوة حصراء من قماش الأطلس المطرّر بالذهب ، إتھا هدبة سوف تقدّم إلى صريح محمد .

وعند اختتام مسيرة هذا الموكب الحليل تعاد القافلة المدينة . ثم بعد أيام من رحيلها قدّر الله هطول ثلوح كثيفة ، ممّا أدى حسب ما سمعناه من أحبار إلى دفن ثمانية عشر ألفاً من الحمال تحت الثلوح ، والعديد من الفقراء وعمامة الناس . ورغم أن ما حدث كان يتوحد عينا النظر والتفكير ، فقد تنقّباه دون فرح ، وذلك لأنه كان نديراً بالعاصفة التي قد تصيبنا نحن ، وكذلك لأنّ الآباء العرسييسكان الكبوشيين المقدسين ، الذين حللنا في بيتهم ، كانوا

(65) هذا الشعار الذي يميز الباشوات الولاية كان يتألف من السنجق (الراية) العثمانية ، ويُعدّ في أعلاه عدد من ذيول الفرس (طوغ أوجاليش) ، ويدل عددها على رتبة الباشا .

يقومون بكل جهد ممكن لتأمين سفرنا وبخاصة الأب الراهب ميكيل آجيلو فرانشيس Miguel Angelo Frances الذي فضلاً عن مساعداته لنا ، كان يعمل ما بوسعه لتسفيرنا ، بما تتميز به كنيسته من مساعدات كثيرة تلقتها من أنواع عس المذهب في سانت أوغستين ببلاد فارس وبعض المناطق الأخرى في الهند . ولهذا السبب لم يأل هذا الرجل المحنص أي جهد لمساعدتنا .

وهكذا ، كنّا أتممنا استعداداتنا للاطلاق عندما صادف وصور قافلة إلى دمشق قادمة من حلب ، وكان بين ركابها رحلان يهوديان من موطفي الحمرک وعندما علم هذان اليهوديان بقدوم بعض البورتناليين إلى دمشق من الهند في القافلة الآتية من بغداد ، قاما على الفور بالذهاب إلى الداشا وإطلاعه على أمرنا ، وأحياه بأنا أننا محملين بالأحجار الكريمة ، وأنا تركنا سلوك الطريق المعتاد بعية التهرب من دفع المكوس الواحة عينا في حلب ، وأنا كذلك أخفينا البصائع التي كانت بحورتنا ، والتي تخص ملك البورتنال Grand Senor .

فعندما أعلم الداشا بهذا الأمر ، أرسل على الفور حذيين من اليسيرية (الإنكشارية) صحة اليهوديين ، فقدموا رأساً إلى منزل الآباء الكوشيين ، عملاً منهم أننا كنّا هناك . فلم يجدوا في المنزل سوى الراهب الأب ميكيل آجيلو ورميسي في السفر الراهب آنسلم Anselm ، فأحداهما فوراً إلى الداشا بعد أن قاما بحتم المنزل بحتمه . وفي هذه الأثناء سرعان ما وصتا الأحجار مما حدث إلى كنيسة الموارنة التي كنت قد دهست إليها لخصور القداس ، مع الراهب الأب أنطونيو نانتنس Antonio Nanetense ، وهو شخص فرنسي . وعندما علم هذا الأخير بما وقع ، اصطحبني على التو عبر بعض الأربعة الخلفية وأودعني في منزل أحد الموارنة الكاثوليك . وقد تلقانا هذا الشخص بكل حفاوة . ومن ثم قام بحفائي في مكان حفي تحت الأرض ؛ حيث لم يكن هناك من نور سوى ضوء شعة واحدة

وقد لشت في هذا المكان تسعة أيام بمشقة بالغة . بينما قام هذان اليهوديان العادران باحتجار كل ما وصلت إليه أيديهما من أمتعة ، ولم يتركا لنا حتى الحرائط والأوراق التي كانت بحورتنا . ولكنهما عندما لم يعترا على ما تصوّرا وجوده معنا ، حفتت حدة نعتنهما

وأطلقا الرّاهبين بعد معامنة قاسية وحيال ما حدث ، قام الأب أنخيمو بإرسال الأب أسلم إلى بيروت ، ومن بعده أرسني إثر بضعة أيام على طريق صيدا التي وصلها بفضل العناية الإلهية بسلام ، بعد مسيرة خمسة أيام . لكما وصفا شبه متحمدين ، بسبب الثلوج الكثيفة التي أصابتنا على الطريق .

* * * * *

مصادر البحث :

- 1 - روّاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى : نقولا ريادة ، مطبعة المقتطف والمقطّم ، مصر 1943 .
- 2 - دمشق في عهد المماليك : نقولا ريادة ، منشورات مكتبة لبنان ، بيروت 1966
- 3 - وصف دمشق في القرن السابع عشر ، من مذكرات الفارس دارقيو ، نشرها أحمد إيش ، دمشق 1982
- 4 - دمشق الشام في نصوص الرحّالين والجغرافيين والسلاطين العرب والمسلمين من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة : أحمد الإيش ود. فتيبة الشهابي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1998 .
- 5- Wright, Thomas: Early Travels in Palestine, London 1848.
- 6- Broquière, Bertrandon de la : Le Voyage d'Outremer, Editeur: Ch. Schefer, Paris, Leroux, 1892.
- 7- Belon du Mans, Pierre: Les Observations de Plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Arabie, etc. Paris, 1553.
- 8- Manrique, Sebastien: Travels of Fray Sebastien Manrique, published by Hakluyt Society, London, 1927.

* * * * *

مقولة كشف اللثام
عن أحوال دمشق الشام
وهي مقارعة طريقة بين حلب ودمشق

لأديب حلبى من أواخر القرن التاسع عشر
الحاج خورشيد أفندي المسائل

في عام 1984 ، حصلتُ على نسخة مصوّرة من مخطوط طال نحني عنه ، وكتبتُ قرأتُ عنه مقالاً في مجلة التراث العربى الصادرة عن اتحاد الكتّاب العرب . أما هذه النسخة فكانت في الواقع هدية من صديقي المستشرق الفرنسي ، الإسياني الأصل ، «حاج يول ياسكوال» ، ولعلّه - كما يدلّ اسمه - حميد المؤرّج القرطبي الشهير من نَشْكُوال ، حنفى بن عبد المذك الأندلسي (1101 1183 م) .

وهذا المخطوط هو «مقولة كشف اللثام في أحوال دمشق الشام» ، التي أنعمها الحاج خُرشد أفندي المسائل الحنبلى ، بمدينة حلب عام 1311 هـ . = 1893 م ، بصمّ مقارعة أدبية طريقة بين حلب ودمشق ، الأمر الذي كان دوماً مثاراً للمعارعات والتفاصلات ، وحتى الحسد أو النعص أحياناً ، فيروي المؤلف أنه رار دمشق في العام المذكور ، وأحت أن يطّبع

نفسه على حقيقة ما يبدبه الدمشقيون من «دعاوى طوية عريضة» في فضائل مدينتهم ،
والحجج الواهية الساطلة التي يجادلون فيها احتلاق امثال في حق مدينته حلب ، التي يراها حير
مدن الدنيا قاطلة .

ونعود معرفتي بالنص المذكور ، إلى ما كتبتُ قرأته في احمدة لنشار إليها ، في العدد 8
من السنة الثانية ، الصادر في شهر تموز عام 1982 .

في العدد المذكور ، نشر الأديب الحمصي الأستاذ عبد الإله سهان نصاً لحاج حورشيد
نفسه ، مؤلف المقولة ، بعنوان : «مقولة السَّوط المصغور للحاج المصغور» . وإن كان أخطأ
بوضوح عندما حرم بقوله : لمؤلف مجهول ، رغم أن ما جاء على المنقولتين يؤكد أنهما مؤلف
واحد ، ما هو إلا الحاج حورشيد المسائل الحلبي . والعبارة الختامية في مقولة كشف الشام :
«تمت على يد كاتبة الحاج حرشد المسائل» ، لا تدلُّ بوحده من الوجوه على كونه محرر
ناسخ للنص ، بل هو المؤلف حتماً ، بدليل تطابق تاريخ السسخ (15 ربيع الثاني 1311 هـ) .
على تاريخ الرحلة وذكر واقعة حريق الجامع الأموي (في 4 ربيع الثاني من العام ذاته) ، التي
وقعت بعد حروجه من دمشق ، كما يقول ، بيوم واحد

كانت المحطوطتان ملكاً لورّاق الدمشقي الشهير رفيق حمدان ، وقياس مسطّرتهما 14
x 21 سم . وتقع «مقولة كشف اللّثام» في 53 صفحة ، وعلى الصفحة الأولى عبارة ثملتك
: «ملكه الفقير إليه تعالى محمد ناسي الكردي حادم أموي حلب ، عُفي عنه ، في 27 ربيع
الثاني سنة 1311» . ولعتها سقيمة تعبت عليها العامية والركاكة ، وتفسد بها أعلاط السحو
والدعة . أما العبارة الختامية «تمت على يد كاتبة ..» فحطّتها وحبرها معايير لاقبي السسخة ،
مما أوقع الأستاذ السهان في حيرة من أمره ، والمسألة واضحة ، لا بُس فيها ولا شك .

وأخيراً ، يروي السهان ما عثوره على مخطوط صغير بعنوان «سائخة أدب من ساحة
حب» محرّرها حورشيد أفندي الكردي ، وتمّ سسخه حمص في عام 1321 هـ . . . وبجرم
أن هذا ما هو إلا مؤلف المقولتين السالفتي الذكر .

أما مقولة «كشف اللّثام في أحوال دمتق الشام» ، فهي مما يدخل في باب التأريخ
الحصاري ، ونصم أراء يعب عليها التعصّب ضد دمشق لصالح حلب . لكنها ، برعم كل

ذلك ، تميد بتقديم صورة مفيدة وطريقة عن دمشق وأحوالها الاجتماعية وسلوكيات أهلها في أواخر القرن التاسع عشر ، مع ذكر لبعض الحوادث والشؤون التي ينذر أن يطالعها القارئ في مواضع أخرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

أقول والله التوفيق : طالما كان يقرع سمعي حبر المباحثات التي تجري بين أهالي دمشق وبين الحسين ، وما يديه الدمشقيون ⁽⁶⁶⁾ من التكييت والتكيت عليهم ، وذلك مخصوص أفضية دمشق على حلب مباحاً وتجارة وصعة وربة وسكاناً ، وغير ذلك من الدعاوى الطوية العريضة . فكثيراً ما كنت أود أن أستطيع نفسي حقيقة الأمر ، إلى أن كتب الله لي السمر إلى دمشق في حاجة ، وحقق لي ما كنت أؤمله . فحسنت أنظر في أحوال تلك المدينة نظر الناقد البصير ، وكانت مدة إقامتي بها كافية لاستقصاء أغلب الأحوال وكشف حقيقة الحال .

وبعد رجوعي إلى الأوطان واجتماعي بالأحباب والخلان ، صلوا بي أن أصع مقولة أصف بها مدينة دمشق ، وما شاهدتُ هناك مما يستحسن ويستفح . [ص 2] فم يمكني إلا الإحالة لظلمهم ، فشرعتُ بها وسميتها : «كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام» . فهأكلها ، حاية من الشوائب والتعصب ⁽⁶⁷⁾ والكذب القبيح . مع الترام حاب الإنجار ، إذ بالحقيقة لا يقتضي هذا المقام إطالة الكلام وهذا الخصام . وما بورده كاف في مقابلتهم بما جعلوه ذئناً لهم من التكييت والتفكير على أهل حلب دون باعث طاهر ، ألهم إلا أن يقال : «العص في أهل واحسد في الجار» ⁽⁶⁸⁾ .. أعادنا الله من شر الحاسدين وكيد الشامتين .

(66) بالأصل : وما يبدونه الدمشقيين .

(67) سيورد الكاتب في مقولته هذه عكس ما يدعيه هنا .

(68) لا نتوقع أن أهل الشام يحسدون حلباً ، بل يظنون أن لدمشق المزية في أغلب الأمور . إنما للأمر خلفية تاريخية قديمة جداً ، هي النزاع القبلي بين

فأقول . إن مدينة دمشق هي سدة يروق مطرها ويطيب عيشها لمن يأتي إليها من
البلاد المغيرة الحرداء ، كالحجار والعراق وأفريقية ومحوها ، لا لمن يأتي إليها من البلاد لمحصة
العية محاصيها ⁽⁶⁹⁾ ، ذات التربة الحيدة والمناح المعتدل والواوكة الشهية والمعيشة الهية ،
كمدينة حب .

فإن الحبي لا يرى لتلك المدينة مرية على مديته [ص 3] في شيء من
الأشياء ، إلا أن يقال تروق لعص أوش حلب لأمر طاهرة لا تحصى على ساهة القارئ
القط ⁽⁷⁰⁾ ، وذلك لا عبرة فيه

اله . . هواء

ومعوم أن من أول ضروريات المدينة هو الهواء الذي منه حياة الإنسان والحيوان ،
فهواء دمشق رديء باتفاق الأطباء ، لكونه على الدوام متحلاً للأخرة والعارات التي تحم عن
مستفعاها الكثيرة ، عندما تكاد مع المواد الباتية التحمر العن ، فتدخل هذه الأخرة
والعارات السمية أحسام الإنسان بالنفس ، وتفعل به فعل السموم .

وهذا مما لا ريب فيه ، لأن كل بلدة كثرت فيها المياه والمستفعات كان هذا شأنها ،
خصوصاً إذا أصيب لذلك المحاص المكان والمحجاء عن الأشعة الشمسية كدمشق ، فإن لمقل
عبيها لا يكاد يرى منها شيئاً حتى يدخلها ، ولذلك ترى غالباً على ألوان أهبها الاصفرار

عشائر القيسية (في حلب مثلاً) واليمانية (في دمشق وحمص مثلاً) ، وكانت
بين الفريقين جرت في الماضي مذابح مريعة يطول شرحها . وعين الأمر
ينطبق بين حماة وحمص مثلاً . أما الشاميون فهم «يستغلظون» بعض
الحلبيين ، بينما نرى أولئك «يستمرقونهم» ! سامح الله الجميع .
(69) في عصر المؤلف ، لم تكن لتقارن بدمشق وجمال طبيعتها ومنتزهاتها
مدينة مهما كانت .
(70) لعله يلمح إلى فشو المنكرات والملاهي بدمشق ، كما يدعي .

وقد أشار إلى ذلك الشيخ عمر [س] العارص ، رحمه الله ، بقوله : [ص 4]

حَلَقُ حَتَّةٍ مَسْ تَاةٍ وَبَاهاَ وَرُبَاهاَ مُبَيَّي وَلَا وَبَاهاَ
قِيلَ لِي صَبْرُ بَرْدَا كَوَثَرهاَ قَسْتُ عَالِ بَرْدَاهاَ بَرْدَاهاَ

وحلب في ذلك على العكس ، فهي حيدة الهواء لعدم وجود المستنقعات ، مرتفعة الموضع ، ولذلك ترى أهلها سيمى السية صحيحى المزاح . فلو لم يكن فيها سوى مزنة حودة الهواء لكفى في تفصيلها على دمشق ، ولذلك قال الشيخ سعد الدين أبو سعيد محمد بن الشيخ محيي الدين [س] العربي :

حَلَّتْ تَعَوُّقُ عَمَائِهاَ وَهَوَائِهاَ وَبِئَاهاَ وَأُخْسُ فِي أَسَائِهاَ
نُورُ الْعَرَالَةِ (71) دُونَ سُرِّ حَمَائِهاَ وَالشُّهْبُ تَقْصُرُ عَنِ مَدَى شَهَائِهاَ
طَلَّتْ بِحَوْمِ الْمَصْرِ مِنْ أَرَاهاَ فُرُوحِهاَ تَحْكِي تُرُوحَ سَمَائِهاَ
وَالسُّورُ بَاطِنُهُ فَصِيهِ رَحْمَةُ وَعَدَابُ ظَاهِرِهِ (72) عَلَى أَعْدَائِهاَ
بَدَلٌ يَطْلُ بِهَ الْعَرِيبُ كَأَنَّهُ فِي أَهْلِهِ فَاسْمَعُ حَمِيلَ ثَنَائِهاَ

الماء . . .

وأما ماء دمشق فرديء أيضاً ، لكن لا لكونه رديئاً من أصله ، [ص 5] بل لما حرى عندهم من العادة الرديئة ، وهي إلقاء الرّبل فيه لستة مسامات كبيرن الأقية . فلا يحفى ما يحمله لئاء من هذه المادة القدرة ، وتحديه إلى الأهالي شرباً واعتسلاً . وهذا الذي

(71) الغزالة : الشمسر .

(72) اقتباس أدبى من القرآن الكريم : { فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ } - الحديد : 57 .

حمل الشيخ عبد العلي البائلي ، رحمه الله تعالى ، أن يقول (73).

أَتَعَتَّنِي	أَقْرُ	الشَّام	وهي في	نقص	وإبرام
وَأَعْمَانِي	كم	أَعْمَهُم	ثم ألقى	جهلهم	نامي
رُسُهُم	في	الماء	صيرهم	شربه	من عبر
لم	يرقوا	بالمواعظ	إد	ما هم	من حجر
كَلَهُم	لا	يعرفون	سوى	قبح	أفعال
نطهم	والفرح	أهلكهم	مثل	ثبران	وأعنام
فتراهم	لا	عقول	لهم	إعما	هم
عصاة	الْهَتَانِ	صَلُّوا	وم	يَحْتَشُوا	رَلَّاتِ
فِي	قد	رادت	وساوسهم	وانتوا	في
فلذا	هم	يَخْطُونَ	با	فرط	تحقير
والله	أحقَّ	مطَّع	بأموري	حيز	علام
قادر	في	الحال	بأخذهم	بي	على
ما أنا	من	جسهم	وسو	ادم	هم
فكأنني	بيهم	وأنا	» . [ص 6]	العربي	من
وأنا	من	حش	عصتهم	بير	عدال
مولدي	فيهم	ولا	عحب	جوهر	في
لست	منهم	لأفرادي	في	بيت	عهم
فسوة	فيهم	وفرط	حما	لم	يحف

(73) القصيدة مشهورة له في ذم أهل دمشق ، وكانوا رموه بالزبدقة إبان خلوته الصوفية ببيته .

واتلوا نالعي من حسد مثل أمراض وأسقام
 قد أتى في مُسد اس عدي حير عن حُلّ أقوام
 قال حير الحق سيدنا الحفا والبغي في الشام

وهذه العادة ، والله الحمد ، مفقودة في حلب ، فإنهم يسوقون الماء في أقبعتها بواسطة
 نشارة الحشب الطاهرة البقية فترى الماء عندهم كالزلال ، خصوصاً
 في الصهاريج المعدة لتبريد الماء مدة الصيف ، فهي من أطيب المياه وأطهرها وأعدها . ولا
 يحصى أن الماء أحو الهواء في شدة احتياح الإنسان إليه .

المسكن

ثم من ضروريات الإنسان المسكن ، ولما كان جميع بيوت دمشق مشحوناً بالق
 والعوص والسمل والدود وغير ذلك من الهوام ، كانت مصيبة عظيمة على الساكنين . وكثُر
 أطل قلاً أن اصفرار أغلب أهل دمشق [ص 7] ناشيء من فعل هوائها الرطب العس ، ولكن
 تيسر لي بعد التأمل أن فعل الهوام المذكورة له دخل في ذلك أيضاً ، إذ لا يمكن للإنسان هناك
 أن يعتاص في النهار [عمّا] يحسره من دمه في الليل ، ولو أراد الإنسان أن ينام خارج البيوت
 تحلّصاً من هذا الأذى ألحّاته رداءة الهواء ووحامته إلى داخل البيوت قسراً . فكأن بين الهواء
 والهوام اتفاقاً على استتراف وإفساد دم أهل الشام .

البناء

وأما بناؤها ، فحيث أنه كان من الطوب والتراب ، ما حلا البيات
 الأميرية والقُشَل العسكرية وبيوت الأوروثاوية ، وبعض بيوت أعيانها ، كان مطرها يقص
 النفوس . خصوصاً شاعة مطر ستائرها المعمولة من عيدان القُنب والطين . ويشأ عن جميع

ذلك في الصيف عارٌ يعمي الأبصار ، وفي الشتاء وُحُولٌ تذهب بالاصططار . وأقسم بالله أن
مطر قرية بَشْ وكثير من قرى حلب ، يروق للعين أكثر من مطر دمشق .
وأما ما يقال عن داخل [ص 8] بيوتها من كونه مروّجاً ومرحفاً بقوش جميلة ، فهذا
شيء لا يهمّ العريب .

الأسواق

وإن كانت أسواقها عريضة عالية السقوف ، فهي حالية من الترتيب ، حيث ترى
الحمار بجانب الرّار ، والحُرّار بجانب العطّار ، والحمال بجانب النقال ، والدخاني بجانب الحلواني
، والقواف بجانب الصحاف ، وهلمّ جرّاً . ولا يحصى عى العطل ما يحده المشتري في ذلك من
العاء ، عمّا لو كانت أمكة الساعة مترّثة كل صف بصفه ، خصوصاً للعريب ، لأنه ربما
يقضي أكثر نهاره في التفتيش على مطلوبه . ولذا كانت حلب في ذلك فائقة على دمشق أيضاً
، لأن الترتيب في المبيعات [فيها] من الأمور الملتزمة جداً

وصف حلب لابن جُبَيْر

قال ابن حُبَيْر في مدح حلب ، بعد كلام كثير ، اكتفينا منه بما يأتي⁽⁷⁴⁾ :
حسب [بلدة] قدرها حظير ، ودكرها في كل مكان بطير ، خطاها من الملوك كثير .
كانت في القديم ربوةً فيما يقال . كان يأوي إليها إبراهيم الخليل عليه السلام [ص 9]
نعمه ، فيحلبها هناك ويتصدق بلسها ، [فذلك سميت حسب ، والله أعلم] . وبها مشهدٌ كريم

(74) قابلنا ما ورد على نصر رحلة ابن جُبَيْر ، مطبعة السعادة بمصر 1908 ،
ص 230-233 . ولو كان مؤلفنا راجع ما كتبه ابن جُبَيْر عن دمشق ،
لوجد ما يشوقه ويمتعه أيضاً .

مسوب إليه ، يترك الناس بالصلاة فيه

ولها قلعة شهيرة الامتاع ، نائة الارتفاع ، معدومة الشيه والطير بين القلاع ، تترهت
حصاةً أن ثرام أو تُستطاع ، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة ، محوثة الأرحاء
موصوعة على سسة اعتدال واستواء ، فسُحان من أحكم تدبيرها وتقديرها ، وأبدع كيف
شاء تصويرها وتدويرها .

ومن كمال جلالها المنتشرة في حصاة القلاع⁽⁷⁵⁾ ، أن الماء بها نابع وقد صُنع عليه
حُتَّان⁽⁷⁶⁾ . والطعام يصير فيها الدهر كنه . وليس من شروط الحصاة⁽⁷⁷⁾ أهم من هاتين
الخصتين .

ويطوف حولها سوران حصيان . يعترض دونهما حندقٌ باماء فلا يكاد النصر يسرع
مدى عمقه . وسورها الأعلى محلل ، كله أبراج مستظمة فيها العلالي المنيعة⁽⁷⁸⁾ قد تفتحت
كلها طيقاً ، وكل [ص 10] رُح منها مسكون .
والبلد صحم حداً ، حميل ترتيب الأسواق .

المفاخرة بحلب

وكان سيف الدولة ، رحمه الله تعالى ، يفتخر بحب ويقول : «حبٌ معقلي ،
وشاعري المتسّي» .

وكان حميل باشا ، رحمه الله تعالى ، يقول . «لو كانت عرستان مملكة مستقلة ،

(75) بالأصل : ومن جمالها الزائد على المُشترط لحصانة القلع . صوبناه من
نص الرحلة .

(76) بالأصل : صُنع عليها جفان .

(77) بالأصل : الحصان .

(78) بالأصل : القلاع المنيعة .

لوحب أن تكون عاصمتها مدينة حلب» . وكثيراً ما سعى في أن يجعلها مركزاً (79) في مدّة ولايته عليها ، مما توفّق في ذلك .

البقول والزروع والفواكه

وأما بقولها يعني دمشق فهي أدنى من بقول حلب في اللذة والمكاهة ، وأعلى قيمة منها . وقد ذكر ذلك ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) ، فقال .

وشاهدتُ من حلب وأعمالها ما استدلتُّ به على أن الله تعالى حصّها بالبركة وفصلها على جميع البلاد ، فمن ذلك أنه يُررع في أراضيها القطر والسُّمُوم والطّيح والخبّار والدّحر والكرم والدّرة والمشمش والتّين [والرُّمّان] والتّفاح [والفستق والرّيتون] (80)، عديداً لا يُسقى إلا بماء المطر ، ويحيى مع ذلك رَحْصاً (81) عصّاً رويّاً [ص 11] يعوق ما يسقى بالمياه والسّيح في جميع البلاد . وهذا لم أره فيما طُفّت من البلاد في غير أرضها .

وهي تموق البلاد بأشياء ، كما قال الشاعر :

حسّ سَمَتٌ يُقُولُها ومماها وبرّها وبسَمْنِها ولُحومها
والتّينِ والبَطّيحِ والعسلِ الشّهيّ والفستقِ القرشيّ وخي كُرومها
ومما يُصاع من الحليبِ وريتها تذكّ التي انعدتْ بطيبِ طُعومها

وقد قيل للشّهاب السّهْوَزَرْدِي (82): «أحرج من حبّ فإنك مقتولٌ» ، فقال «حتى أكل من بَصيحها» .. فكان شهيد البَطّيحِ !

ولقد نقل البَطّيحِ منها في رَمَس السلطان الأشرف برّسَائي إلى مصر ، والأدنى يُقل منها

(79) اوردي : كلمة تركية ordu ، معناها : جيش .
(80) ما بين حاصرتين ليس في معجم البلدان ، بل زاده المؤلف من عنده .
(81) رَحْص : طري .
(82) المتصوّف المشهور ، أعدمه صاحب حلب الظاهر غازي ابن صلاح الدين عام 587 هـ .

إلى دار السعادة برسم سيدنا أمير المؤمنين (83).

وكذا يُقال في فواكه حب سوى بعض الأنواع ، فإنها في دمشق أجود من التي في حب ، كالشمش الحموي والتفاح والكمثرى والندراقي . عسى أنه لو كان عندهم أكثر من ذلك بكثير ، لعاقب عبيهم حب بالفستق الحبيب اللون اللذيذ الطعم ، الذي يقال عنه (نقل الملوك) ، وهو [ص 12] كذلك

اللحم والخبز

والحُق بالفستق اللحم والنس وما يتألف منه ، والخبز أيضاً ، ففي دمشق اللحم ليس زكي الطعم والرائحة ، لأن مرعى النعم عندهم من قمامات الساتين ، مثل السيفية وورق الصف والخلعة ، ولذلك كان طعم اللحم والحبيب عندهم تافهاً .

وسب كراهية طعم الحر أيضاً الطواحين ، فإنه لما كان ماء أنهرهم قوياً ، يشتد دوران أحجار (84) الرّحى على القمح فيجعل حرارة قوية في الطحين ، فيكون سباً في فساد طعم الحر . وأيضاً يخلطون الطحين بالدرة الصّفرة لأجل تحسين لون الحر ، بخلاف الحر في حب ، فإن أكثر طحينه يطحن في المدار على الدواب لطافة ، من غير ما يصير حرارة في الطحين حتى طواحين الماء فيها حالية من الخاصية المذكورة ، ولا حرت العادة بأن يخلطوا الطحين شيئاً ، لأن قمح حلب لا يلزمه شيء يحسّه ، ولذلك اشتهر بأن حبرها أطيب حر في الدنيا .

حارة المرقص

ومن أفصح العادات في دمشق [ص 13] وجود حارة المرقص ، وهي سكنى المومسات

(83) دار السعادة أي استانبول ، وكانت تُدعى «در سعادت» ، أما أمير المؤمنين فعبء الحميد !

(84) بالأصل : حجار .

، واقعة داخل المدينة ، فإنها تحوي من هؤلاء الفاحشات على مئات ، فهن كشحر العبيق في طريق الناس ، إذ يعنفن بكل مَارَ . فالحمد لله على حنوِّ حب من هذا المُكر (85).

والظاهر أن هذا داء قديم فيها ، لأن العلامة محمد الدين الشيرازي ذكر ذلك بقوله :
(قال الشاعر)

نَحَبُ دِمَشْقَ وَلَذَّاهَا وَبْنَ عَرَكِ الْحَامِغِ الْحَامِغِ
فُسُوقُ الْفُسُوقِ بِهَا قَائِمٌ وَفَحْرُ الْفُحُورِ بِهَا سَاطِعُ

مقول من كتاب «نخعة الأصحاب» ، الموحود في مكتبة الملك الطاهر بدمشق .

الطيش والجهل

وأما من جهة حُفهم ، فإن أكثرهم أهل حفة وطيش ، ومن جملة الأدلة على حفتهم وطيشهم عمهم العراصات في أيام توصيل الأنفار الذين أصابت أسماءهم الفرقة العسكرية إلى سراية المشير .

وذلك أن دائرة العسكرية تطلب أعمار كل قُؤُل ، في يوم مخصوص على حدة [ص 14] حسب مرعوبهم . وقد حُرَّتْ العادة عندهم أن تحتجع شتآن ذلك القُؤُل ، ويأتيها المدد من محلات أخرى ، فيصرون جيشاً عرمرماً حاملين السيوف والأتراس (86) وبعضهم السائبين وأحرس البنادق ، ويمشون جهوراً من غير ترتيب ، وفي وسطهم الأنفار العسكرية . ويأخذون باللعب بهذه الأسلحة وإطلاق السارق والمُروء في أثناء مشيهم ، وفي مقدمتهم الطفل

(85) فأين ذهب حي بخسيتنا الشهير إذا ؟ ولبيت المؤلف ما فتح هذه السيرة ، وأخرجنا بنشرها في هذه الصحائف . غير أن قدم النص يمنعنا من حذفها ، فلذا نتركها على كُره .

(86) كذا بالأصل ، وصوابها : الأتراس .

وربما يشخصون هيئة عترة وعلة ، فتصير الحبل والحمال والرحال والنساء والأولاد
كُنْكَةً تمتدّ نحواً من ألف ذراع ويدحون بهذه الهيئة في أسواق
المدينة ، لأنه لا بدّ من كونهم يمرّون من حاسب جامع الأموي ليقروا الفاتحة لسيدنا يحيى عليه
السّلام ، فتُسمع لهم حنة تصمّ الآذان ، من نحو قعقعة السّلاح وصوت إطلاق البارود (87)
وحدى العرسان وصرب الطبل ورُعاء احمال وصهيل الخيل .

فيا لها من ساعة مَهُولَة ، يتحيّل للعرب الحاهل عادتهم أنّها معركة
دمويّة . وكثير من أهل الأسواق يعقون دكاكيبهم ، خوفاً من النّهب والحطف ومن نار
السادق أو الدّحان المعقد والعار

ولا يرالون على هذه الحال حتى يصلوا إلى سراية المشير ، وهناك لا بدّ وأن يُطهروا
شيئاً من براعتهم لعب السيوف والتّبايت أمام الهيئة العسكرية أيضاً . ثمّ يسمّون الأنصار
المذكورين ويرجعون إلى أماكهم .

فكم من ولد تدوسه الدّواب ، وكم من رجل يصاب بجراح سيوف اللاعبين ، أو
نظم تبوت أو نار البارود ، وكم من امرأة تُحدث أو تُحس أو تُقرص أو تُصعط

ويستعرقون في هذه العراصة نحواً من خمس ساعات تقريباً ، وعندما يصلون إلى
أماكهم والعبار والدّحان يعلو ثيابهم ووجوههم ، يطرون في أعطفهم محتلين ، كأهم قافلين
من جهاد العدو وقد فازوا بالنصر المبين .

وفي ثاني يوم يكون دور قول (88) [ص 16] احر على هذا المط ، وهلمّ حرّاً حتى
نهاية الطلب . ولكن بعد أيام تعكس القصيّة وهو يوم تسفير الأنصار ، فهناك عراصات اسكاء
والنواح من كل حاسب ، لأن جميع ساء المدينة النواحي لهنّ أولاد مسافرون ، تشتبك في هذه
العراصة ، وكذا رحالهم .

وقد قست لبعضهم . «لو أنكم جمعتم ما تصرفونه على هذه العراصات من العفات ،

(87) بالأصل : البارودي .

(88) القول : كلمة تركيّة kul ، معناها : عسكر .

وورعتم ذلك عني المحتاجين من هؤلاء الأعرار . لكنوا استعابوا بذلك عني غرتهم ، وهان عيهم بعض مصاحم ...» .

أحوا : «هذه عادتنا من القديم لا يمكن تغييرها !»

وكذلك يفعلون في توصيل العريس لبلأ إلى بيته .

فأين هذه الحقّة من سكية أهل حلب ؟! فإن الأعرار المطلوبين للعسكرة يدهنون بمجنتهم دفعة واحدة في يوم الطلب إلى سراية الحكومة بعاية الأدب ، فإذا كمل اجتماعهم تأتي الموريكا العسكرية وتمشي قدامهم وهي تعرف ، حتى يصلوا سوّية إلى القشلة الهمايونية⁽⁸⁹⁾ ، وقد انقصى الأمر فحياً الله الأدب [ص 17] وأهله .

مدح حلب

ومن هنا قال أبو العلاء المعري بمدح حلب :

يا شاكّي الثوبِ اخصّ طالماً حلنا فوَصْ مصيٍّ لحِسمِ الدَّاءِ متمسّ
واحِصِ حداءَكَ إنْ حاويتِها ورعاً كفعلِ موسى كليمِ الله في القدس

وقد أيضاً .

حبٌّ للوليِّ حنةٌ عدوٌّ وهي لعادريّ بارٌّ سعيّ
والعظيمُ العظيمُ يكرّ في عيبه مه قدر الصّغير الصّغير
فقويٌّ في أفس القومِ غرٌّ وحصاةٌ مه بطيرٍ نير

موازنة بين المدينتين

(89) القشلة : كلمة تركية kisla ، معناها : ثكنة عسكرية . أما الهمايونية فتعني السلطانية ، والكلمة تركية ذات أصل فارسي .

ويمكنك أن تعمل موارنة بين أهل المدينتين ، من كلام صاحب قصيدة الفراسة ، وهي قصيدة طويلة يترحم بها ناطمها غالب اللاد الشهيرة فمن قوله في حلب :

وحلبٌ	حرارةٌ	الدكاء	وموطن	العقة	والحياء
طاعُها	للعُرنا	سعيدٌ	وهي لمن	فيها	شعا أكيدٌ
لكها	تُعطي	دقيقُ	العلم	لأهبا	من بعد
نطف	العهم	للكها	نتيجةٌ	التلاحي	وموطنُ
المراء	والكاحي	ومسحةٌ	أخذق	عليهم	طاهرة

[ص 18] وفي دمشق يقول :

عند	دمشق	مطرٌ	أيقُ	يعرفه	العدو	والصديقُ
وفي	نسبها	مطرٌ	عحيبٌ	وحلقٌ	تأخه	عريبٌ
لهم	ودادٌ	حسنٌ	وبرٌ	لكنه	عن	طاهرٍ
يعرُ	وفيهُمو	شكاسةٌ	الأخلاقِ	وعنطةٌ	تبو	عن
الثقاقِ	ودادهم	إما	شهدتْ	واي	فإن	تعبُ
فالدودُ	فيهم	حائي	وفيهُمو	نحانةٌ	واسُ	نكتها
ليس	ها	إيأسُ	وفيهُمو	علاظةٌ	وحدةٌ	عنى
العريبِ	شدة					

مقول من كتاب «كنوز الذهب» لأبي درّ المحدث ، ومجهول الشاعر صاحب القصيدة

عوذ علي مدح حلب

وقد مدح حلب جماعة من الملوك والوزراء والعلماء والشعراء ، فمن ذلك قول الملك
الناصر ابن الملك الأشرف .

سقى حلب الشهباء في كل أرمه سحابة غيث بوها ليس يقنع
فذلك ديارى لا العقيق ولا العصا وتلك ربوعي لا الررود ولعنع

وقال أبو فراس الحمداني⁽⁹⁰⁾:

وأبيتُ مُرَحَّنُ المؤدِّ بمدح سح السَّوداء لا بالرقَّة البيضاء
الشَّامُ لا بلدُ الخزيرة نَدَى وقوق⁽⁹¹⁾ لا ماءُ الفرات مُسائي

وقال الصَّلاح الصَّفديّ متشوقاً إلى حلب ، وهو مقيم بدمشق :

مَنْ مُسِعَ حَلَبَ السَّلامِ مُصاعفاً من مُعَرَّمٍ في ذلك أعظم حاجةٍ
أصحى مقيماً في دمشق يرى بها غَذَبَ الشُّرابِ من الأسى كأحاجةٍ

وقال .

قُلْ من رامَ النوى عن بدةٍ صاقَ فيها ررقه من حَرَح
عللَ الفسَّ سَكى حَلبٍ إنَّ في الشَّهباء ماءُ العَرَح

وقال الشيخ عمر بن الوردى ، رحمه الله تعالى⁽⁹²⁾.

(90) من مهموزته التي مطلعها : أفقاعة من بعد طول جفاء بدنو طيف
من حبيب ناء .

(91) بالأصل في القصيدة : «يزيد» ، أحد أنهار دمشق المعروفة ، فكيف تراه
صار قويقاً ؟

(92) في قوله «توريات» في منتهى اللطافة ، عن حلب وجبل الجوشن والفردوس

عَيْكُ بَصْهَوَ الشَّهَاءَ تَنْقَى نَحْوَشْنَهَا عَارِبَةً الرِّمَانِ
فَلْلَعْرِفَانِ فِي الْمَرْدُوسِ رِيحُ يَمْوُحُ شَدَّاهُ مِنْ بَابِ الْحَدِّ

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عفيف التلمساني :

أَقُولُ وَالرِّقَى الْعُبُيُّ مُتَسَمِّمٌ وَالرِّيْحُ مُقْلَةٌ وَالْعَيْتُ مُسَكٌّ
إِذَا سَقَى حَلَبَ مِنْ مَرْدٍ عَادِيَةٍ أَرْضاً فَحُصَّتْ بِأَوْقَى قَطْرِهِ حَبٌّ
أَرْضٌ مَتَى قُتُّ مِنْ سَكَّانٍ أَرْبَعَهَا أَحَادِكُ : الْأَشْرَفَانِ الْخَوْدُ وَالْحَسَبُ
قَوْمٌ إِذَا رُرْتَهُمْ أَصْفُوكَ وَذَهُمُ كَأَنَّمَا لَكَ أُمَّ مِثْلُهُمْ وَأَبُ (93)

قول للفتنصل دارفيو في حلب

وفي كتاب «نهر الذهب» لعربي عن دارفيو (94)، وهو قصص لدولة فرنسا محب ،
كان في حدود سنة 1191 [هـ] (95)، قال في كتاب ألفه وسمّاه : «تذكرة أسفاري»
(96) ذكر فيه بدءاً طويلاً من الحوادث والأحوال المتعلقة بالبلاد التي دخلها في سفره ، ومن

وباب الجنان .

(93) وهذا والله يصحّ ولقد جرّيناه ، والله يحيي حلب وأهلها ، ويعطر منهم
بالعافية الأردان .

(94) هو الرحالة الفرنسي الشهير الفارس لوران دارفيو ، أحد رحّالي القرن
السابع عشر ، أمضى في الشرق 52 سنة (1635-1687 م) ، وتعاطى
التجارة وأعمال قنصلية بلاده .

(95) هذا غلط ، فدارفيو كان قنصلاً لفرنسا بحلب بين 1679-1686 م =
1097-1090 هـ .

(96) عنوان مذكراته ما ترجمته بالعربية : «مذكرات الفارس دارفيو» ،
وعنوانها بالفرنسية :

*Mémoires du Chevalier d'Arvieux, Envoyé Extraordinaire du Roi à la Porte,
Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, & autres Echelles du Levant (6 vols.)*

حملتها حلب . فإنه كتب فيها رهاء عشرين ورقة صمّنها عص أوصاف قنعتها وسياها وهوائها ومائها وأهلها ، اقتطعنا منه هذه الأسطر :

قال . إن الأمر الخارق للعادة هو امتياز الحلبيين وسموّهم على باقي شعوب الممالك العثمانية كلّها ، فإنهم أحسنهم طماعاً وأقلهم شرّاً وألبهم حاساً وأشدّهم تمسكاً بمكارم الأخلاق من جميع شعوب هذا الملك العظيم .

لابن مطروح في حلب ودمشق

وقد ذكر المديتير الصاحب حماد الدين بن مطروح ، فقال في حبس :

على حسب العراء مي تحية لها أرخ كدسك والعبر الوردي
وما هي إلا حنة الحند بمحة ولا عجب شوقي إلى حنة الحند
[21] نعم ورعى الرّحم في عصابة ساقبهم حلّت عن الحصر والعذّة

وفي دمشق يحاطب أهلها .

اتحدّثم	السّت	عيداً	وهذه	سّة	اليهود
وكاد	يكفيكم	صلاً	شُرُكم	الماء	من يريد

بعض مثالب حلب

ولكن ولو مدحها المادحون ووصفها الواصفون بما هي حليقة به ، لا يمكن أن نعضّ

وكنا في عام 1982 نشرنا من مذكراته «وصف دمشق في القرن السابع عشر» (1660 م) . وكذلك ترجمنا منه وصفه المطوّل لحلب التي أقام بها 7 سنوات ، وسنشره في حينه .

الطرف عن بعض عادات سيئة يستعملها بعض الأوباش الجهلاء .
 منها حروح النساء حلف الحمارة رافعات أصواتهن بالبكاء والعويل والصراخ والنواويل ، مما
 تشمئز منه النفوس فصلاً عن كونهما من المحرمات ومنعوت
 فاعنها ؛ وقد أدرك النصارى واليهود قطاعتها وسماحتها ، فسقوا الإسلام إلى تركها .

ومنها مادمة العجائز مع «القشير»⁽⁹⁷⁾ في ليالي بعض التعاليل محصر من المحذرات
 قاعدات على الأسطحة ، وفي أرض الدار مئين من الرجال ، فهناك تسمع للجميع قهقهة عالية
 لما يقع بين العجائز والقشير من الكلام الفاحش ، وقد يكون مكتشف الغورة . ولا يخلو من
 أن يكون لبعض النساء الموحودات [ص 22] أقارب من الرجال الحاصرين . فبها من فطاعة
 لمن يتركها ، ولكن القوم يظنون أن العادات تبيح السكرات .

* * * * *

ومنها توصيل التهنئة إلى بيت صاحب الوليمة بالعراصة والطل ، وربما كانت شاة أو
 خمسة أرطال من الأرز أو مثلها أرزاً وسكرًا .

ومنها جمع الدراهم من الحاصرين في التعبئة إسعافاً لصاحب الفرح . فمن الناس من
 يعطي في يد «الخبوص» قرشين أو ثلاث أو أكثر أو أقل ، ولكن يقسمها دفعات ، وفي كل
 دفعة يمدحه الخبوص بارعاً في المدح ، يستدرّ الدراهم من الحمقى الذين يرتاحون لذلك
 البلاء .

* * * * *

ومنها إذا عمل أحدهم وليمة لسب ما ، دعا إلى بيته أرود مما تسع سفرته من الناس .
 ثم يكلف إلى الطعام نفرًا بعد نفر ، فيحصل للعقلاء من السانقين بعض اشتمار ، لأنه يرى أن

(97) القشير هو مهرج التعليلة ، كان يصبغ وجهه بالألوان ويلبس طرطوراً
 طويلاً ويشير بعضاً في يده . راجع موسوعة حلب المقارنة للعلامة
 الأسدي ، 6 : 204 .

عيون المتأخرين ترمقه لأهم يعلمون أنه لا يصيب لهم من الطعام إلا بعبته ، ويحصل [ص 23] نعارفين من المنسوقين انكسار قلب لأنه يتحقق إما تأخيرهم كان لاختطاط مقامه عن غيره . فما كان أعياه هذا الأحق من أن يدعو الناس إلى طعامه ، ويكدر أناساً مهم ويحتقر أناساً . ولكن لو عملت مواربة بينه وبين من يدعو مقدار مائتين من الناس إلى ليلة آخر دوره ، فتعتلىء داره بجميع مساكنها ، وقد يتفق أن يبقى أناس رائدة فيورعهم على بيوت حيرانه . وربما كانت ليلة مطرة ذات برق ورعد لأنه لا يكون ذلك إلا في فصل الشتاء ، فتصور مقدار المشقة التي تحصل لصاحب الوليمة وأولاده وأهله وحيرانه في إيصال القهوة والأراكيل لهؤلاء المدعوين . وإذا كان عنده معينين أو نوبة فيلزم يدورهم على الجميع . وأعظم من الجميع تقديم الطعام المخلّى نصف الليل . فيدعو إلى الشقرة زمرة بعد زمرة ، وربما ناس من المدعوين لا يراهم صاحب الوليمة .. فإذا انقضت تلك الليلة وكلّ راح إلى حال سبيله ، وحدث الأماكن التي كانوا جالسين فيها كأنها مراغة جمال [ص 24] من الدّوس النعال ورماد التناك وقشور القل ، ووقوف مصاح العار على المحدثات وإقلاق كانوا البار على السباط والتّوّل في أطراف الدار ، وهلمّ حرّاً .. فلا شك أنه يهون عليك فعل الأول .

* * * * *

ولتعلم أن جميع هذه العادات آحدة بالنقصان ، تتقدّم النعارف والنعوم والآداب ، ومأمور روالها بالكلية قريباً بإنشاء الله .

غود على مدح حلب

ولرجع إلى ما كنّا في صدره من مدح حب ، فهو أردنا أن نسرّد جميع ما قيل فيها نظماً وشرّاً من الشعراء والأدباء لطال الشرح ، ويكفي أن أكثر حفياء الأمويين كانوا يختارون سكنى حلب على دار مكهم ، فكان مقام هتام في الرّصافة شرقي حلب ، وعمر بن عبد العرير في احصاصرة ، وسليمان بن عبد الملك في قسرين ، والوليد في حمل سماعيل .

قصية الكوميدة

ويكفي هذا القدر في وصف حب ، ولرجع إلى وصف دمشق وأهلها فنقول :

يوحد عندهم تساهل في أمر التاموس ، فمن حمة تساهلهم تشكيل الكوميدة⁽⁹⁸⁾ التي شكها [ص 25] أبو حبل القناني عندهم ، فإنها كانت مؤلفة من علمان حميلين يرقصون ليلاً على عمات الأوتار أمام الجمهور من الرجال والأولاد ، وبعض العمدان المذكورين يتزيون بزى النساء ويحكوهن بحركاتهم وكلامهم . حتى تمادى الأمر إلى دخول بعض أولاد أكاير دمشق في رُمة الرافضين ، وما لم يكن لأبائهم قدرة على منعهم لعدم البصر عندهم ، وكاد يتفقم امر ويكثر الفساد ، هيئت احمية الديبة الشيخ سعيد العبرة فتوحته إلى الأستاذة العيبة . وبعد محاهدة كلية استحصل على إرادة سبة تعطيل الكوميدة المذكورة من دمشق مؤنداً ، فاكسب بذلك رضاء الله تعالى ورضاء الناس من أهل التاموس ، ولكن تحمل غصب أبي حبل المذكور وحره .

وبعد ذلك حصر أبو حبل إلى حلب ، وطمع في أن يشكّل بها نظيرها ، ولكن رجع منها صر اليدين محمي حين بعد جهد عظيم ، فالحمد لله على عدم رواج هكذا مكبرات في حلب .

خلق أهل دمشق

وأما من جهة خلق أهل دمشق ، فيوجد منهم نحو الخمسة [ص 26] في امثة في لون الخش ، فكان كثيراً منهم موبع بتطعيم البادنجان بالقرع ! ومثل هذا العدد منهم مخلوعين ومخدوبين ومعتوهين ، ويطلق أن سبب ذلك ناشئ من كون كثير منهم معرّضين لمرص الليعاري الذي يتسبب عنه رحاوة العظام ، وهو من مقتضيات هوائهم الرطب ، أو لكون

(98) الكوميدة : من الإيطالية *comedia* ، وكانت تسمى بالشام أيضاً الكوميضة أو القومضة . أما أبو خليل فهو أحمد بن محمد أعاق بيق القباني (1841-1902) ، وهو جد جدتي .

والديهم يتروّحون عالماً وهم دون سنّ السّوع .

ومن المعلوم أن الأولاد الذين يأتون باكورة ثمرة والديهم يكونون محتلي المراح وعُرصة للعاهات . أو لكون أمهاتهم يكرّون إلى استترّحات والعُرّاح ويترك أولادهم في القماط ، فيقلب الولد في رباطه فلا بدّ أن يعوج شيء من أعضائه ، أو من مجموع ذلك ، والله أعلم .

ويوجد بينهم كثير من الذين شفّتهم العليا لا تعطي أساهم فتبقى باردة ، والسبب في ذلك عني ما أظن أن أمهاتهم يتوحّسن على حمل المخمّل ، فإنهم مولعات بالفرحة عيه [ص 27] دهاناً وإياناً .

ويكثر فيهم السّمان أو المسوحوون ، حتى أن العصف مهم يكون بقدر كردوشين (كردوش لقب رجل حلبي حسيب) ، وهذا ناشئ من بلادة طبعهم وبرودة دمههم وجميعهم أهل حرافات ووسوس (99) .

الحسن بين دمشق وحلب

وأما من جهة الحُس فهو فيهم قليل جداً ، رجالاً وساءً ، إسلاماً وبصارى ويهوداً ، ولا يصدّق كل ما يقال عنهم في هذا المعنى . وقول الشيخ عبد العي رحمه الله (100) :

ما بين حابها وباب رَيدها قمرٌ يعيبُ وألفٌ ندرٍ يطعُ

فإن كان قوله هذا تصوّفاً فـ [لا] ندرٍ معناه ، وإن كان تعريضاً فهو من لسانعات الشعرية ، إذ لا يوجد حاب منه في كل دمشق ، فضلاً عن هذا المقدار في قسم منها . وأيضاً لو كل واحد من الألف عاب وظهر عوصه ألف ، لأشبه في التكاثر «مكروب» الكوليرة

(99) يتحدّث صاحبنا عن الخرافات ، وقبل قليل كان يحكي عن الوحام على جمل المحمل !

(100) ليس الشعر للنابلسي ، إنما هو من قصيدة مشهورة مطلعها : عرّج ركابك عن دمشق ..

(101) . وكانت صاقت هم دمشق بل وبر الشام في مدّة قبيّة !

* * * * *

والمحكم قول صهيّ الدين الحنّي⁽¹⁰²⁾ ، رحمه الله :

لله درُّ سَمَا الشَّهَاءِ مِنْ هَلَكٍ فَكَيْفَا عَابَ نَحْمُ أَطْعَمْتُ قَمَرَا

[ص 28] وما أحلى قونه . وكان قد حاء إلى حب ومعه علام ، فأحده منه عص

أمرائها :

سقى حبياً صوب العهد وإن وهت	مواثيقُ من سكاها	وعهودُ
وحياً على أعلى العفيفة متراً	عيورُ طاهُ	للأسود تصيدُ
إذا ما انتصت فيه اللحاطُ سيوفها	فإن قنوتَ	العاشقين عُمودُ
وزدنا بها بيضَ الصّباح كنيةً	فصتُ عيبا	أعيرُ وقُدودُ
فنه عيشٌ ناخيب قصيته	فويقُ فويقُ	والرّماهُ حميدُ

* * * * *

تفضيل جمال أهل حلب

وحلاصة القول أنه لا مناسبة بين حمّ أهل حب ودمشق ، فإن الأولى مشهورة بحس

(101) لا ندري بماذا نجيب .. ألم يعلم المؤلف بعد أن الشعر يقوم على المبالغات البيانية ؟ أم هل بوسعنا مثلاً أن نعاتب أبا فراس الحمداني لأنه في قصيدته المشهورة يناجي حمامة ؟

(102) لم نرَ أي مجال للمقارنة بين البيتين ، ولا شك أن الأول لطف وأبلغ .

صَوَّرَ أهلها ، وقد ذكر ذلك الدكتور فديك⁽¹³⁾ الأميركاي في كتابه «المرأة الوضيّة»⁽¹⁰⁴⁾ حيث قال : وأهل حلب يتصفون غالباً بحُسن الصورة والصوت والحُصّ ، فإن ذلك عندهم أكثر مما عند غيرهم من أهل برّ الشام .

ومن التّكت الصّريفة في محاسن أهل حلب هذه العبارة التي تُقرأ [ص 29] طرداً وعكساً ، وهي : «حلب أهلها نَح» .

مفاخرة أهل دمشق

وجميع أهل دمشق يحبّون الصّحفحة والتفاخر والسّناهة ، ولو بالمُحال ، كافتحارهم بصحامة أشجار ريتون بلدهم ، مع أن زيوتهم لا تصلح إلا لعمل الصابون أو الإيقاد ، لأنك إذا أحسنت لتقني به شيئاً هرمك برائحته الممتة ، وهذا شأن الريت الذي يسمو شحره سقياً .

وهم يدهون به الرّيب فيصير له طعم كريبه ، وهو اسمى عندهم بالزّيب الدّرثي والمترفهون منهم يأكلون من ريت بلاد حلب⁽¹⁰⁵⁾ .

(103) كورنيليوس فان دايك Cornelius Van Dyck (1818-1895 م) : طبيب وعالم مستشرق أميركي من أصل هولندي . أقام في بيروت مبشراً بروتستانتيّاً ، وأتقن العربية وأدبها . شارك في تأسيس الكلية الإنجيليّة السوريّة (S.P.C) منذ عام 1866 م (وهي الجامعة الأميركيّة في بيروت اليوم A.U.B) ، ودرّس فيها فكان من ألمع مستشرقين عصره . ترجم الكتاب المقدّس إلى العربيّة ، وله نحو 25 مؤلفاً بالعربيّة في العلوم والآداب . ترجمته في الأعلام لخير الدين الزركلي ، الطبعّة الثّانية ، 6 : 77-78 . وراجع :

Dodge, Bayard: *The American University of Beirut A Brief History*, p. 7.

(104) أي كتابه «المرأة الوضيّة في الكرة الأرضيّة» في الجغرافيّة ، ووصف حلب فيه يقع بين الصحائف 144-146 ، الطبعّة الثّالثة ، بيروت 1886 .

(105) لا زالت إلى اليوم أجود زيوت سوريّة ما تنتجه عفرين وسلقين وإدلب ، من ديرة حلب .

وكتحارهم بحسامة نقرهم ومعرهم ، لأنها تعطي الحليب الكثير . نعم صدقوا ، ولكن ما أدراك ما طعام الحليب الذي يفتحرون به ؟ ما هو إلا طعام عصير السداب ، إذ ليس عندهم مرعى للدواب غير احلة وورق الكرس كما تقدم .

* * * * *

ويفتحرون أيضاً لعب دارياً ، وهو في الحقيقة من لعب الرب الذي عبداً ، والفرق بينهما كون الذي عبداً عبداً وذاك سقي . ومع ذلك فهو عليل ، لأن رطلهم الذي هو عبادة عن ثمانمائة [ص 30] درهم يُباع عندهم ثلاثة قروش .

* * * * *

وأم فتحارهم بأثمارهم التي تشق المدينة فهي قدرة لكثرة ما يسقط فيها من أوحام المدينة ، فحيث ما جلست بجانب نهر في بيت قهوة أو روضة تشمّ منها رائحة كريهة . إلا الأثر المعتد للشرب ، مثل قنوات ودياس وتورا ويريد ، فيها لا يحالطها شيء سوى الرّمل لأجل سدّ مسام كبراد الأقية . وهذا معفو عنه عندهم ، ولكن لا عافا الله مررة قواتيهم لأن عندهم من بشارة الحشية أكثر مما في حلب ، فما صرّهم لو استعملوا ذلك الطاهر بدلاً من هذا الحس ؟ إلا أن يقال إن القناتية هناك من التصارى فلا يبالون بالحاسة ⁽¹⁰⁶⁾ ، والإسلام عى آثارهم سالكون ، وناعمهم مقتدون .

* * * * *

الخضار والحلويات والمأكّل

(106) هذه دعوى مرفوضة ، فمفهوم النجاسة كمصطلح ديني ينبغي ألا يختلط بمعاني السلوك الحياتي للنظافة . فجميع أهل الشام وسورية من مسيحيين ومسلمين يدركون أساليب النظافة والعناية الصحية ، إلا أن ما يُعتبر نجساً لدى المسلمين كالخمر ولحم الخنزير ، ليس يعتبر كذلك لدى المسيحيين ، وكذلك فأحكام الطهارة والوضوء تختلف جذرياً .

وأطْرَ سب علاء أسعار النُّقُول عندهم هو اعتناؤهم بالأشجار أكثر من النُّقُول ،
وذلك ناشئ من جهلهم بَصِّ الزراعة ، غلام البساتنة في حلب ، فإن أخذهم يستحرج
عهارته [ص 31] من مسكنة واحدة ما لا يستحرجه السستاني عندهم من مسكنتين ، وهذا
أمر محقق .

وأما الحبوب عندهم ، مثل البقلاوا والمعمول والغريبة والمأمونية وما أشبه ذلك ، فلا
تقر بها أبداً ، لأنه لا صاع ولا بصاع . لكنهم يتقنون عمل العول المدمس والمنسحة ، وهم
يتقنون كثيراً في تركيبها ، فمرة يعملونها بالسمن
- وما أدراك ما السمن - ومرة بالزيت المعلوم ، ومرة بالزبد ، ومرة بالطحينة . ولكل من
هذه التركيب اسم خاص به ، مع أن الحسيس حسيس ولو تَوَعَّت تراكيبه وكثرت أسماءه .

وأما ماء الحمص الممروح بالقلبي فلا بد لأحدهم أن يمرّ صاحباً على أحد باعته ويكرع
منه مغرفة ، وهو عندهم بمثابة الشاي عندنا

وكما يفصلون طيح السدورة الحصراء على الحمراء ، كذلك يفصلون الكرب على
كثير من الحصر .

الصابون والفحم

وصابونهم أسود اللون أو سحابي رديء لا يقوم بوظيفة تطهير الثياب كما يجب ،
فربما تحتاج لأجل غسل قميص ولباس إلى قالب منه برأسه . ولذلك [ص 32] تراهم يربعون
الصابون الذي يأتيهم من إدلب ، لأنه أحوذ من صابونهم بكثير ، مع أنه أردى صابون بلاد
حلب .

ولما كانت حاجتهم حالية من شجر السديان ، احتاحوا أن يتحدوا الفحم من شجر
المُحَلَّب والُطْم والحُور ، ولذلك ترى فحمهم عسر الاشتعال سريع الانطفاء . وهذا الذي

التربة والمراعي

وقصّابوهم لهم ولم تنقيد قصّابي حلب في عمل الكَناب⁽¹⁶⁷⁾، ولكن هيهات ، فإنه كما قال أبو العلاء المعري .

هذه مؤلفه فأين هواه . ل . ؟

فإن قلت : وبمّ ذلك ، والعمم التي تُدبح في دمشق تُحبب أكثرها من حب ؟ قلت : نعم تُحبب العمم ، ولكن لا تحلب مرعاها معها ، وأنت حبير بأد طعام الشيء يتبع المرعى . فإنما ترى غسل سُرّمين يفرق في الصعم عن غسل إذلب والمسافة بينهما ساعة ، وما ذلك إلا من خواص المرعى .

ومن تأمل في [أ.أ.] أرهاق التي تُررع في بيوت دمشق على تراب أسود كيف تكون قيمة العطرية ، [ص 33] عدم السب في الفرق بينها وبين ما يُررع منها في حلب على [أ.أ.] تراب الأحمر المركّب من كسرات الحديد الذي هو من خصوصيات حلب ، ولذا كان جميع ما يست في أراضي حلب أركبي ريجاً وطعماً مما يست في غيرها ولقد صدق من قال .
«لله خواصّ في امكة والأرمة والأشخاص» .

* * * * *

قضية الموزيكا

(107) أما هذه فعلى العين والرأس .. صدق المؤلف وأوفى ، ولا يتمازين أحد حول هذه المسألة أبداً ، فلحلب طاعت فنون الطبخ ، وبخاصة اللحوم . أما الكباب فاختصاص حلبى محض . وحتى عندما تذوق في أحد مطاعم دمشق كباباً متميزاً ، فما عليك إلا أن تسأل أحد الكراسين : شو الشيف عندكم منين ؟ سيقول لك بفخر : والله من حلب !

ومما يقضي بالعجب قصيَّة «الموريكا» . وملحَّص المسألة هو أنه في العام الماضي سافرت من حلب إلى دمشق الموريكا العسكرية التي رئيسها سيمان آغا القول أغاسي ، بعد ما أقام في حلب رُهاء عشرين سنة . ويوجد في دمشق موريكان آخرتان .

وفي كل يوم بعد العصر تحضر واحدة مهما إلى سراية لشير وتعرف ، ويجتمع كثير من الأهالي للاستماع . فهي اليوم الذي تكون فيه نوبة الموريكا الحلية ترى الناس تهرع لسماعها ، وتراهم يحرون بعضهم بقولهم : «اليوم دور الحلية !» ، وفي باقي الأيام لا اردحام

وإذا اتفق لإحدى الموريكتين أن قدت الحليين سحر [ص 34] استرقته منها تسمع الناس يقولون : «شتان ما بينهما !» . وأقسم بالله لو أن أحداً أخبرني بذلك لشككتُ في قوله ، إذ من انعم أن الآلات الموريكية العسكرية جميعها سواء ، والأنعام عندهم مربوطة بعلم النوبة ، فمن أين حصل هذا الفرق بين الفريقين ؟ وهذا ما رأيته بعيني وسمعته بأذني .

وأرجع أقول . قد أتت المؤرخون الخدق لأهل حلب في من الأنعام والأحاج من القديم ، والشاهد على ذلك وجود موريكتين أهليتين ، الواحدة للإسلام والأخرى للنصارى ، فهم يعزفون بها في الولائم والأفراح بعناية الإتقان على أصول النوبة ، وهذا مما افردت به حسب عن غيرها من البلاد . فعلة يوجد في أعامهم بعض نبرات وتراجيع مما يسمى في اصطلاح أهل الصَّعة «حرداوات» . لا يصطفاها عن النوبة ، كما عسر على الخطوط الإفرنجية صسط حروف الخفق التي في اللغة العربية .

ولما كان سليمان آغا [ص 35] المذكور تقن كثيراً من الأغاني العربية عن مطربي حسب ، فلا عجب إذاً فاق غيره من أهل هذه الصَّعة .

نقائض اللهجات

ومن حمة طباع الدمشقيين المفطورين عليها محبتهم التذكيت على لهجة أهل حسب ، مع

أَن لَّحْنَهُمْ مِنْ أَفْحِ اللَّهَجَاتِ لِأَنَّهَا شَبِيهَةٌ لِلْهَجَةِ الْحَبِلِيَّةِ (108). وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ تَحَالُ أَنْ فَكَّهُمُ السَّعْيِي مَرْتَحِي الْأَعْصَابِ أَوْ مُحْتَلِّ تَرْكِيبِهِ الطَّبِيعِيِّ ، فَيَسْطَقُونَ «الْقَاف» أَلْفًا ، وَ«الْحِيم» رَايَا (109) مُعْجَمَةً أَوْ حِيمًا كَرْدِيًّا ، وَ«الشِّين» سِيًّا (110) فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ..

وَقَدْ كَسَتْ فِي مُحَسِّسِ مِهِم ، فَأَرَادُوا أَنْ يُحَلِّقُوا ، كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ مَعَ كُلِّ عَرَبٍ ، فَقَسَتْ لَهُمْ : قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَقْرَأُوا لَ قَوْلَهُ تَعَالَى : {وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا} ، ثُمَّ {قُلْ أَعُودُ رَبِّ انْفِقْ} .. فَفَرَّوْهُمَا مِنْ عَيْرٍ أَنْ يَغَيِّرُوا شَيْئًا مِنَ الْحُرُوفِ عَنْ مَحَارِحِهَا .

فَقَسَتْ هُمْ : يَطْهَرُ لِي أَنْ حَمِيعُ أَهْلِ دِمَشْقٍ مَتَصَّعُونَ يَحْتَوُونَ التَّحَنُّتَ ، لِأَنَّهُمْ يَغَيِّرُونَ مَحَارِحَ الْحُرُوفِ عَمْدًا ، تَشَبُّهًا بِالْأَحْدَاثِ . فَهَبْ أَنْ ائْتِمَامًا أَوْ السَّاتِ إِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ :

«وَمَتْ أَتْلُ [ص 36] السَّمْسُ ، لَتَيْتُ أُمِّي رَايَجَةً إِلَى الْمَرْءِ صُ» (111) لَحْنَتُهَا غَيْبَتُهَا مَسْطَحَةً مَحْشِيَّتِ رَرَّالِ عَرَبٍ . وَتِلْكَ لَهَا أُوْمِي . أَيُّ يَرِيدُكَ أَلْتِ : يَصْرَبُ أَبُوكَ ، حَلِيًّا نَشَمَ الطَّوَاهُيُوهُ ، أَحْبَرُ مَا إِبْرِلَ عَنِ الْحِكْمَةِ وَاصْلَتُو ، وَاشُوفْ لِي رُوزَ عَيْرِهِ . وَلَحْنَتُ لِي أُمْرِي (112) ، أَحْدَتُو وَرَبْتُ ..

.. رَتَمًا يُسْتَعْدَبُ مِهِمُ سَمَاعُ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ ، وَلَكِنْ مِنْ بَطْنِيقٍ أَنْ يَسْمَعَهَا مِنْ أَهْلِ الدَّقُوقِ مَتَكُمُ أَوْ مِنْ عَجَائِرِ السَّاءِ ؟ وَمَا تَقْمُونَ (113) مَا إِلَّا أَبَ لَا يَغَيِّرُ مَحَارِحَ الْحُرُوفِ فِي

(108) كَلِمَةٌ حَقٌّ : لَهْجَةٌ حَلَبٌ لَا مُشَاحَّةَ فِي ثَقْلِهَا ، أَمَّا رَخَاوَةٌ حَنْكُ الشَّوَامِ فَصَوَابٌ لَا لُأَمَارِيهِ !

(109) الْحَرْفُ (ز) مِنَ الدَّخِيلِ عَلَى الْأَبْجَدِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، يُقْلَظُ جِيمًا مَرَقَّةً ، وَيُقَابَلُهُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ الْحَرْفُ (J) ، كَقَوْلِكَ : janvier . وَفِي الْإِنْكَلِيزِيَّةِ يُعْتَبَرُ عَنْهُ بِالْحَرْفَيْنِ ZH . وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ هَكَذَا يُقْلَظُ الْجِيمُ بِدِمَشْقٍ ، وَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ فِي شَيْءٍ .

(110) لَكِنْ هَذَا فِي النَّادِرِ ، كَقَوْلِهِمْ : سَجْرَةٌ (شَجَرَةٌ) ، سَمْسٌ (شَمْسٌ) ، سَخْصٌ (شَخْصٌ) .

(111) تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذَا الْمَرْقَصِ ، وَلَكِنْ يَعِيبُ الْمُؤَلِّفُ أَنْ يَتَحَدَّثَ بِهَذِهِ الرِّقَاعَةِ .

(112) الْقُمْرِيُّ عَمَلَةٌ فَضِيَّةٌ قَدِيمَةٌ ، ذَكَرَهَا الْمَعْلَمُ نَعُومُ الْبَخَّاشُ الْحَلَبِيُّ فِي يَوْمِيَّاتِهِ الثَّمِينَةِ . انْظُرْ : الْأَدَبُ الشَّعْبِيُّ الْحَلَبِيُّ ، لِلْأَبِ يَوْسُفِ قَوْشَاقِجِي ،

ص 117 .

(113) بِالْأَصْلِ : وَمَا تَنْقَمُوا .

التكتم مشكم ، بل لعتنا على لغة القرآن !

فحرسوا عن الخواب ، وكأهمم ألقموا ححراً ، وأحدوا بالصحك وحولوا الحديث إلى غير موضوع .

تراب من على رأس من ؟

وأردت مرة أن أعصب واحداً منهم عليط الطبع ، فقلت له : لا يليق بكم أن تحططوا من قدر حب ، وتراها على رؤوسكم !

فقال : بل تراب دمشق على رؤوس أهل حب !

فقلت له : هذه دعوى كاذبة ، وأما قولي فصحيح .

فقال وما وجه صحة قولك ؟

فقلت . ألسنتم تشترون التراب الحليّة (البيوت) وتعملون بها رؤوسكم في الحمام ، راحلاً وساءً ؟

فحميه الحُقم على أن يقول : عليّ الطلاء⁽¹¹⁴⁾ عمري [ص 37] ما فكّيت عيها مصر⁽¹¹⁵⁾ ولعته كاذب⁽¹¹⁶⁾ .

* * * * *

قضايا الزواج والطلاق

ويوجد في دمشق سعة محاكم شرعية ، وأعرب القضايا التي تُرى بهذه المحاكم دعاوى

(114) يريد : الطلاق .

(115) العبارة مُبهمّة ، ولعله يريد : مصرية ، أي : لم أصرف عليها قرشاً ، ولا استعملتها بحياتي أصلاً .

(116) بالأصل : كاذباً .

الطلاق . فلا تكاد محكمة منها تحبو يوماً من أمر الطلاق . فهو رأيت ما يجري بين المطلّقين
والمطلّقات هالك الأمر حدّاً ، إذ لا ترى من مئة دعوى عشرين حقّة ، والفاقي تروير وُهنات ،
وشهود الرُّور لدى الباب قاعدون .

ومن حُمة ما رأيت في المحكمة السّاسية ، هو أن رجلاً كان عائلاً في الحجار ، ولما
حصر وحد زوجته متزوّجة بغيره .. فحصر إلى المحكمة وتّ دعواه ، فأحصرها المُباشِر إلى
مواجهة النائب وسألها عن مُدّعي⁽¹¹⁷⁾ روحها ، فادّعت أنه طَلّقها قبل سفره إلى الحجاز ،
وأثبتت دعواها بشاهدين وكسبت الدعوى . فحرج الرجل يتعتّر في أدياله ححلاً ، وحرحت
متهلّلة الوجه ، فالتفتت إلى زوجها ، وقالت له : «طء في أُنك .. تروّرت تروّرت !»
(118)

فعلّ أحداً يعترض عليّ ويقول . من أين عرفت أن الرجل كان المُحقّ والمرأة المُسطة ،
وأنت رجل [ص 38] عريب هناك ؟ أقول : حسب ما أحبري من لهم اطلاع على حقيقة
الأمر .

* * * * *

وأعجب من ذلك أنه كثيراً ما يدّعي رجل في المحكمة على أناس حطب مهم بتّ كراً
، رآها بعينه وحرى العقد والسكاح ، وعد الاحتلاء أدحيوه على عجورة شوّهاء وهما
تكون⁽¹¹⁹⁾ حيرة الحاكم . لأنه نظراً لوقوع هكذا مواد يُعتقد صحتها ، ونكر معلوم أن
الشريعة العراء لا تُبيح للحاكم أن يحكم برأيه ، ولا يمكن للمدّعي أن يقيم شهوداً على مدّعه
. وعاية الحكم أن يطلب الحاكم من المدّعي عليهم اليمين .. (انخلي يا هلالة) ..⁽¹²⁰⁾

(117) بالأصل : مدعا .

(118) يعني : «طق بقلبك .. تزوّجت تزوّجت» .

(119) بالأصل : يكون .

(120) «انخلي يا هلالة» : مثل شعبي متداول ، قصّته أن بدويّاً سرق كيساً من
الطحين ، فلما جيء به إلى القاضي وأنكر دعوى السرقة ، طلب منه أداء
اليمين ، فانفجرت أساريه وقال في نفسه : انخلي يا هلالة ! وهلالة هي

وبذلك تحتم المحاكمة . وهذا الأمر يقع كثيراً مع العرباء الذين يجهلون حيل المحتالين ومكرهم ، الذين جعلوا ذلك مهنتهم وسب معاشهم .

* * * * *

ورثما يروّحون المرأة الواحدة عشر مرّات في السنة ، لأنهم لا يعرفون عدّة ولا مدّة .
وقلّما يُرى في دمشق رجل لم يتروّح عدّة نساء ، كما أنه لا يُرى امرأة لم تُطلق من عدّة
رجال . فإن كثيراً [ص 39] من سماسة النساء دأبهم التحيل والتركيب ، فإن معيشتهم
متوقّفة على ذلك . فكثما يرون عربياً يدورون حوله ويشوّقون له في التروّح . فإن كان
يرغب أن يتروّح بكراً فله مهر ألف قرش ، فإن لم يكن موحوداً معه جميع المبيع يقولون له :
يكفي أن تدفع الآن مائتي قرش ، واكتب بالباقي سداً على نفسك ، ولك أن تُريك العروس
بعينيك . لأن الشريعة العرّاء تُبيح ذلك ! ولكن يعلم الله كيف تنقلب العروس الحميلة بعد
الرؤيا .

وتبيح هذا الرواح تكون في العال حسارة الدّراهم التي دفعها من المهر ، فيقع
العريب من العيمة بالإياب ، وهم يقعون بما قبضوه تاركين السّد كرمأً وسماحاً ، لأن العرباء
كثيرون ، فيروّحونها بعد أيام قلائل لشقيّ آخر ، وهم حرّاً ..

* * * * *

السكّة الحديدية

ومما دنيّ على حول أفكار عالهم ، هو أي أقيمت ثلاثة أشهر في مدينتهم وم أسمع من
أحد مهم ذكر قصيّة السكّة الحديدية ، التي رخصت الدولة العلبيّة لشركة فرساوية [ص 40]
مئذها من دمشق إلى حب إلى براحيك ، مع أن ذلك من الأمور المهمّة ، تحارة وسياسة ، التي

زوجته ، أي صار بوسعها الآن أن تتخل الطحين مطمئنة البال ، فالأمر
يسير إذ توقف على حلف اليمين .

تَمَّ كلُّ محبٍّ لوصفه راعب في عمره . ولو سألتَ أحداً منهم عن ذلك لاستعرب منك هذا السؤال . حتى أن السَّكَّةَ التي مُدَّتْ من دمشق إلى حوران نَمَرَّ على طول المدينة بحاسب حذرهما ، فلا ترى أحداً منهم يهتم لرؤيتها غير الديس يوتهم بحاسب السَّكَّةَ يطرون إليها بدون قصد

تعصّب الدمشقيين ضد حلب

ومن حمة جهل عوامهم قولهم إن سيّدا يحبي أفضل من سيّدا ركرتيا ، عنيهما السلام . ويعتلّون عن السب بأن الأول نبيّ ، والنّبيّ ، وليس كذلك الثاني . فقلتُ لهم : يا حُفَالٍ يلزم من ذلك أن يكون أفضل من سيّدا محمد صليّ الله عليه وسلّم أيضاً ، والعبد لله من الجهل .

ولم يقل هذا مسلم ، ولا يحميم على هذا العُلُوّ إلا رعتهم في سلب المريّة عن حب لؤمًا وحسدًا ، إذ الشائع عندهم أن أسلاف أهالي حلب اشتروا أسلافهم من التمرلث [ص 41] ثم مرّ بهم من حبس ، بروج نعل وأصلقوهم⁽¹²¹⁾ . وهم لأن يبقوا أرقاء لأهل حلب . فهذا سبّ لعصم للحلي

طُرْفَةٌ نَادِرَةٌ

وقد سمعتُ أحدهم يتسَخَّح ويكْتَع على أسياده الموهومين ، فأردتُ أن أعيطه فقلتُ له

(121) يا للصفاقة والرقاعة وتمادي البُهتان .. هيك تخنّتها كثير شيخي ! فالواقع أن أهل دمشق وأهل حلب يستون في الوقوع بسبي المغول ، وما فعله هؤلاء في كل من حلب ودمشق شيء مهول نقشعر منه الأبدان . راجع ما كتبه ابن تغري البردي الأتابكي في كتابه «النجوم الزاهرة» ، نقلًا عن أبيه الذي كان شاهد عيان للفظائع التي اقترفها المغول بحلب . وقد ضمّن بعض ذلك في بحثنا (ثلاثة فصول تاريخية من جهاد حلب في القرون الوسطى) ، ضمن كتابنا «دفاتر حلبية عتيقة» ، الذي ينتظر حظه للخروج إلى النور .

اتفق أن أحد التّحارّ الدمشقيين أتى إلى حلب وصر صيفاً على معاملة الحلبي ، فبعد أن أقام عنده عدّة أيام توعّكّ مراجه واحتتّ صحته . فأحصر له مصيفه طيباً ، فأحد يداويه عدّة أيام فام تحع به الأدوية والعلاجات . فصرف هذا الطبيب وأحصر له طيباً من الأطباء لناهريين ، فأحد الطبيب يسأل⁽¹²²⁾ المريض عن سبب مرضه وعن أكله وعن شربه وعن جميع ما يقتضي السؤال عنه ، ثم قال لصاحب البيت :

أرسل أحداً من عندك بهذه الورقة إلى دكّائي فيحصر قنيّة بها ماء ، فيكون شرب المريض منه دائماً ، ولا يشرب ماءً قراحاً أبداً .

فامتثل للأمر ، وصار المريض يتعاطى الدواء مدّة يومين فتحسّنت أحواله نوعاً ما ، ثم حضر الطبيب فرأى المريض [ص 42] يتقدّم إلى الصحة فاستأنف الدواء .

وبعد يومين حصر الطبيب ، فرأى المريض نقّة من مرضه تماماً ، فقال له : لارم الشّرب من هذا الماء ما دُمتَ موحوداً بهذا البلد !

ثم سأل صاحب البيت من الطبيب عن مرض صيفه ، وما كان سبه . فأحابه : إن صيفك هذا دمشقي ، وهو متعوّد على شرب ماء الرّبل في بلده ، ولما فقدته مرض كما ترى . والدواء الذي أُرسته له لم يكن سوى ماء منقوع فيه ربل معبّر لونه شيء من العقاقير ، فكان له الدواء الشافي⁽¹²³⁾

فسأله . وهل ماء حلب الصافي الطاهر لم يوافقه ؟ فأحابه بل هو الذي أصرّه ، كما يصرّ ريح الورد بالحلّ !

فلما سمع مني [الدمشقي] هذا الكلام ، انتفح من العصب وأسرع في الهرب .

أولاد البابا حسن

- (122) بالأصل : يسئل .
 (123) من الواضح أن هذا الطبيب - إن كانت القصة حقيقية - قد تعاطى الطبّ في المسلخ ، أو كان ينبغي سحب إجازة الطبّ منه وتحويله للبيطرة ، أجدى وأجدر .

ويوجد في دمشق عدد وافر من الأولاد الذين يسمّوهم هناك «أولاد نانا حسن»⁽¹²⁴⁾. ومن نظر في أحوال هؤلاء الأولاد وما هم عليه من فساد الأخلاق وقبح الصورة وقدارة الثياب ، [ص 43] ومومهم في الليل في الشوارع والطرقات متوسّدين الكلاب ، وكلامهم اللدني الذي تسو عنه الأسماع ، يتضح له ويعرف كيف يكون تصرفهم إذا صاروا من جملة رجال دمشق في المستقبل ، ويهمل أخلاق أسلافهم وادبهم . فكان هذا الداء قديماً في دمشق ملازم لها .

ويظهر ذلك حلياً من كلام ابن المير الطربلسي ، في قصيدته الترتية المشهورة ، التي يقول من حلة أبياتها :

وسكتُ	حقّق	واقْتديتُ	بهم	وإن	كانوا	بقرّ
وأقولُ	مثل	مقاهمُ	بالعاشريّا	قد		فشرّ
مصطحيّ		مكسورة	وفطيرتي	فيها		قصرُ
نمرُ	تري	برئيسهم	طيشَ	الطيبم	إذا	نفرُ
وحميمهمُ		مُستقلّ	وصوبُ	قولهمُ		هدرُ
وطاعهمُ		كحاهم	حُبْلُ	وقدّتُ	من	حخرُ

هزل الدمشقيين⁽¹²⁵⁾

[ص 45] وأعس أهل دمشق مبالون بالصنع إلى كثرة المراح والمهرل والتهريج ، حتى إذا وُحد شخص في حلب بهذه الأوصاف يُقال عنه «مُدْمَشَق» ، أي متحلّق بأخلاق أهل

(124) التعبير من بقايا مخازي يزيد ورهطه ، الممعنة في البذاءة والافتراء على آل البيت . يُراد به الغمز من قناة سيدنا الحسن بن عليّ ، رضي الله عنهما ، لكن العظيم يبقى عظيماً .
(125) قبل هذه الفقرة قطعة مقدار صحيفة وثلاثة سطور . ضربنا عنها صفحاً لعدم مناسبتها .

دمشق ، كما يقال للعريضة الكادبة «عريضة شامية»⁽¹²⁶⁾ .

ولعلمتهم ولع رائد في تقليد أعيانهم في ملابسهم ، ولو كان ما يمسسه عارية أو مستأجراً بالكري⁽¹²⁷⁾ من السوق .

كلمة حق

ثم نقول : إنا كتبنا ما كتبناه عن دمشق وشوائبها ، يشهد الله ورسوله وملائكته ، ونحن نتأسف عليها وعلى أهلها ، وكان يودنا أنا بآراءهم ومدينتهم أحسن مما ترجموا عنهم ، لأنها مدينة إسلامية على كل حال وأقدم مدينة في العالم ، وهي مركز الخلافة الأموية ومصدر المحمل الشريف وعنة الكعبة المنورة ، وأهلها حيراسا ويجمعها [ص 46] وحدة احسية واللعة والتبعية

فلا يسرنا أسأراها معكوسة الأحوال ، متسنة بأوصاف لا تليق بمدينة إسلامية مثنها ، مثل قهوة الدفتردار بها⁽¹²⁸⁾ ، وقعود النساء هناك مقابلات جمهور الشبان حال كونهن في حالة اشرب والعردة وكذلك المرحلة والصوفانية⁽¹²⁹⁾ ، وما أشبه ذلك

بعض محاسن دمشق

ولا بد أن نذكر محاسنها كما يقتضي الإصاف ، فنقول :

يوجد في دمشق حمامات من الطراز الأول ، ومتنزهات ورياض يندر وجودها في غيرها

(126) أما عندنا بالشام فالتنذر على «العزيمة الصالحانية» .

(127) بالكراء : بالأجرة .

(128) كانت هذه القهوة في أواخر القرن التاسع عشر توجد - حسب ما هو واضح - في الحديقة المعروفة بجنيانة الدفتردار ، بشرقي حديقة المنشية ، فاخترقتها في عصرنا نزلة التجهيز . وكانت تقع قبالة بناء مكتب الحقوق (وزارة السياحة حالياً) .

(129) الصوفانية من متنزهات دمشق الشهيرة بظاهر باب توما .

من مدن سوريا ، مثل الهامة وأحارها المتدفقة ، والرّوبة وأشجارها المورقة ، والصالحية المقدّسة وهوائها . ودُمّر الهيحة وعدوة مائها ، والمرحة العيحاء وكواكها السيّارة ، وسكّة الحديد ومراكها الطيّارة ، وباب توما وقهواته . ومركز طريق الشّوصة وعجلاته .

وأعظم وأشرف الجميع جامع الأموي وأبواره ، ومرفد سيّد يحيى عليه السّلام ومهبط أسرارّه .

حريق الجامع الأموي

واحسرتاه [ص 47] ثاني يوم حروحا من دمشق ، صهر الحريق في جامع الأموي قصاءً . وفي مدّة ساعتين عادتْ تلك السّاية القديمة العظيمة الصّحمة التي كانت تعتخر بها أهالي دمشق على جميع مدن آسيا أترأ بعد عين ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله⁽¹³⁰⁾ .

عودٌ على متثرهات دمشق

ولكن يسوؤنا أما نقول إن أكثر هذه المتثرهات ليس لأهل الباموس فيها من نصيب . لأنه يُرى بها ما لا يحس ذكره أو ما لا يوافق فكره . فسأل العظيم بحاه سيّه الكريم أن يقيّض لدمشق جماعة مثل الشّبح سعيد أفندي العبرة . فيصلحوا أحوالها ويعفوا منها ما يشيها . آمين

(130) في ضحوة يوم السبت 4 ربيع الثاني سنة 1311 هـ (الموافق 15 تشرين الأول 1893 م) ، شَبّت النار في الجامع الأموي ، وسببها كان من عامل كان يقوم بترميم سقف المشهد الغربي ، أعدّ جمرأ لأركيلته المشؤومة ووضعه على رصاص السقف ، فذاب واحترق ما تحته . وسرعان ما شَبّت النار في أبواب الجامع وسدّاته وأركانه ، وأتت على بيت الخطابة فأحرقت ما به من المآثر ، حتّى شملت المصحف العثماني الكبير الذي كان أتى به من بصرى . وفي خلال بضعة ساعات كانت أجزاء كاملة من هذا الأثر العظيم قد تحوّلت إلى ركام ؛ فتنادى أهل الشام إلى إصلاحه ، وبذلوا الجهود والأموال الجزيلة ، حتّى تم إصلاح جناحه الشرقي في عام 1317 هـ ، والغربي في عام 1320 هـ . وقيل بلغ مجموع ما أنفق على ترميم الجامع 60 ألف ليرة ذهبية .

تفضيل المترهات الحلبية

على الدمشقية

ثم يقول : إن جميع مترهات دمشق مقيّدة لا مطلقة . سوى حارة الصالحية ⁽¹³¹⁾ ، ومعنى المقيّدة أنه لا يمكنك أن تمّد بصرك بها مدة ذراع حتى تصدّه الأشجار المختكة ، ومعنوم أنه كما امتد النظر يشرح الناظر ، لا سيما إذا توعّعت المناظر . فلو فاسا بين مترهات دمشق ومترهات حلب ، اتى منها جبل الخوش ومصاطب العشاق وحبل البهر وحبل [ص 48] الشيخ فارس وحبّ العرالات والأبصاري والشيخ مقصود وغيرهم ، لفصّنت الثانية على الأولى .

تصوّر ، هداك الله ، أنك جالس على دروة جبل الخوش مثلاً والأواد ربيع ، مُطفأً عان بصرك ، حيث يمتد مسافة حمسة أميال على الأقل من كل جهة ، على سائير وسهول وحبال وقرى ومروج على صفّي البهر ، وأراضٍ كأنه فرش عليها قماش أحمر ⁽¹³²⁾ ، مع منظر جميع المدينة وبهجتها ، مستشفقاً السيم الذي كأنه مسعت من الحبال ، كيف يحصل لك الأسر والسرور والانشراح . وهناك اعمل موارنة بين المدينتين ناخقاً

وأعظم من جميع ما ذكر ، صعودك برح القنعة الشهاء دات الجناحين ، فيحال لك أنك تطوف بأكتاف السحاب المحيّم ، بخلاف قلعة دمشق التي هي عبارة عن حان من حانات حب ، فإنت لا ترى بها غير رؤوس حذراها ورقعة السماء التي تحيّمها ، لأن موقعها أوطأ من

(131) لم يكن حي المهاجرين قد بُدئ بعمارته آنذاك ، بل عام 1900 ، بعد 7 أعوام من زيارته ، وآخر الحد الغربي لضاحية الصالحية كان الفواخير ، وخلفه بساتين الثيرب أولها بهران .
(132) بالأصل : قماشاً أحمرأ . فانتت مؤلفنا قواعد المبني للمجهول والممنوع من الصّرف .

نقية المدينة . ثم لو وصعتها مع قِثْل دمشق الحمس [ص 49] صمن قِثْنة ⁽¹³³⁾ حلب (الشيخ يرق) لوسعتهم ، فضلاً عن إتقان بائها الذي هو من حجر وحديد ، وكسافة بناء أولئك الذي هو من الطوب والقرميد .

التجارة والصناعة

وأما من حصوص التجارة بين امديتين ، فدمشق ترسل إلى حلب القمردّين وصايات حتارة وشيئاً من المدرّيات ⁽¹³⁴⁾ والكمار ، وحلب ترسل إلى دمشق الخيل والعم والسّمس والفسق والقطن والزيت والصابون والقصب وأواني الحاس والأعاني والبلون والسّمك .

وأما من حصوص المصوغات ، فإن دمشق تعوق حب شعل الحتارة والمدرّيات ، والحفر في الحاس والتدهير وترصيع الخشب بالصّدْف ، وأدوات الحديد والفولاذ والخلود . وحلب تعوق دمشق بسحب شريط القصب والصباغة وشعل المسيع وشعل الأعاني وشعل الحاس من جميع الألوان ، وصعة الساء وصح الصابون واستحراج الریت ، وشعل المراكيب وعمل القدرات وعمل الحلويات من جميع أنواعها ، وأشياء أخر لا تستحق الذكر ، مثل المكاس والمفاح وشربات الماء .

* * * * *

سبب شهرة دمشق

[ص 50] فإن قيل : إذا كانت دمشق كما وصفت ، فما سبب شهرتها في جميع الدنيا من القديم ؟

أقول : شهرتها فاعتبار الإقليم الشامي ، وحدّه من عربيت مصر إلى العُرات ، فإنه

(133) سبق أن ذكرنا أن القِثْلَة كلمة تركية : kışla ، ومعناها : الثكنة العسكرية

(134) المدرّيات : يعني مضربّات الخزّ المطرزة .

عُشَّ الأنبياء كما هو مذكور في الكتب السماوية . أعني التوراة والزبور والإنجيل والفرقان .
ولأن أصحاب هذه الكتب انتشروا في جميع أقطار الأرض ، فمداومة تلاوتها يتردّد ذكرها
دائماً بينهم ، فلا عجب إذا شاعت شهرتها من هذا الخصوص .

وأما شهرة المدينة وحدها ، فكونها تشتمل على أمر ديني ، وبيان ذلك أن هذه المدينة
واقعة برحاً بين العمران ومقاور الحجار ، وكونها مركزاً لمحمل الشريف ، ومنها تبتدىء
مسيرة سير الحج ، ومنها يتعيّن وريز وقاصّ وطبيب وعسكر محافطة الرّكب ، ومنها يخرج
ركب الخردة إعانة لركب الحج في رحوعه . فمن أجل جميع ذلك يكثر تردّد ذكرها في جميع
العالم الإسلامي ، كأقوالهم : «في آخر شهر شوّال يخرج الحج [ص 51] من مدينة دمشق
، قاصداً الأراضي المقدّسة الحجازيّة» . «وفي أواخر شهر محرّم الحرام يدخل الرّكب إلى
مدينة دمشق ، مقبلاً من الأراضي الحجازيّة» .. «وفي يوم كذا يخرج أمير الصبرة من دمشق
قاصداً دار الخلافة العليّة» .. وما أشبه ذلك من الكلام المتعلّق بالحجّ .

وهذا الكلام بحري في جميع أشهر الحجّ ، حتى إذا رجع الحاج إلى بلاده وأراد أن يحكي
لأهله عن سفرته ، فيبتدئها من دمشق ، لأنه لم يجد صعوبة السّفر إلا من بعدها .

ومما يكسبها شهرة أيضاً ، كونها مركزاً لمعسكر الأوردي⁽¹³⁵⁾ الخامس السطاطي .
ويتبعها في نظام العسكرية أربع ولايات ، أعني حلب وآدنه وبيروت والقدس والدير . فمنها
تُرسل الأوامر لمحتصة العسكرية إلى هذه الولايات ، فترى الدس في تلك البلاد لهجين بذكر
دمشق ، فيقولون مثلاً : «أتت الأوامر من المشير في دمشق بأن تؤحد القرعة أو يجمع الرديف
أو تحوي الطابور العالي إلى فلان بلد ، أو بإطلاق سبيل الأنصار الذين أكملوا مدّة [ص 52]
خدمتهم العسكريّة» ، إلى غير ذلك من الأمور التي يقتضي أن تُذكر في دمشق كثيراً .

ولا يحصى ما تعطيه جميع هذه الأحوال من الشهرة ، فلو كانت إدلب حاضرة هذه
الصفقات المارّة ذكرها ، لاكتست تلك الشهرة على قلة مائها . وأنت ترى أن مدينة القدس
أكثر شهرة في جميع الدنيا من مدينة دمشق مع قلة مائها ، والله أعلم .

(135) ذكرنا مسبقاً أن الكلمة تركية : ordu ، وتعني : الجيش .

وأرحو تمّ نظر في هذه المقولة أن يعصّ انظرّف عمّا وقع فيها من الخطأ ، ويسمح لي
عن النّحن والركاكة ، إد لا قدرة لي أن أتمق الكلام مُعرباً ومحسنّاً بأواع السديع والبلاعة .
والمُصّف من يقبل العُذر ويعبر الرلّات .

وصيّ الله على من لا يطق عن الهوى ، وآله وصحبه وأهل بيته ، وسلّم تسليماً كثيراً
، آمين .

تمّ . . . ت في 15 ر سنة 1311

تمّت عى يد كاته . . .

احاح خُرشد

المسائل

من مذكرات جدّة أمي
فاطمة بنت محمد سعيد آغا البديوي
1869 - 1958 م
صور من الحياة الاجتماعية بدمشق
في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين
بقلم حفيدها الدكتور عدنان آق بيق

كتب حالي عدايا :

قمتُ بتدوين هذه المذكرات على لسان حذقي فاطمة ، عام 1953 ، وكان عمرها آنذاك 84 عاماً ، وبالرغم من سنها فكانت تندو عيها علائم الصحة والشايط .. كانت تقصي مهارها فاقعة في سريرها ، وقد رفعت العطاء حتى وجهها ولعت الشال على كتفيها وعصت حبيها بالقمطة وانكتت على أشعار الصوف التي تحتها .. وكانت سبيمة الخواس ، تُدخل الخيط في ثقب الإبرة .. ببضاء الشرة قصيرة القامة ضاحكة الوحه ، لا تقطع عن أداء فروعها الندية في أوقاتها المحددة .

كانت جدتي تشعر بدّة فائقة في الحديث عن ذكرياتها ، وخاصة حين نحد من يستمع إليها ؛ أما أنا فكانت ممن يُعيد الاستماع ، فكانت طالما تحدثني عن طفولتها وصاها ، ولكنها أيضاً كانت سرعان ما تنسى ما روت لي ، فتعود لتحديثي عنه داته بعد ساعة أو أقل . وداكرتها كانت بالسسة لأحداث الماضي قوية ، فتراها تذكر كل التفاصيل ، ولكنها تنسى ما جرى لها اليوم والأمس .

وحلال إحدى رباراتي القليلة لدمشق عام 1953 ، سحتُ في خاطري فكرة تسجيل ما كانت حذقي ترويه على مسامعي ، ولم ألبث أن شرعتُ بهذه الفكرة على الفور ، فرأيتني أحس بحاسها والقلم والنورق أمامي ، ومصت تطلق في أحاديثها وأنا أسجل . ولما كانت تصمت في بعض الأحيان كنتُ أذكرها فأسألها عن هذه الحادثة أو تلك ، فتعود لتروي وتروي ..

امتألت أمامي صفحات وصفحات ، وحاء اليوم الذي شعرتُ فيه بأن حذقي قد ألفت على مسامعي مُحمل سيرة حياتها ، وإن كان ذلك بوجه الإنجاز لا الإطباب . فها أنا ذا اليوم أحرّره كما سمعته ، دوّما تحديق أو تشديق ، حرفاً بعد حرف وبممس لمحتها العامة الشامية . وإنما رتنتُ حكاياها شيء من التسلسل التاريخي قدر الإمكان .

وآن أوان السفر من حديد ، فتركتُ هذه المذكرات لتبقى بين أفراد أسرتي صدىً باقياً

من أنفاس حدثنا المحبوة ، ولندكر أباءنا وأحفادنا عبر مفيدة وصور طريقة من ماضي أسرتهم
ومدينتهم الحبيبة دمشق .

وأخيراً ، فها هي فيما يلي قصة حياة حداثتي كما روتها لي .

* * * * *

قنتُ

وها أنا ذا اليوم ، في عام 1998 ، وقعت بيدي هذه المذكرات الطريقة والقيمة . بعد
45 عاماً من تدوينها وبعد 40 عاماً من غياب صاحبته عن مسرح الحياة ، فقرأتُ ما فيها ،
ووجدتني في الواقع لا أعرف عن حدة أمي فاطمة الديويني أي شيء . فأنا مع الأسف لم
أدركها أصلاً ، فقد أبصرتُ الور بعد وفاتها بأربع سنين

وكم شاقنتي هذه المذكرات ، وشعرتُ بأنفاس صاحبته وكأنها ترويها عني بنفسها
وتفعل نحاسيسها وعواصفها ، طعمة ويافعة ثم صبية فكهة وعجوراً مسنة . وكم أمتعتني
حكايات وأصحكنتني أخرى ، ثم كم احترق الحزن قلبي ومرقه سكين حادة جارحة عندما
مرت بي تلك الفصول المؤلمة عن وفاة أطفائها الثلاثة محمود وزهرة وحيهان . وبخاصة حيهان
الخلوة التي كانت في ربيعها الثالث كالياسمين ، والتي راحت الأم تتذكر بوعه لثغتها المحسة
بكلماتها الرفيقة الطاهرة ، ثم اترعها الموت بقسوة ، وهي لا تزال ممسكة بحبات اللتس
الدمشقي الأبيض ، فانطلقت روحها الصغيرة الطاهرة تترقب فوق أسطحه الشام ودري
قاسيون وسانين العوطة .

حيهان .. لك كل الرحمة أيتها الملاك الطاهر .

لم تمالك نفسي البكاء المرّة وانتين وثلاثاً عندما قرأتُ هذه الحادثة المؤلمة التي لم
أكن حتى دارياً بها . ثم لم تقوَ عينايا عند كتابة هذه السطور على احتجار الدمع من حديد ،
فعحر القلم عن التعبير وحلّت محله العبرات الحارة . هل هاك ألع من هذا النص المباشر الخدّ

الباقر بكل ما فيه من لوعة وألم ؟..

كم تَمَيَّتُ أن أحطى ولو بصورة قديمة باهتة هذه الفقيدة الصغيرة ، أو على الأقل لو
أعثر لها في تربة الناب الصغير على قبر أدرف أمامه دموعي على حيهان عمّة أُمّي ، تلك الطفلة
الربّنة التي احتطّمتها الموت قبل الأوان ..

تابعتُ القراءة . وأنا أكتشف فصولاً تعبق بأنفاس صاحبته التي ستُأشعر الآن حقاً
دمها يسري في عروقي ، ولمستُ بأن هذه الحروف لم تُكتب بأحبر بقدر ما كُتبت بسواعج
صاحبته وأحاسيسها العنوية الصادقة . وفيها اكتشفتُ فصولاً مهمّة من التاريخ الشعبي
لشامنا الحالدة ، حذّة كل حذّة وأمّ كل أم .

* * * * *

كم أشعر الساعة بمسؤولية نقل هذه المذكرات إلى جمهور القراء المهتمين بتاريخ دمشق
وترائثها الشعبي ، فهي في الحقيقة م تعد مذكرات شخصية تعبق بقاطمة الدوي وحسب ، بل
هي أصداء حيّة من ماضي مدينتنا الحبيبة في أواخر القرن الماضي وأوائل الحاضر ، عاشتها كل
حذّة وكل أم وزوجة وأخت واسة من ست دمشق .

لكي أطلب من القارئ الكريم أن يعفو عن بعض الكُنيّات التي قد يرى فيها بعض
السوء ، وذلك أي أثرت ترك هذه النصوص القديمة على عامّيّتها وعفويّتها ، لم أعمد إلى
تشديدها أو تخفيفها ، بالنسبة كما فعل حالي من قبلي . فما قيمة الأدب الشعبي إن نحن
أعملنا فيه يد التعبير والتحوير والتهديب ؟ إن قيمة المناصي لفي بسكته الحقيقية وعراقته العنوية
غير المنكّفة ..

وحتاماً ، فما هي دي كنمات حذّة أُمّي أنقلها كما وردت على لسانها ، ونقسم
حفيدها عداً .

أما العباوين فهي من عدي ، أصفّتها لتكون القراءة أسلس وأمتع .

وكذلك أشير إلى أني قد عملت غاية جهدي للتحقق من جميع الأحداث التاريخية الواردة في هذه المذكرات ، وكذلك سنوات وقوعها . و جهدت بالعثور على تواريخ المواليد والوفيات والزيارات للشخصيات الرئيسة الواردة فيها ، كيما يكون لها قيمة الوثيقة التاريخية المؤصلة ، و ربطاً للحدث بالمكان والزمان ، والصورة إن أمكن .
وهذا في النهاية بمشي ما يمكن أن يُطبق عليه تاريخاً بمعنى الكلمة .

* * * * *

صاحبة المذكرات : فاطمة بنت محمد سعيد الديوي
1869 1958 م

كاتب المذكرات ، حفيد صاحبة المذكرات
الدكتور عدنان ابن القاضي محمد آق ييق

أحمد آغا آق ييق ، زوج فاطمة البديوي

1866 - 1929 م

القاصي محمد بن أحمد آغا ابق
ابن فاطمة الديوي صاحبة المذكرات

1904 - 1976 م

«فنجان قهوتك علي»

كان حذّي آغا حارة ، بيطلع بإيده كل شي .. وكان بي واحدة إسمها أم سعيد ،
وإحت أم سعيد قالت له : «دحكك يا آغا .. سعيد بدّهم ياحدوه عالسكرية .. بدّك تمدّ
لي ياه ، ومجان قهوتك علي!» . وتاني يوم ، إحت حوّا حاتم ، قامت أمي قالت لها :
«حدي يا حوّا حاتم هالصرة وعطيها لعمّي ، وقولي له هادا فجان قهوتك!» ..

قامت حوّا حاتم بطرت لحتى إحا ، فرّت بعدة وحاطة شوية بيّ بالصرة ، وقالت له :
«والله يا آغا ، والله مستحجة ومحجوبة .. تفصّل هدول!»

قام فرّذهم ، ويلاقي لك ياهر شوية بيّ ، وحسبها أم سعيد .. قام ركب فوقها ورل
فيها صرب فير يوحكك ، وكان قايم من اليوم مشمر ومكشّف ، ويقول لها . «يا صفتك يا
عنك . إيه أنا عاور فجان قهوتك؟» . وكان هو مستّي أم سعيد بالدقيقة

وقامت أمي طار عقبها وتقول له : «دحكك يا آغا .. عمّي هي حوّا حاتم مو أم سعيد

«!

بعدى حدى أبو أمي كان يسحب صلوات بالأموي ، قام صرب المدفع ، قال : «الله .. ما عدت ألحق أشرب !» . قامت طَحَّت⁽¹³⁶⁾ فيه المادنة لصحن الجامع لحتى شرب .
يقوا بيت السقا أمي كثير صاحب .

* * * * *

سوق مدحت باشا مأوى للكلاب !

وعمي صالح⁽¹³⁷⁾ كان بدو يشتري سوق مدحت باشا عالصمين ، قامت أخته قالت له : «شو بدك فيه ؟ هادا لسه بيصير مأوى للكلاب» . قام سمع كلامها وما اشتراه . ومّا مات ، كل ولد مدري كم ألف ليرة ذهب طلع له ، وراحوا ديّوهم لبست عمر باشا⁽¹³⁸⁾ ، أكلوهم عليهم .

عرس أمي

أمي لبة عرسها ، كان أبو خالد البديوي - الله يرحمه - كهنه وإختيار ، بقا باعت معه أبي أعراض للعرس ، قالوا : «إحنا العريس .. إحنا العريس ..» . شقّت أمي عيونها قامت لحنه وحسّته العريس ، قامت عمّصت عيونها وما عادت ترصى تفتحهم وبعدين لما فات أبي

(136) طَحّي : تعبّر عامّي دمشقي ، يعني أقعى وانخفض . أما أن «تَطَحّي» المذنّة ليشرب مَنْ عليها ، فهذه «تَخينة» زيادة ، ولعله كان رأى ذلك في منامه !

(137) أي والد زوجها ، صالح آغا آق بيق ، أبو أحمد . والكنة بالشام تتنادي حماها «عمّي» ، وحماها «مَرّت عمّي» ، أما الجيل الجديد اليوم فيؤثر على ذلك : عمّو وخالة .

(138) كنا لنتحاشى عن ذكر الأسماء ، غير أن ما بأيدينا ها وثيقة تاريخية ، تعهدنا ألا نحذف منها شيئاً ولا نحرف فيها قيد أنملة .

وقعد هو وبأها يحاكيها ما تردّ ، يقول لها ' «افتحي عيونك» . ما تردّ قام يبادي لأمها ، قامت شقّت عيوها ولقته غير هداك ، وأبي يقى حلو كثير . ركدت وراه وحرّته وما حلّته يطلع .

بلدة عرس أمي كانت كلها قصب صرمة⁽¹³⁹⁾ عروق عروق ، قعدت أمي وعمتي قصقصوه وعملوا لي ياها بدلات صعار على قدّي .. نبي صعار ما في حدا يتهم ويعلمهم .. يقوا يدقوا اللحم ، وقال هني ما تعم يدعلوها ويعطوها لقطاط .

الله يحيرنا من العين الصيّابة

ما كانت أمي حلى في . كاد في واحدة اسمها شرّوف ، بس يا لطيف يقولوا عنها عيها صيّابة وتنخرق مرقت عيهم وكانت حيلة وراحت وبعد منها مرقت بعد يوم مدري عشية ، وقالت لها : «قومي اولدي ، لإمتنا حاملة هالطر وقاعدة ؟» . قالوا لها : ولدت . قالت : «منين ولدت ؟ امارح ما كنت ولادة !» .

قامت اتعسّرت وصعفت على أثر الولادة ، وبعدين الحكماء قالوا لهم ' «ندكم ياها ولا ندكم الولاد ؟» . قالوا لهم : «لأ ، ندّا ياها» . ومن بعدها ما عادت حانت اولاد (140)

لما حُصّرت

والله الحمد الله ، ماضي عني أيام .. مرة حُصّرت وأمّي لسّاها صغيرة وما بتهمهم

(139) الصرّما كلمة تركية sarma مشتقة من فعل sarmak ، أي يلفّ ، يغلف . تُطلق على الجوخ الثمين المطرّز بخيوط ذهبية أو فضية . وكان هذا النوع من التطريز يستخدم لعمل كسوة الكعبة الشريفة ، أو لمعاطف كبار الضباط والحكام ، أو لأثواب العرس للنساء .

(140) من الواضح أنهم أجروا لها عملية استئصال للرحم ، بسبب وجود تليف أو التهاب ما .

بالأولاد ، وعمتي الله يرحمها كمان ما عرفوا يداووي . عَشَّشَت الحميرة بعبوي وصارت
تسيل .. ما حَلَّوْا كَحَال .. في واحدة يهودية بظالع القصة ، أحدث أربع نيرات ذهب وما
استعدت شي تاري هالسَّيل معشَّش .. وقتها أنا ورصا لك العاد

هيك لحتى بالأخير تقى أم عارف الله يرحمها ساكة بالسَّاحة والقاعة ، وبنت أهدبا
بيت رمصان مشهورين للعيون ، أجدوي لعددهم ، يا ويلي الله لا يدوقها لحد يا لطيف .
قعدوا أبو عارف ومن عندها رجال ، كل واحد مثل اللأطة واحد على رحتي وواحد على
يدي ، وفتحوا عيني بخاروها ويسحوا العرق بهالسَّارة ويقرطوا من سعله بالمقص قرط قرط
.. سعتعشر عرق حطَّوهم عالورقة ، وبجيووا بعدن هالمخ وهالليمون ويقطروا . وبعدين
يعطوه بالأخير لنواحد إبرة ويحطَّوه بعين الشمس ويقولوا له : الضُمَّها

وكان في حَسَنَحَاه على طريق الصالحية وفيها وردشان⁽¹⁴¹⁾ ، وكانوا مشقَّيت بيتا
بيت الإمام ، واس الإمام شعلته بالحسَنَاح . يا حدي لعدده يقلب لي هالمخ ويحك لي
بالحجرة اررقا ، ويسحني مثل العميا عالحره وأسح أسح على عيوي وأرحع .

وكان في حُكْمَا . سيم اليهودي ، وواحد يهودي بالقساطلية ، وأبو صالح شوري
بسوق القطر مواحه الحصيرية ، وراعب أهدبي [شوري] طلع إجري⁽¹⁴²⁾ .

وهادا يَلِّي بالقساطلية ، يَفْعَى آمتة ، أجدوي لعدده وشارطوه على أربع نيرات .. قلب
لي هالمخ وساوى لي عين . ووقَّف يقول لهم : «ما يساوي النابه لتعطوي كمالة الأربع
نيرات» .. وتغور أمني . لراحت تدبَّت من بيت شهيم وعطوه .

وبعدين سرقوي من أبي وأجدوي لبيت رمصان ، وفي إلما قرايين بيت فارس آعا
وماعيتي عن المي بعد ما قصَّوا لي السَّيل .. وكان في بالأوصة هَلِّي حطَّوي فيها شربة .

(141) وردشان اسم معروف لأهل دمشق في مطلع القرن العشرين ، وهو
طبيب نمساوي كان مقيماً بدمشق في أواخر العهد العثماني . أما الخسَنَاحَة
فكانت عند بَوَاية الصالحية .

(142) إَجْزِي (أو إَزْزِي) : صيدلاني بلهجة الشام القديمة ، مصدرها من
التركية : ecza أدوية .

الكأحت عليها هالسّمك ، حبّهم ليصلعوا وأمسك هالشربة وأكرع أكرع لأشع ، ورّحها ونام .

حطّوا لي درانيم عني بقرتي ، ما أقدر أتحرك لا هيك ولا هيك ، وبعدين قلعه وقشطوه بالموس هو والسّم ، وحطّوا لي ورق هالسلق ، ويقوا يقعوا قمع رمّاه حنوة وقمع رمّاه حمامة بحاسة ولد صغير ويكحّوا فيها العين ، لأن يقولوا : «نتحي عني بحاسة . وما نتروح إلا عني بحاسة» .. والله قصّيت كثير ، يقولوا : «يا ندرى من بعد الحدرى ، ويا عيون من بعد الحميرة» .

يقي برّكّي حسير على هالفرس ، ويسوق فيّ وياحدي على حارة اليهود ويكحلّ بي عيوي ، ويتلفّت عني ويقول لي : «أنا اس نس ، أنا اس نعم» ، يسخر قلبي⁽¹⁴³⁾

أمّي وستي وأمّ ستي

أمّي⁽¹⁴⁴⁾ أوقات تهزّ ، تروح لبيت أهلها أي شو نذّه يحاكرها ، يروح برّكّي على كتفه وياحدي .. ويقي النوات كل تنويّه وتنويّه بواة ، يدقّ هالوابة ويفتحوا له يصل للوابة الثانية . يده : «يا حارس» ، يفتحوا له حتى يصل عالبيت .. نبي يوم ستي تقول لها : «حطّيه يا ستي ، هالست يداوروها» ، حتى ترحع ويتصالحوا ..

ستي ما كان في مها ، ست محمد آغا الحصي ، وأمها ست السمّان وين بيت الحصني ، يقوا يحطّوا الحبة عني وشّ الحرة ، ويحطّوا بوسط مها عصاية ، ويحطّوا اعراض الخلاوة مشان الحح ، وتدقّ بوة المزاهر ، وتصير العصاية تغتل الحالها حتى تستوي الخلاوة

(143) حول طب العيون بدمشق آنذاك ، انظر ما سيرد بمذكرات الدكتور شاكر الخوري 1876 .

(144) وكان اسم أم فاطمة أمّنة السقا أميني ، توفيت في بدايات القرن العشرين .

(145) ويرفّقوا عالَاهل ، وبعصّوا بالسحاحير وياحدوها عالحح

كان أبي (146) صاحب حط كثير ، والله عشّيه لما يحي يكتّ المصاري بصيبية الأركيله
الكيرة .. كان بالأول عطار ، وبعدين قعد عمشيحة الحارة .

* * * * *

بيت آق بيق محلة تحت القناطر

كان بيتنا عتيق رمّة ، بعدين هذّوه وعمرّوه وطلع بيت لايق تحت القناطر ، نكر
ياحسرتي ما غنّوا فيه ، باعوه واشتروا بيت القنوت (147) . وصارت تليسة أنوك فيه .

تحت القناطر (148) تبقى بيوت راتة .. بيت الطرّقي ، بيت العادي ، بيت البارودي
، وهالّاح على هالصف بيت الإمام وبيت راشد ، مشقّبت منه حارة بيت الشرحجي ، كلّه
أكابر وكهّم مُسعين ، قاطع منه شويّه بيت الحسيبي وبيت الدلاّتي . حارة محشية حشي
كها أكار .

خالي عبد العني السقا أميني

خالي عبد العني شو كان فالخ ، تشوفه عين تراه عم يكرح ويركد ، اشترى سستان
الطبيحي والبركة وسستان الشا ، واشترى بيوت باعمارة والقنوت . نسّ يقي قد حاله

(145) قبل شويّ «طخت» المادنه ، قلنا : ماشي الحال .. بس كمان صارت هلق
العصايه تقتل لحالها وتطبخ حلاوة ؟ تخينة هيك كثير والله يا ستي !

(146) أبو فاطمة كان محمد سعيد أغا البديوي ، وليس لدينا تاريخ ولادته أو
وفاته .

(147) أي محمد بن أحمد أغا آق بيق . وقولها «باعوه» كان حوالي عام 1942
بعد أن رمّوه .

(148) تحت القناطر محلة كانت معروفة بين الخراب ومادبة الشحم ، بطرف
حي سيدي عامود .

نحيل ، قال بمص العسه والتفل يحطه بالحاية ، قال يساوه حلّ

* * * * *

في كان واحدة بيت حدي يسما أم عدو ، جانوها لعد أمي ، وكاست أمي حايه
حديد ، وعاشت عدنا وتحوّرت ، وأحدها مصري وإحاهها اولاد ، وأنا لما وعيت عالديا قول
لها «أحتي امه» . ونقى الله يرحمها تتحطّط بالشحار وتاكل السمك وتقرط حسكه ما
تقيمه .

سهرات الصيف

يقي بيتا يعلي عني ، والله من عد الباب لراس الديار يعرشوا العرشات ، العرشة
بحسب العرشة .. يقوا بالصيف ياموا بالديارات ، يمدّوا لهم هالسط وتحنهم عي يردّوهم
عبيهم حتى ما يتوسّحوا .. وفي تحت حشب كبير ، يعرشوا لأمي عليه ، ويقعدوا بهالعرشات
عشيّة وتبدأ السّير والقصص ، كثير شي طريف بالكثرة ، وبالأخص إذا كان في صو قمر
ويقي بيتا ما يحيى من الصيوف ، دوم يعلي علي .. حصّا بيت يوسف آعا ، أهل عمتك أم
ديب ، شو يحنّوا ويحنّهم ، والرحار بيت يوسف آعا دوم بيتهم يغلي علي ، يبقا لهم المعصّمية
ويحبّوا قافون عحه والله . والتايات يحوا لعدهم المعاصمة .

مرّة كانوا نايمين عدهم المعاصمة ، قاموا بهالليل ديه رمضان ، صار السّحور ، قامت
ميمونه حماته لأبو قاسم ، قامت بدها تسحرهم وبدها تموت لبيت المونة ، يبقا له باب من
المرّبع هلي نايمين فيه وفاتت على مهها طاعت الاعراض ، وقامت صرّ . ت (149)
وهي طاعة بالعتة ، قام واحد قال له للتاي : «قوم صار السّحور صرّب المدفع !» .

والله رمضان كان له رّة .. تشوف على هالسّحور يساوه حشاف برمان ، ويقعد

(149) كنا قد اعتذرنا في المقدّمة عن بعض الكليّات النّابية ، فعُذرنا تحت
باطنا ، وكل مين ذنبه على جنبه .. إيوه !

عمي أبو اسماعيل ياكل ويحكي سير ، ويبقى يصحك بطير هالحشاف من تمه وماحيره

يقعد أبي على نكرا يعني هالشاي ، ويحطوا هالقريشة وهالحسة وهالريتون ، ويحي أبو اسماعيل يحك بالساقط ، يحك ويحرك فيه الشاي بعدين ويصحك .

* * * * *

بقا لما يحوا يزوروا سات محمود باشا ، عندها أمي أمون قاعة وعليها حنية . تفتح باب القاعة عاجسية واحسية إها طابع مي . من كتر هالمتي تطع كريرة البر مشاط مشاط ، وتقي عاجيطان نارلة من عيوها . وروح لعددهم محوش وسبع لبعضا عروق ألماس ، يعني من كريرة البر . وسبع بهالديار «بشتكها»⁽¹⁵¹⁾ . بقعد نص قعدة ونمقش بإيديا ، وسط نعمل طميمة . حيلًا⁽¹⁵¹⁾

كانوا بيت يوسف آغا بصقاق البركة⁽¹⁵²⁾ .. أصالله بيت كبير ، وكانوا حسن آغا ومصطفى آغا وعلي آغا وحليل آغا بهالبيت كل واحد إه قرية . وكلهم وسواهم بالبيت وكلهم عني فرد قلب .. حصا ميمونة الله يرحمها ووسية مرت تو وامنة مرت الديري وحسية وعاتكة وعليها وحس .. بقوا يحطوا سوا مريم وحسية ومروة ، ويحي حليل آغا بقعد على هالتحت أارص الديار ويرق عليهم الكره .

بيت العابد

وبيت العابد .. يبقى عبد العبي باشا ورصا بك وحاند ورشدي اولاد محمود باشا . ما صمي منهم حدا غير رصا بك . كلهم راحوا ، أصالله هديك الإيامات .. محمود باشا يبقى له محارة بيضة عالية ويركها وحدام يركد وراه ، واولاده كلهم حج .

(150) بشتكها : كلمة لا معنى لها ، مجرد تنغيم لفظي ، مثلها مثل هشتك بشتك

(151) حي الله : كناية عامية تعني : لا على التعيين .

(152) زقاق البركة حي في محلة السويقة اخذ إلى سوق باب السريجة ، وقربه زقاق حطاب .

مصطفى بك كان عند السطان ، وبیت العابد كانوا كلهم القایمقام والمتصرف ..
يقولوا وقتها الدولة كلها لبیت العابد .. هته يوطموا وهته يعرلوا ، وهته الكل ناكل ..

حادثة جوزي أحمد آغا آقبيق

حدك الله یرحمه عاش حیاته بعداب رحله .. كان فی النخندة عرس أبو عبدو عراله ،
وكان حدك صغیر .. انعموا عالعرس وطبعوا ، وكان صغیر وحبو ولابس هالقصب ، وفی
واحدة بیت الختوي عیها العیلة بتصب .. كله من الله .. قوصوا حاجة فانت نقلت السیاح
، إحا نده بکشمها بطالعها ، دایر الزباد ناح رحیه علق الزباد بالعیق قام طلع علی رحلیه
وشعلت قواعیه طفوا له قواعیه ، وحاوا بجل ، حطوا هیک حیشة تن وهیک حیشة تن
وبرلوه عالشام .

وما كان حکما مثل هلا تفهم .. كان دیب الساطی الله یرحمه داوی له باها ، ولكن
صل حردق من حوا .. الملح طبع وعصام رحلیه مع متو .. هیک صرة . وشو طالعوا نارود ،
یقوا یدکوا الحفت بارود وحردق وحدید وحردق ، وکله طبع عی رحیه .

وعاش حیاته کلها بعداب رحله ، وأحوه قاسم راح بالرعة .. حرقت نقله وراح فیها
.. اصاب بمرص القلب ، والله كان قاسم وقاسم قاسم أمیدی يشتعل بالسرایا ، یعنی
الأتین تشرکوا بهالعرس . شو حیاته حدك ، لولا ما جسمه قوي ، صفت رحیه عی طاق
البحم . بی عالسلاح ، والله الواحد عمره ما یقرّب عالسلاح !

وقائع عائلية

قاسم أمیدی حنف سعیدة وعبد القادر أبو قاسم وأبور ومحمدین
وأسعد ، وسعیدة أحدها بیت الرّی . وقت مات قاسم صلت مرته أم عبد القادر ببیت
حماها ، ویقی قاسم أمیدی عریر عالعیلة ، وحدك كان صغیر فانوا فیہ : «أحوک ومرت
أحوک وأولاد أحوک !» . بعدین عصوه وکتبوا کتابه

عبيها . وليلة العرس هرب وسكر عدد أم عارف ، حابوه ورتبوه بالمصري . ناعلة ، مو ممكن .

وكانوا حاكبين في وبعدين نطّلوا ، ولكن حطّوا عبيا وأحدوي وقت أحدوي ، عمّي نكلوه من البيت .. (تنقى أم عبد القادر مرت حدك عمّي) .. واستأجروا ها بيت بالقنوت بالتعديل ، كل يوم يا حد هم طيح . وبعدين اتفقوا وقعدا سوا ، وتنقى بسيطة وقبها صيف . ولكن بعدين تركها ما صار له قلب يحطّها ويقعد وكانت مرت أحوه .. لكن ضيّبا قاعدين سوا لحتى ماتت

يوم عرس عسي

وقت عرسي⁽¹⁵³⁾ صاروا يتماتلوا فيه ، يقولوا : «متل عرس بيت آقبق» ، وعمّي ما بدّو يحيب وقتها معاني ، قاموا توسطوا بيت اليوسف وقالوله : «يا أحيي إيت كم صبي عندك ؟» .. وعتوا حير لسعدة ورورة ، وتبقى الحرشوقة شينهم اسمها ليبي ست أنو قفة . صص الليل تقوم تخرّج وتقول : «يامو بدّي بانه» ..

والمداعي يقعدوا على تحوت ، وان كان في سمة ولا رد ولا مطر يحيموا البيت ، ويقولوا المداعي كل طعة بطفتها تحيب مشكاك قناقيب يربطوه بالحلة . يلسوا بالعرس قناقيب شبروية .

والعروس يموّتوها على مخدع ، ويعمّصوا لها عيوها ويدوروها وشها عالقرنة . هلي بدّو يشوفها بعوت يكشف على وشها ويقول : «حصّنتك بالله» . وقل ماتفوت ، واحدة تشحها الكندرة ، وواحدة تحملها السّرة ، وهيك كل واحدة إلها بحشيش . وتقوم واحدة نمسك محرمة وتلمّ هالألمات من هالمداعي .

(153) كان العرس في عام 1886 ، وكان عمر العريس أحمد 20 عاماً ، والعروس فاطمة 17 .

ويحيوا هالعدرة ويعندروها ، ويشكّوا لها هالألماس عى هالشّقة⁽¹⁵⁴⁾ ، ويحشوا لها صمايرها صميرتين لقدام ، وصدرها يعنّو ألماس . ويحيوا هانذكية حمرة وعيها عروق ذهب ، ويلتسوها قناب مذهب ، ويوقفوا قرايب العريس ويمسكوا معاها الشمع ، ويصرحوا : «أوها .. أوها» ، ليحي العريس . ويقدموا للاح العريس ويطرقوا راسو براسها ، ويفوتوا يعدّوا .

ويحوا هالمعالي ويمدّوا محرمة قدامهم ويمسكوا هاندعوف ويوصفوا . «اسم الله اسم الله يا رية» .. ونحي هلي عليها نقوطات ، ويشتلل ورّ المصاري كلّ مو على مقداره ، لتقبب المحرمة هالقّد ، ويصنّوا هاحرمة ويأحدوها ويقعدوا هالمعالي عاتحت ويقسموها .

تبقى أسما السوية حوق ، وسعدى ورورة حوق ومعهم ليلي بنت أبو فقة ، والحونة حوق ، وأيسة ست حلالة حوق ، والكرورة حوق .. وأيسة إله رشّ ذهب إله شكله من هالكف هالكف ، وكان يحبّ البكري ، وعيوها ما شتمهم على حدا ، وتوقّف تدك وهالرشّ يعمل «حش حش» .

والعريس حوته وحده .. أهل العريس وحدهم ، وأهل العروس وحدهم ، وهالنقوطات عم تنتحش وأول ما يفوت العريس يرلعطوا له ويقولوا «أوها ، ارفع راسك واقشعها .. أوها ، قبل ما تفتح محمها أوها ، إن كان ما عجبك . أوها ، ليت أبوها رجّعها ..!»

* * * * *

كل ما يحي أي لعندي يبقى معي هالحبيب .. يبقى لي ناموسية كبيرة من صدر القاعة لساب ، يوقف قدام الناموسية ويمص من حبيه ويزت على صهرها البردقان ، اكسّنا ، السح ..

وكانوا إن طبحوا حليب يسكبوا لي رندية هالأدّ ، كل يوم ما تحرم السكية .

(154) الشّبة كلمة تركية : sapka ، تعني : القبعة ، غطاء الرأس .

أيام المشمش يحبوا هالقطاوية الكيرة ملانه ، و يحطوها بأرض الديار ، و يحطوا
هالصحون و يحطوا هالمشمش هالصحون يخلص صف يطع
صف ، هيك لحتى تحصل .

شو كنت أتغدر ا

«واه الواه» شو كنت أتغدر ، حطّ هالكحلة و هالخطوط ، و حطّ
التشكيل على راسي ، و شعري كنت إكعي فيه لما روح عالحمّام ، و كنت إتشكّل بالياسمين .
ابقى روح لعد هالتخار ناح حان الحماسة ، أخذ هالملايا انصب على
أبي ، و فوط الحمّام كلها قصب أحد و امشي . صاحب سعد أبي من صعره قل مشيخة الحارة
، والله يبقى يعبّي الذهب و يعدّهم بالصواني

والله الصابون هني يحبه عمّي صالح أعما ما شفت بعد هالصابون ، هني هالقد و طعته
هيك و روايح مسك . يحب السحارة ، و يحطوا لي سمّ ، و داير ما قتل القاعة في حقة .
ياولوي الصابون صفّها على هالحقة ، و حتّي ين الصف و الصف فاصي حتى يحي عيه هوا

عزائم الفياحة

كل يوم يندق الباب .. مين ؟ إحت الفياحة .. عندهم عرس .. يحبوا حمال الخطب
حملين ثلاثه ، و يروحوا هالسوان عالسوق ينصّعوا و يتحّروا . كل يوم بطح لهم مجذرة
و ماسف ، يقعدوا بأرض الديار و يصفّوا ، هيك صف رحال و هيك صف رحال . و بعد ما
يقوموا عن الأكل بمسكوا دبكة . ولما يبطّوا البطّة يصل راسهم لسانحة . و يقولوا : «دارت
أبو أحمد يا دار .. دايماً اليوم تضلّ عمار .. بوجود الأفديّة ، دوم يميلك زوّار» .

كانت مريم للطح و رحوماً لأوص العلاّحين ، و السّام بقي عالوادة ، يوم العيد يحي
يدبح الخوايف عنا بالبراني من سة لسة ، مدرّي أدّيش يا حد الليرات الذهب ، و يبقى اسمه

«كله راح بعزقة»

والله كان عندي بيوت كثير ودكاكين .. بيت بصفاق الرعل⁽¹⁵⁵⁾ ، ودكان بالبرورية ، ودكان بسوق الحما ، وحصّة بالدّرحية ، وحصّة بخوية ، وحصّة بسحبة ، وحنية حاد راده ، آحيو والله حتف لي كثير ألي ، كله راح بعزقة يا حرام الشوم واولاد عمي لو كان صحيح صاين يدهم كان عندهم شي كثير .

كان ابن عمي أبو فايز يركب هالعرس ويشكل هالكرباح بالخرمة ، وفلاحين ناعين وراه .. وبلاّ عنى هالصبيع .. كان هو ماسك صبع ألي ، وما يتزل يكون معني المرحين تبع العرس ذهب .. يكتوهم بأرض القاعة ويعتوهم بانطاسة .

الفحم زمان أول

رمان أول ما كان في صوبيات .. كان في فحم مو متل هالأ .. حصّر المنقل قيم صفوته وأصمر كل طمّرة هالأّد ، وحب هالطمّرة وخطّ فوق هالطمرات وعود عمره . وخطّ هاندقّ ويشعل اسفل نلاقي الهابيل الررقا صالعة . بعد ما يقطع قوته على هالمدح ، يقعد لتالي يوم ، يروح الوشالي بحمر على تالي طمرة .

يقي عنّا بيت الموبه في تتحيتة عالية وتحت منها فاصي ، عبي فيه الفحم ، وعالتتحيتة صفّ الخطب ، تمّ صفّ الخطب حتى يصل لسقف الأوضة . حطبة حطبة أترسه لسقف .

والله يبقى حير كثير ، اصأله .. بحب هالصبيبة وخطّ هالفحم بالمطح ، وساوي

(155) من أزقة الشاغور المعروفة ، ومنه حماتي السيدة رجاء تسابحي ، طيّب الله أيامها .

كفاة اسمها «المسولة» حليب وقطر .. حطّ هاخليب بصشطش ، وحطّ فوقه قطر وبعدين حليب ، ثلاث أربع مرّات . ونّا يستوي الطرف التحتاني أرفعها على كرسيين قش وأطرقها باخيط حتى تتحلج وأعرف استوت .. طبّ فوقها صيبة رَحَر وأقبتها ..

حياتي اليومية

أقعد مالميل وحطّ هالميّ ، ودقّر باب الحريم من حويّ ليزل عميّ حدة وأنواق عى هالطوق عبي عليها .. إسه لي سهوة ، وقوم قول لحالي : تأحرت . وقت يطلعوا بالتراحيم كون بأول وقت يأدبوا الصبح كون بالمشرقة عم أنشر العسيل .

وقوم عى بكرة بكّر أطع على هاليأخر⁽¹⁵⁶⁾ ، ساوي هالفرشة تنع الذواب ، وحب هالسطل وصبّفا وعسلها وحسّها بالحسّة والكبرة ، ومسح لها عيوها وأعقد ها ديلها .

والسحّاد مذّه مالندير ، وأنزل فيه فرك مالمطاسة عى قماها ، وبعدين قش وراه . تلاقى هالقدّ العبرة

حير كثير كان ، والله السّمة وقت أعنيها وعيّها بالتشكات تلاقى ريحتها مثل المسك . وأبقى صولّ القمح وكومه عى سمّاط الليوان حتى يشف ، وأبدره بمشرقة هالعمو ، نزلّه من هالمشرقة وحطّه مالكدوش

واهلواه شو كنت شاطرة ، والله عمّتك مسرة⁽¹⁵⁷⁾ كانت حتزل ورا الطّق ، عم أطلق وأنا عم أعسل تقول لي مرت عمّي حسية ، الله يرحمها ، وقت كما سوا : «والله شتهي تقعد لي لك شوية قدامي» .. اصأله ، نفى متبّة تقعد عى هالتحت وتخطّ هالأركبة

(156) الياخر : كلمة فارسية الأصل ، تعني حظيرة الخيل والذواب الملحقة بالدار العربية .

(157) يعنى ابنتها مسرة أق بيق ، ولدت حوالى 1898 ، وتوفيت إلى رحمة الله في عام 1979 .

حبالس وصبارة وملبس

يعتوا لنا من حاكورة المتن الحبالس ، الصبارة ، أشكال ألوان .. أيام الحبالس حبالس ، أيام الصبارة صبارة ، والله عبيها بالطق ..

ووقت يقرأ الموند شيت البي ، الله مصني علمه ، لتولي تبع الأموي بيعت حدك اتعشر صرة ملبس . يقوم حدك شو بدّه بيعت له قيصها ، يساوي له كشك الفقرا ، لكن شو كشك فقرا ' يجيب المور ، يدقوه يدقوه ويعمموه ، ويحصوه شاشية ويستحبوه باحليب ، ويحطّوا له عطر الورد وفستق ولوز وهور هند ، ويحطّوه على وش الرّبادي كب كب . يقوا بت آق بيق (158) كثير كثير حج .

* * * * *

(158) الكنية تركية : Ak-biyik ، معناها : ذو الشوارب البيض . أطلقت على جذ العائلة في القرن الخامس عشر ، وهو متصوّف مشهور في مدينة بورصة تؤثر عنه حكم ، منها : «الدنيا مزرعة الآخرة» ، وكان من مريديه السلطان محمد الفاتح نفسه . ويروى أن الشيخ آق بيق دده Ak-biyik dede ، كما كان يدعى بالتركية ، بشر السلطان بفتح القسطنطينية ليلة 29 أيار 1453 م ، فتّم له ذلك الفتح العظيم ، وعاد فقبل يد الشيخ . هذا وقد هاجر فرع من العائلة إلى دمشق في القرن الثامن عشر ، وبقي بها إلى اليوم .

مصطفى أفندي آقبيق

يقعد مصطفى أفندي أبو ابن عمك صبحي حور أحتك ، عني هالليوار ونصف قدامه
، ولا حدا يسترحي بخرّك قدامه ، أول ما حدا يبس يقول له : بعست ؟ يقول له : لأ .
قاعدين !

وأم عند القادر مرّة بالطاهر - عصب عنها - «رقرقت» قدامه ، قم

حكى سيرة : كنت سهران ، ومدري شو ، لحتى حاب مناسبة وقال : «واخمار صر .
!« .

وأولاده هالأ كهم طراف . سارة وراهية وصحي طريف (159) . بس
بيته كان عسر ، مرتب ومرسم ، لكن حمو وأكائري ، والعسكرية عاطبها استحقاقها ،
هالسيف وهالترتيب وهالبيتين

الفريق مصطفى باشا آق بيق بالداس العسكري من ذكرياتي

وين هديك الأيام .. كنت بالحديدة أقعد بالشناك عدد عشية ، وتلاقي على طرف
النهر هلي عم يعتي ، وهتي عم يعسل ، وهتي عم يحكي ، وهتي عم يعسل حاروه .. شي
بيستي .

(159) وأبناء مصطفى أفندي هؤلاء كانوا من زوجته الدمشقية من آل الجبان .
وقبلها كانت له زوجة أخرى في تركيا ، وله منها أولاد ، منهم الفريق
عدنان وعاصم باشا آق بيق .

ووين بيت أبو بلال ، تلاقي يساواو لنا هالعريم ويعملوا جهدهم
الحبيب ، البيض المنسلوق ، الشاكركية (ويقولوا ها : لن أمه) . تقى الحديدة شو ندي قول
لك ، كل يوم يطع منها ميتين حيال صيوف ، وينات فيها ميتين خيال صيوف .

كان ندي تنمرّح يوم إحا الحراد .. تلاقي الساوين سارحة ، هني
حاملة العصاية ، وهني حاملة التكة ، وهني حاملة الطشت ، ويقفروا عيها ويصرحوا :
«يلا على الحراد .. يلا على الحراد !» . وتلاقي السما مؤ مبيّة .

بالحديدة قوم على بكرأ بكير . ما يكون حدا قام ، قشّ قذام هالنوابة وكسّ المصطبة
.. وحصرّ دولات القهوة والأراكيل ، وعني هاخرة من المهر يكون رايق .. يمرّ حدك يقعد
على المصطبة ، ويجوا بقا أبو الخود وأبو حس وحس الدنا

يتزل حدك عالشام بكير وقت يحجه الصوّ ، وقريب العصر ما إسمع إلا عم تصل
المرس ، وأركد أفتح النوابة وأسدها ، ويعوت بالمهرس وهاخرج تحته متنع محشي حشي .

يقفوا بالحديدة يركبوا العريس عالمرس ، ويجطّوا حب الفصة والقصب ويددشوها
مثل العروس ، ويركبوا هالعريس ويدوروا بالبلد هانطل وهالزمر .

* * * * *

وقت كنّا نحان الشيخ

وقت كنّا نحان الشيخ ، كما من المغرب نسكّر هالنوابة . ومرة عرب
حطّوا بحس المهر ، قاموا إحوا كسارة (قطاعين الطريق) بدّهم يفتكوا إخمال ويأحدوها .
وبهالليل ما تسمع إلا قواص ، وطلعوا فلاحين حان الشيخ من عالأساطيح يصرنوا . وقم
حدك وعمك يركبوا هاخليل ، وتسلّحوا وطلعوا من هالنوابة وعاروا على الكسارة وهرتوهم ،
وجرحوا واحد منهم وأحدوا فرسه ، وطعنت فرسه سارقها من رما .

مرة راعين بالسحرة بحان الشّيح سحرة طّيح ، لكن شي كبيرة ، بقا عمك صالح واقف عليها ، ونقا واحد عسكري حدرمة في محابيس أحدهم يوذّهم لقطا ، وراكب فرس ومسح . ولما مرق لحش حكّي لسوان وعمك واقف ، قام سه . ولما سه صار يعدّ لورا ويعور عليه ويقوّص بالممارتية ، تلاقي العبر يعحّ عحّ وعمك يستي يقرب لعهده وما يهر ، وكان ولد صغير ويتزل فيه بالحجار ، وبعدين بطّ عليه ورثه عن الفرس وحلّسه السيّف وبارودة وبرل يوشّه بالحجر ، كان حيموته ، وقاموا المحابيس هربوا .

وهذاك نزل عائشام اشتكى ، وكان وقتها رستان بك يورباشي حدرمة ، وراح حدك وقتها وحكى لاس اليوسف⁽¹⁶⁰⁾ ، ورستان بك اشتعل له كثير حتى ناه منها . وكانوا إحوا لهيبك تحاوصوا عالجوش وبذّهم يقطوه ، ما قدروا له ركّ هالفرس وهرب .

«أرض جونية مسكونة . يا لطيف !»

حدك قال لما بطلع عالصبة ويمشي بأراضي حوبه . وتقى مسكونة ، يصبروا يعبوا له برحله ، ورحبه بالركانات ، ويمشي ما يقطع بعفه . وعمّ أبي حسين آغا يروح على بيت حس ، وكانت مقطعة ، ويروح حاطط السلاح وما يهّمه شي .

«الله يصلحه جدك»

مرة في حيرانا بيت ديب بصري ، وإلهم قماري عافقاعة ، ومرة سمعت حسّ عوشة

(160) يعني عبد الرحمن باشا اليوسف ، محافظ الحجّ الشامي وأكبر المتنفذين في ولاية دمشق بأواخر العهد العثماني ، على دور السلطان عبد الحميد والإتحاديين . ذكرناه في بحثنا :

"The Role of Leading Kurdish Families in Urban Politics of Late Ottoman Damascus, 1807-1918 "

وشوايش ، جايين رسمية ست شيخ المكارية عم تعني وترقص وتفقس ، وسمعت صوت حدك الله يرحمه ، وأنا أتلفلعل ويعفور قبي شو بدني ساوي .. رحت في ست عمتي عندها قاعة ، وبالصدر في ليوان ومكومة فيه الفرش والسقف لسقف ، ورحت أنا تحيت ورا هالفرش ، طسوي وإحوا

ما كانوا يلافوني ويسوروا يدوروا . بالأخير قالوا لمريم : «قومي شوي عند أهلك؟» . قمت أنا لما لقيت مريم حتروح طعت .

أضربت ، حدك يروح يسهر ، من حوفي من عمي قوم دقر علي الباب ، يحي يدهش الباب يقول : «إحأ أحمد الله يرصى عليه !» ، وهو وين ، يكون سهران .

يحي حدك شربان هالليل ، يبقى طافين ، وراكب الفرس يا حدها ، يبقى على طرف الحارة تباع حليب على حلة هالخليل المهلبية .. ويقول ها : اشربي ! وصاحبها يخاف منه ، يهرب ويروح لأبي يقول له . «دحيلك ، هذا صهرك» يحي أبي لحدك يقول له : «والله استحي وشي من العام» . يقول «مو أنا يا آغا ، هذا شريك» (يعني الشراب) .

بعدين أضربت ، تاب واتمشيح كثير الله يرحمه ، وراح عالجح . وحج وراح هو وأمي ، قعدوا ساخرة هو عيبة وهي عيبة ، وراحوا حقا .

كان وقتها سعيد باشا (161) - الله يرحمه - باش الحبح ، كل ما مرق يقول له حدك : «إيش يا ؟» .. تقول له أمي . «يا ويبي ، شا مثل هادا يقال نه إيش يا ؟» . يقوم بحد ويترل ، تميل البخارة ، يركد اس الشواي يحلسها .

الحبح الشامي

(161) أي محمد سعيد باشا شمدن ، محافظ الحبح (1870-1892 م) . وكان جد عبد الرحمن باشا اليوسف - المذكور أعلاه - لأمه . أما اليوسف فتولي الحبح بين 1892-1918 م .

يقولوا الحق يساويوا له رنة كبيرة . يوم يطلع الحمل لا يتم أسطوح بالدرويشية ، كل
الدكاكين يكرؤهم .. الشايبك ، الأسطحة ، كلها ثلاثة .. تقعد هالعالم ويصرب المدفع ،
ومّا يصرب المدفع ياخذوا الحمل عالسحققدار ويصلّوا عليه ، تقى امشيرية ، يخطّوا السحق
هيبك . والشمع يلقوه بالشال ، يطالعوه من بيت الطرري بصقاق المبلط ، ويحملوه رمتين من
كتف لكتف ، ويقولوا : طلع !

وتطوش هالعالم وتطرق هالمريكة ، وورا هالمريكة تحي الحيل ، تلاقى الحيل عم ترقص
رقص . تلاقى اليورناشي ، البيباشي ، على اكتافهم عم يمع القصب ورايز الصوف ،
والياورات . مشقيت مهم تلاقى الحيل عم ترقص رقص ، هيك بيصل الحمل .

ويصل ويحي ورا الحيل ، وقدام مه اولاد العبي الحصري ، يلسوا أبيض وحبات حصر
، ويقولوا : الله أكبر .. الله أكبر . ويقى الحملحي قاعد حوا ومادد راسه ، واجمل عم يمع
، وهالرش العصّة مدندش دندشة .

ويعرق هالحمل وراه تحت الباشا عالعال ، هالعال حاطين لهم هالأحمر ، وبعدين يحي
أبو حلاوة ، وهالعقيل فوقهم نعلت بعصهم وبارين هالطنول وعم يشوبروا ، وورا العقيل
هالعرابات وهالعالم هيك لعنّاي ، وعد العنّاي ينسوا الحمل التوب الأخصر
كانوا يروحوا عانحايير مفردة ومخورة . ووقت يصل الحمل لشباك سعد الدين بالميدان
يوقف ويعنع ، يطعوا بعصوه دعنولة لور وسكّر ، ياكلها ويمشي .
ووقت يحي الحح ، وقت يصل لمزيريب ، تطلع الحردة ويلاقوا للححية ويرجعوا معهم

ما أحلى أيام العيد !

وقت الاعباد يقى بقرنة القنوت في فصولة تنقى فيها قلاّنة ، وقدام التعديل بحارة دوم
ملانة اولاد ، ويسحب صاحبها هالحمل . والقلاّنة قاعدين هالقلاّنة وعم يقولوا : «يا

صاحب القلابة ، مرتك الطلابة . ويصاحب المحارة ، مرتك الحماراة .. ويا صاحب المرحوحة ، مرتك الشرشوحة» ..

وحببة حان راده ، آ حيو ، بالعيد يعموا فيها تحت ، وتلاقي هالعالم بمالتحت ، الدرنة والدف وبياع الكعك وبياع المحل .. تشوف العام عم تعلي علي .

وقت القلابة تنطع ما بيهم ، ووقت تنقلب وتفتل يلحش القلب بي ييه مصارتي روحهم بالقلابة ، دورتي ثلثة ، ويقولوا : عوقت . وفي اولاد ما نرصى تنزل ، تجدد .. وبسوق القطر عربايات ياحدوهم ويحيوهم ، وبترة الدرويشية مشقيت السليك (162) كان يشتعل كراكور .

(162) البيليك كلمة تركية beylik ، وهي دار السعادة بأول سوق الحميدية ، كانت منزلاً لولاية دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ، إلى أن عمّر الوالي كنج يوسف باشا سرايته .

اصأالله زمان الحمام

اصأالله زمان الحماميم ، وقت اللفسا بقى نساوي حداد ، من جميع السهارات ، ندقها وسحلها وبروح عالحمام . ويوم حمام المسح يفسسوا ثلاث أربع بيضات ويدهنوا لها بدنها .

ويوم الأربعين الحداد تحي اللآة ترش لها كل بدنها حتى يصير كل بدنها ، وبعدين تحط ها دنوك عى وشها ، وهلى حاصرين ويمركوا ها ياه ، تتم قاعدة حتى تعرق .. كل نعمة يمركوا لها بدنها ، وتحى هاللآة تاحدها عى حرن الحمام وتنشف لها بدنها .

بقى الحمام إلو أهمية .. روح عاحمام نعت اللآة تحمل لنا هالنقح وتسقنا ، وما تشوف نأرص هالحمام إلا قشر الكرب وقشر الخور ونقى أمي قبل يوم تساوي كشكة حصرة ، ونقى روح عى حمام عرّ الدين ، وما أطيب الكشكة الحصرة بحالحمام ، ساوبها ومحصها بالزبدية والرمّان الحلو والخور أشكال أنواع

بقا مريم الله يرحمها تعسسا ، بقالها كل رّ هالأد⁽¹⁶³⁾ ، ونحطّا إدامها ويلها كرسي
محصوص ومقصورة ما حدا يسترحي يقرب ناحها ولّا تسحس المي
تده : «عطوسة ، ناردة !» .. ونحطّا إدام مها ، ومّا تعمل هيك براسا تفركه فرك ،
وتده لعطوسة تفوت عطوسة تفرّكما .

ما كان في حماميم بالبيوت ، والله هالحماميم بالبيوت طلعت حلوة ..
شو ، قوموا اتعوا هالفتح وروحوا . بروح نحا بالأكثر على حمام الرئيس ، أهلي عبي حمام
القاطر ، وبتلة صقاق رامي كان في حمام الصغير اصالله أكل الكرنب شو ما أطييه بالحمام
، عسك الراس من دسه ونطشه عالأرض يروح .. يعني كل شهر حمام .

حدّوح الداية الله يرحمها شو كانت مبيحة ، دوم ألدّ على ركبها والله أبي يوم أطلق
يمح النار مشان تسحير المي . وساوي تعطيسة .. يمدّوا لي حصيرة بأرص الديار وطراحة
وقت أطلق ، وفوت عالجريم وسكّر عنيّ وأنسطح عني حقة المرتع وأترمع ويتأقوا عليّ .
الله يجعل عملنا مبيح ، ما حدا بقيان ..

راح لي ثلاث ولاد ا

وين .. أنا راح لي محمود وحيهان ورهرة ورّيا أم ميرة ، وطرح بعيون الشيطان حمسة
شو حيهان مثل الياسمين .. حوة كست أعمل ها صفاير ، وعملت لها سفدهم حواريج حمر
وتقعد بكتية البيوان ، وتقى قرطلة
وتقول : «لروح عالعة وأكتنها» .. عمرها ثلاث سنين ، طبعها عالحديدة وسكنا بأحر البلد
، وفي بب الحناوي بحس هني سكنا عندها أم أحمد ، وهني بيت احتاوي عيها صيانة ، قامت
بصرت الولدين وتكرفتوا هالاولاد ، وبرلنا من الحديدة بين الولد والولد عشرين يوم .. محمود
ومحمود مثل الحاروف ، وزهرة يد شا الله فاهها معها .. آه ، إن شا الله للاقبهم بالحنة⁽¹⁶⁴⁾ .

(163) قلنا سنترك العبارات على وضعها دون تحريف ، فعذراً !
(164) لا زالت تطفر اللوعة من كلمات الأم التكلّي على صحائفنا هذه ، بعد

حيهان كنت عم إعمل ، وعاطيتها كم ملّسة وهي قاعدة . وما لقيتها إلا نوت رقتها وسلّمتها ، ولسّاتها كامشة المنّسات بإيدها (165).

ووقت صععت رهرة ، أضرت ، شفت حالي راکة بعراية ، وولد على رکتني .. بحس تلوت يدي ، وقتت العربية وقالوا لي : قومي اعسلي إيدك . وأسمع صوت ولد عم يکي سستان ، وأطّش أبو لافي شي طريق ما كنت لافي أصل ها ..

وقت نوّقت حيهان ، شفت حالي متل كأبي نقصر ، ولقيت روش طلعت عليه ، وعيه حهان ووشها محلّ برحكة قص ووشها عم يشعل شعل

ووقت كانوا حيهان ومحمود صغفا ، شفت حالي قاعدة عى حقة المربع ، وما لقيت إلا واحد فانت سفة بيصة وهالولاد مسطحين ، وقال لي : هلا نريدي هاد والّا هاد ؟ .. وأنا ما كنت أسحي بهاد ولا بهاد .

الله يعيسا عليها ، يا حصرتي عيسا ، يحطّوا اللالطة فوقنا ويمشوا ويقولونوا أنه تنسسا الروح . وسرفع راسا بطرق باللالطة ويقول : «الله ! شو متنا ؟» . ويحوا بقا بيحاسونا . هلي من أهل الحنة يسألوه مين ربك ، مين سيك .. بيعرف . وهلي من أهل البار يا لطيف يقول : «ها ؟ ها ؟ ما ادري» . يا حصرتي عيسا ، الله يجعها عاليمان .

طهور ابني محمد

أبوك يوم ما تطهر (166) طالعه علمربع . كان مربع ورر باب الصفاق ، فوّته وسطحوه حوا ، وعلق برقتي وما عاد يترکي ويقول : يامو يا يامو ، ويرحف

وفاة أولادها بقرابة القرن ، ووفاتها هي ب 44 عاماً .
(165) كم هو مؤلم وجارح هذا الوصف .. الله لا يورجيهما لحدا . وكانت وفاتها بالحميرة .

(166) كقولة الكناية الشامية : من أيام طهور جدّي ! فهذا هو طهور جدّي محمد اق بيق .

ووقت عمك ندهم يطهروه كان ديب الساطي موحود ، وحادوه على أوصة العلاحي
سيت حدك ، ومن غير دراني ، وكانوا قواعيه وسحين ورحيه وسحين ، وحالة .. وفوتوه
وطهروه وطالعوه ومالي دريابة .

وقت الطهور ندهم يطهروا ولد يحيوا حيل ، يركوه على هالعرس وقدام مها
هالمرعحية ، ويحطوا له الألماس عالطربوش ويحيوا له برنجكة حمرة ويحطوها على وشه ،
ويبسوه بنوح قصص ، وسعيد مصي عاسي قدامه
يقول : قلب العامر يصلي عالي و هالعراصات ولعب السيف والترس

وياحدوه ويوروه سيدنا يحي ، وياحدوه على هالنيت يعيروا له قواعيه ويلبسوه قواعي
الطهور البيصا ، ويحطوا هالسفر وتاكل الناس . وبعدين يصالعه ويصهروه ، ومن عياط الناس
.. «نير وعصير ، وصلوا على محمد» .. ما تسمع نكا الولد .

جوازة ابني محمد ودراسته

كان ندي تشوف التليسة هي صارت لأنوك .. بيوت الأكاير كلها اجتمعت ،
وأحدوه لبسوه ورل صافحهم كنهم وبوسوه ، وأمك ⁽¹⁶⁷⁾ حابوها برماية ، ومروقين
الشنايك واخيل بشرابط زهر وتشاكيل .. برلوا ، وقف أبو ممدوح عمك جنبها وفوتها ،
ومدوا لها قدامها ليايات سجاد . وكان عتا اليواخر الرائي ساووا الأكل وحطوه بهاليواخر ،
العايت والطالع والدريية وبتروا من عالأساطيح ياكوا وبطلعوا . والله الصرة هلي حابوا لها
ياها وقتها ، وعطتها أمك نعمتك عدلا ، وفيها من حبيع ما تطبه النفس .

حطينا أنوك بالإعدادية بيروت ، يقوا الواحد يحطوه بالإعدادية ويطبع منها صابط ،
وبعدين يصير . وأبوك نو صلت كان هلا يوزياشي ساشي ، الله أعلم .. بقى يقعد ، انشا

(167) هي إنعام بنت خليل آق بيق القباني (1908-1960) ، حفيدة أحمد أبي
خليل القباني ، وأما رنيقة السادات (توفيت عن 31 سنة) . وتزوجت عام
1920 ، وهي جدتي لأمي .

الله العمر إله ، عند عر الدين سلف أم ياسين بيروت ، يحطّه بالأوصة لحاله ويروح هو يسهر ،
ولمّا يطلعوا الأولاد يطلع أبوك يدقّ لهم بالمريرة .

أول الكل حطّياه عند ححا أيوس بحارتنا ، قام يوم الواحد تعوّق ما كان يحيى وبه
؟ وبه ؟ بعدين رحا لقيناه ورا الباب عم يبيكي ، معيّنة عليه ورايحة . حتى راحوا وراها
لبيتها وحابوا المفتاح وفتحوا له .

طبعاً عاصحة يوم دنو يحي من بيروت ، طلعا لاقيناه واقف تتمّ المركون صغير
هالطوله . مدري ليش وقفها طالعاها ؟ إيه وقفها بطلتْ لو صتت
دايمة كان هلاً صابط ! قسة يموتوا عالرشدية ، ويطمعوا من الرشدية يموتوا عالاعدادية .

قعد أبوك بالإعاشة [الميري] ، وقت ساووا الإعاشة وصار العلا .. وبعدين توطف
باعديلة ودرس بمكتب الحقوق (168).

وقت إحا من بيروت ، سافرت رياً (169) ، الله يرحمها . مو بعد بكتير كان حرب
الترعة (170) ، كان عمرها ثلاثين سنة ، سافرت هي وسافرت بدرية بنت
أم ديب ، قام حورها راح نوطيعة عالبح ، والّرحر نفساً ما ولدت ، طلفت ما ولدت .
إحاما حبر عمتك ، أصرتْ ، بعد يوم إحاما حبر بدرية . وتركد أم ديب وتقول بي . يا مرت
أحي هلي صابك صابي .

تطح سارة بنت حمها الطبح وتقعّد تعدّ شقف الحمة حتى ما تقوت تاكلها عمتك
الله يجعل قلب أبص . والله عذّوها كثير .. والله ما كان سبب موتها إلا هه حسنت
وحطّوا عليها بذهم يطرّحوها ، يعطوها أدوية يعطوها أدوية ، ما طرحت .. راحت السر ما

(168) ثم أضحي ابنها محمد آق بيق رئيس محكمة بداية الجزاء ، ثم رئيس
محكمة الجنايات بدمشق ، واشتهرت سيرته بالنزاهة والاستقامة ومناصرة
الضعفاء ، حتى حمل لقب «القاضي النزيه» . ولد عام 1904 ، وتوفي إلى
رحمة الله بدمشق عام 1977 .

(169) أي ابنتها رياً ، توفيت في تركيا حوالي عام 1910 عن 25 عاماً ،
وزوجها صادق آق بيق .

(170) أي حرب السّفر برلك 1916-1918 أثناء الحرب العالمية الأولى .

رحعت . مصّوا حياتها بقنة الريح

كانوا بيت شعلان بالبحر وقت ماتت بدرية ، ودوروا دابر ما قتل السي ، ويقولوا .
ترحموا عالعية التير قبل ما يروحوا يعدوا يعنوا : «يا حبايب قبي تعوا ودعوي» ما
كان لهم شنه هالتير .. بدرية ما أحلاها ، شو تحنا ، اشأ الله بالحنة يا إلهي .

وقت صعب أبو ياسين حور عمّتك أم ياسين ، شافوها سومهم دواير العرشة عم
ترقص ، وقام حقها .

العداب هنيّ تعذّنته عمّتك أم ياسين نرباية اولادها ، مات وترك لها باهم صغار ،
وستهم وعمومتهم أكلوا المال عليهم . أبوهم كان زككيل كثير ويكسب مصاري . كان
يتاجر ، وقت مات أحدهم كههم وقالوا : «هدول مو لأبو ياسين» ، وأكلوا المال . قام
يا لطيف عرّ الدين إحته عمة فقت راسه بالصّر ، وحس العيد فطس الرّحري ، ولحقتههم
سنتها كمان صبيّة .

عمّتك قصّت كثير ، وتبقى نفسها كبيرة ، حطّت اولادها تعلّموا كار الحياطة ،
وعلمت سنتها وهي تشتغل وتقدم لهم ، ما تام الليل مشاهم .

من حوادث الثورة السورية 1925

مرّة سيدي عامود⁽¹⁷¹⁾ ما سمع إلا حسّ الذّنك على سقف القاعة ، قام طلع أبوك
على سقف القاعة وأحد العرد معه ، وكان وقتها مموع القواص ، ويظّ من عالأساطيح . قام
هناك نزل على بيت الرّباط وهرب وراح ، وما تسمع إلا قواص بالليل ، وكان أبوك رح
يقوّص عمّك ، تحابل فيه لو ما صرح . وأبوك بظّ من أسطوح لأسطوح ، وبيناهم صقاق ،
وهو ماسك بإيد فرد وبالإيد الثانية الكار .

(171) كانت دار ابي بيّ بهذا الحى ، من أكبر دوره وأجملها ، على كتف شارع
مدحت باشا .

وقت الثورة شو غمر مرنا ، القتلى على عرض الطريق ، وما تلاقي إلا قننى ممطرقة
وأدمية سائلة . أهدونا عني بيت الشواني نزلت حمام القاصي ⁽¹⁷²⁾ . صار الطرق والسفح ،
أهدونا لبيت حالي بالعمارة ، قال حالي . «الله بلعن لحية هلي عند رغيغ حبر» .. وممرت
حالي حابرة عالصح ، تلاقي تعطيا رغيغ يشتعل الحطف عبيه .

(172) نزلة حمام القاضي : حارة في حي سيدي عامود تجاه سوق مدحت باشا .

عديس أحدونا على صقاق العدّاس لعد أهل مرت عمك مطمة ، عديس أحدونا لبيت
أبو قاسم عاخصيرة

صالح أفندي شوري ، الله يرحمه ، قال له لحدك . «إت ليش مهموم ؟ كل واحد
قواصة قواصة مروّحهم» .. وشو عالسقف سم سم طرق الصروب ، وراعب أفندي شوري
طبع يشوف مير الصرب ، قامت إحتة رصاصة وقع بأرصه ، وشون يوصلوه عالتربة ؟

تركا البيت لما إحت الحريقة ⁽¹⁷³⁾ ، وحابوا حمانة يحموا الاعراس ، وسرقوا بصّهم ،
شي يوصلوه وشي ياحدوه لحامم ، الصبي ، الرنادي ،
كله راح وصلعوا عالسقبعة فتحوا تكة السمّة وقعدوا ياكلوا ، قال له واحد لتاني : «لث
إحتنا البار» ، قام قال . إي شو بدّي أعمل هم ؟» ..

وقفوا السعال ⁽¹⁷⁴⁾ على أسطوح السك وعنى الموادد يصصادوا الباس ، وعالقعة .
كل ما واحد طبع ياولوه

(173) أي الحريقة الكبرى بزقاق «سيدي عامود» ، يوم قصف جيش الاحتلال
الفرنسي دمشق بتاريخ 18 تشرين الأول من عام 1925 ، للقضاء على
الثورة . وأضحى هذا الحي ركاماً بعد أن كانت فيه أجمل الدور الدمشقية
الأصيلة ، كدار مراد أفندي القوتلي ، ودار صالح أغا آق بيق (أبو أحمد)
التي دارت فيها أغلب أحداث هذه المذكرات .

(174) أي الجنود السنغاليين السود ، التابعين للفيلق الأجنبي La Légion Etrangère
في جيش الشرق الفرنسي . وقد شنع هؤلاء بالمواطنين السوريين ،
وبخاصة في مجزرة البرلمان بتاريخ 29 أيار 1945 .

وفاة جوري أحمد آغا

حدّك الله يرحمه قبل ما يموت صعب ، وموت قلب رحله هدمته هدم ، كما مقولين
من عربوس وعند أبو ممدوح بالسويقة . ووقت قصي بيتنا ، طلعا لبيتنا .. كان مسطح
بالمرشة ، والمسحة بإيده وهو عم يقول : الله . الله . وإجا لعنده عمارها محمود بك جور
فورية أم أكرم ، قال : «الله يحتم عا إيمان» .. من هون لعند ساعة برل بمبارهم ، ولسانه ما
فتر من قوة «الله» ، وشحّصت عيونه للحق ، وقعد عمك صار يقرأ له

والله مصّي حياته ما يحكي عني حدا ، ما يحب يعصب حدا ، إيه والله . وقت إحدان
الحاطر ما تمّ حدا بيوت القنوات⁽¹⁷⁵⁾ ، كلّها طلعت أحدث الحاطر .

[انته - ي]

* * * * *

(175) سكنت العائلة بالقنوات ، كما تقدّم ، بعد خراب بيتها في حريق عام
1925 . ثم تنقلت فاطمة البديوي ، صاحبة المذكرات ، مع ابنها محمد بعد
وفاة زوجها ، إلى حيّ عين الكرش ثم إلى حي السكة بالمهاجرين ، حيث
توفيت في أيلول 1958 ، رحمها الله .

قلت :

وأما حدة أُمي نفسها ، راوية هذه المذكرات ، فقد أغمص الموت أحفامها وأسكت
آخر أنفاسها ، بمنزل ابنها محمد آق بيق بحي السَّكة في المهاجرين بدمشق في شهر أيلول من
حريف عام 1958 .

عبيها الرَّحمة والرَّضوان .

* * * * *

وأخيراً ..

سيأتي عبيا الدَّور ، وسموت كما ماتت فاطمة البديوي ، واستها الطغلة جيهان ،
ومحمود ورهرة ، وروحها أحمد آق بيق ، وابنها محمد ، ثم بدأت بصعة من حميداتها بالانتقال
إلى الدَّار الآخرة (ربيعه وابتسام) .

سرحل خيماً ، كما رحلت جميع شخصيات هذه المذكرات بأسرها دون استثناء ..
إن عاجلاً أم آجلاً .

سرحل ، وتبقى الذكريات ، وتبقى العالمة دمشق .

إيه يا دمشق ..

يا حذّة المذد ، وبيا سحر الشّرق ..

فيك ولدا ، وترعرعا ، وتعمّسا حبّ الوطن ، فيك نمت أحلامنا وأرهرت آمالنا ،
وفيك دغدع الحبّ شعاع قلوبنا في سنّ الشّباب ، وأحرقت ذكريات الماضي صميم أرواحنا
، عندما تزدّ الماضي وعانت عن مآقيا أوحه عريرة ، واحتفت صحنكات وتذنت أيام
وسوات .

ستركك يوماً ، ولكن .. لا نسيها أيتها الحبيبة الخالدة دمشق . تنق أسماؤنا مسخّنة
على دُرى قاسيونك وبين أرقّة حاراتك الحامية الوديدة

ستقيين يا دمشق ، على أديم الدّهر ، سحراً وألقاً وتاريخاً وأصلة لا تمحوها القرون .
وتعدو أسماؤنا وحياتنا وذكرياتنا محرّدة أصداء رائدة فانية ، كسمات حريية هتّت ورمت
بأوراق دوت واصفرّت في أدواح العوطة ، أو على دُرى حمال لسان الشرقية المختصة لدمشق .
أو تسلسلت مع سواقى وادي بردى الرّقاقة بين أرحاء عياصه الحميمة .

سحلنا ها هنا كُبيبات من ذكريات فاطمة ، اسة دمشق .. ولكن ، كم من آلاف
الذكريات العالية والحكايات العريية البادرة ، والآلام والأمانى والعنّرات ، مصت وبادت مع
أصحابها ، ولم يدر كها حط لتسحل على الورق !

كل هذا لا يهم ، طالما ستأتي أحيال جديدة ، وتحافظ على تراث الأحداد ، وتتذكر
على الدّوام أن دمشق باقية ، وأرواح أسائها معلقة بها إلى الأزل .

* * * * *

مستدركات

بعد الرجوع إلى المذكرات المكتوبة لخدمة أُمِّي ، فاطمة السديوي ، روت لي حالي الحبيبة زهراء آق بيق أمد الله في عمرها ، وأعطائها الصحة بصحة وقائع عائنية ، وحدث في إيرادها هنا فائدة وتنمة لما كُتبتُ بدأت بتدوينه .

عرس محمد آق بيق ابن فاطمة صاحبة المذكرات

في عام 1920 ، كان عمر محمد بن أحمد آقا آق بيق 16 عاماً (وهو من مواليد 1904) ، وكان في النصف الثامن لما قرّر أهله ترويجه ، فحطوا له إحدى بات العائلة (إيعام القنّاي) ، وكانت ابنة 11 عاماً (من مواليد 1908) ، وهي ابنة خليل بن أحمد آق بيق (الشهير بأبي حبيب القنّاي رائد المسرح في سورية) . وكانت عائلة القنّاي هذه فرعاً من آل آق بيق ، حملت اسم القنّاي نسبة لحرقة مال القنّان التي راوّلها محمد آقا آق بيق والد أبي خليل

وكانت العروس إيعام تقيم في بيت دويها في منطقة رفاق الصّحر صمن بستين كيوان الحميلة ، على طريق الرّوة وما رالت أطلال دار حبيب القنّاي ماثلة إلى عصرها الحاضر ، بعد أن تداعت أكثر أركانها إثر وفاة آخر أولاده في عام 1989 . وكانت تلك الدار من

أحمل الذّور موقعاً ، تقع على مسافة بسيطة من قصر العراوي الشهير ، وتطلّ على وادي النهر
غير بعيد عن طاحون كيوان ، وتحفّ بها الأشجار والبرروع والأراهير الحميلة السادرة ، ومنها
ياسمينية ررقاء كانت مثاراً لتدّير كل من يراها

أما العرس ، فكان بالطبع في دار والد العريس محلّة تحت القضاير برقاق سيدي عامود
، وتم في بدايات فترة الاحتلال الفرنسي لسورية عام 1920 . وقد دُعيت إليه أعداد كبيرة
من النساء ، من الأهل والأقارب والخيران ، وكان عرساً كبيراً عنت فيه «سات مكّو»
الشهيرات

غير أن أكثر النساء كنّ يتفاحن من صغر حجم العروس واصفرار لونها ، وكانت
أصببت بالتيفويد ، حتى أن روعة حارهم ابن القوتلي قالت لعاطمة أم العريس : «شو ما
لقيتي لإبنك محمد غير هالعرّوثوكه ؟» .. غير أن نفس المرأة بعد 3 4 سنوات ، دحنت بيت
أحمد آغا . فرأت صبيّة حميلة ابنة 14 15 سنة . وقد اسندل شعرها السّي الطويل على
كتفّيها فلنع حصرها ، ولاحت على محيّاها الحميل مسحة حمال اسرة ، تربّيها عيان حصراوان
وشرة بيضاء مُشرّبة . أطالت الحارة الطر وقات لعاطمة : «إي هة ، هيك كت حديله
وَحده حنوه محمد .. شو هاد ؟» . قالت عاطمة : «ولك هي هية بداتها مرّت محمد !» ،
وكانت كبرت وتبّت

نعود إلى العرس :

أكبر مفاحاة كانت عندما دخل العريس والعروس إلى المَحْدَع ، قال ويدا بولاويل
العروس تتعالى بقوة من ادخال ، والعياط والسكاء .

يا لطيف ما الذي جرى ؟

اندفع عاطمة إلى الدّاخل مسرعة . «ولك حير ، شو فيه ؟» .. ويداها تقاحاً
بالعروس ابنة الـ 11 عاماً وهي تقول لها : «بدي سكاكر .. ما حلّاّي محمد اكل سكاكر
من هادا السّت اللّي هو !» .

مادا يُتوقّع من عريس عمره 16 سنة ، وعروس عمرها 11 ؟

وقيل كانت فاطمة تلاقى التباريح من ويدة كتبها إيعام ، التي كانت ما ترال طفلة .
فتارة تراها تقصّ الستائر مع ابة حميها الصعري ، ويعملان منها أثواباً لعبة ، وتارة تقصر بين
أطواق الرزّ بحبيب المبرودة فتدوس في داحلها ، وطوراً تلقي سحّادتها في ركة البيت حتى
تعسبها .

لكر الأطراف من ذلك كان روحها محمد ، الذي كانت «تكني» في العثور عليه
تساده لطعام العداء ، فتعثر عليه أحياناً فوق الشجرة «نعممشقاً» يلعب
يا له من «عريس فوق الشجرة» .

«شهر عسل على بسكليتته»

كانت محمد دراجة هوائية «بسكليتته» ، فمّا تروّج من إيعام شاء أن يأخذها
«دورة» على بسكليتته . فمادا يفعلان طيلة الوقت إن لم يلعبا كفاي الأولاد في ستهما ؟
فتحيّ العروساء فرصة عدم انتباه الكبار لهما ، ودلفا من باب «الصفاق» إلى الحارة ،
وأردف محمد عروسه على السكليتته جمعه ، وكانت بلا نقاب ! ولعبا ما خلا لهما أن يلعبا
في الحارة .

ثم لبقارئ الكريم أن يتحيّل اللقاء المثير الذي كان بانتظار العروسين ، عندما اكتشف
الأهل عيابهما ، فأكلا «قنّة» مأكلة بسطون أحمد آغا ، كانت كافية حتى لا يفكّرا بمحرد
تفكير بإعادة المحاولة .

هذه كانت العادة المألوفة في دمشق في انصبي ، فسّ الرواح للعروسين لم تكن تريد
عن ذلك كثيراً ، وكانا يقيمان بالصنع مع الأهل كطملين في العائلة .

موكب الحجّ الشامي

صورة من الحياة الاجتماعية بدمشق

في أواخر القرن التاسع عشر (176)

كان موسم الحج في مدينة دمشق يعدّ في طليعة موارد العيش ، حيث يدرّ الأرباح الطائلة على جميع أهلها طيلة العام .

وكانت دمشق أثناء حكم العثمانيين تعم بأهمية خاصة حدّاً على اعتبارها (بناً للكعبة) كما دعوها أذاك ، وكانت الطريق المؤدية من الشام إلى المدينة المذورة فمكة المكرمة هي الأقصر مسافة والأكثر سوكاً من سائر البلاد المؤدية إلى الحجار من جميع الأقطار الإسلامية الشاسعة . ولذلك دأب السلاطين العثمانيون عى ترميم هذه الطريق وتعميرها وتوفير الأمن في رنوعها ، فحعلوا في كل مترلة من مسارها قنعة لها حود معيون لحراستها ولتأمين المياه للحجّاح في دهايم وإياهم . وبوجه اخصوص ، نال الحج ومعه دمشق عناية خاصة من السطان عبد الحميد

وكانت دمشق نقطة التقاء الحجّاح الذين يعدون إليها بطريق البر مد شهر رجب من كل عام من بلاد ما وراء النهر وإيران والأفغان والسند والعراق والأناصول وسواها ، فيجتمعون في هذه المدينة إلى منتصف شهر شوال . وفي حلال هذه المدة يرورون الأماكن المقدسة ، ويتاحرون مع أهل الشام فيبيعون ما حملوه معهم من مختلف المتاع ، ويشترون لقاءه من المتوحات الشامية ما يروق هم للاستعمال والمهاداة والمتاحرة . وكان النعص من تحار حص وحما وحب يأتون إلى دمشق في موسم الحج ويشتركون بمده التجارة .

(176) راجع كتاب «مرأة الشام» لعبد العزيز العظمة ، دار الرئيس ، لندن 1987 ، ص 110 .

ثم يضاف إلى هؤلاء الحجاج من يريد أداء العريضة من السوريين أيضاً ، فيسعون في بعض السنين رهاء خمسة آلاف حاج بين رحال وساء وحَدَام يؤلفون الركب الشامي الذي يسير بانتظام ويقوده محافظ الحج (أو أمير الحج) الذي كان يعين من قبل السلطان شخصياً ، لتأمين راحة الحجاج . وكان أمير الحج الشامي انداك عبد الرحمن باشا اليوسف ، الذي حمل هذا المنصب خلال الفترة الواقعة بين عامي 1892-1918⁽¹⁷⁷⁾ .

وكان ركب الحج يبرح مدينة دمشق في المعتاد في منتصف شهر شوال من كل سنة (تحديداً يوم 16 شوال) ، ويلعب المدينة المنورة في أواسط شهر ذي القعدة . وبعد أن يمكث في المدينة ثلاثة أيام يشد رحاله منها قاصداً مكة المكرمة ، فيبلغها في أوائل ذي الحجة . وعقب قضاء أسسك يتحرك من مكة عائداً إلى المدينة المنورة فدمشق الشام ، حسب المراحل التالية ذهاباً وإياباً :

مراحل الذهاب من دمشق إلى المدينة المنورة :

دمشق - تكية العسالي بانقدم - حاد دُؤُون - الكسوة - الكتبية - المرييب - الرمثا - المرق - الررق - اللقاء - القطرانة - الحساء - عترة - معان - العقبة - المنورة - دات حج - القاع الصغير - نوك - الأحصر - المعظّم - امدار الحمراء - مدائن صالح - ابار العم - بئر الرمرّد - البئر الجديد - هديّة - الفحنتين - ابار بصيف - المدينة المنورة .

لنراحل من المدينة إلى مكة :

لمدينة المنورة - ابار علي - بئر المشاشي - العرير - الريان - أم الصاع - طهر العقبة - رايغ (عدها يدخل الحجاج في الإحرام) - القصيمة - عسفا - مكة المكرمة .

المح . لذات

تشتغل مدينة دمشق بأسرها طيبة العام بالحجاج المسلمين ، ويسكاهم حلال مكثهم

(177) تقدّم ذكره في كتابنا هذا ، وكنا قلنا إنه تولي منصبه ، خلفاً لجده لأمه محمد سعيد باشا شمدنين ، الذي شغل شؤون محافظ الحج الشريف بين 1870-1892 .

فيها وإطعامهم والمتاحرة معهم ، ثم بإعداد ما يلزمهم ويرم الصرة السلطانية من الريوث والشموع والمياه العظرية كماء الورد وماء الزهر ، التي ترسل إلى الحرمين الشريفين لغسل الكعبة والحجرة النبوية (الروضة الخضراء) بهما . ثم بإحصار معدّات الركب من حمال وبعال وحبول ركوب (رهوانات) وحيام (مصارب) ومحابر (مخفات) وتحتروانات (سرر) وقرب ومطرات وأقفية (عبي ومشايخ) وكفافي وعكل واحرامات وأحذية وثياب وصاديق وأرسان (أعنة) وسروح ورواحل وحنقات وأحراس وكلايب وأكمار ومشاعل وصارات وقطران وشموع ، إلى غير ذلك مما يحتجّه الخجاج في رحلتهم .

ثم تنهيّة الراد والدحيرة بين كعك ونقسماط وجر ولحم مقبو ومعجات وحصار مجمعة ومربيات وشرابات وما شاكلها . ثم يعلف الدواب وترتيب الرحال الذين يسبّرون في خدمة الركب ، فيقودون الحمال ويعلمونها ويصون الحيام ويقصونها ، ويملاؤن الماء ويجمعون الخطب ويطحنون الطعام ، وهؤلاء يقال لهم بصيغة الإفراد : عكّام ، مكاري ، قاطرحي ، مهتار ، سقا ، حمال ، أجير .

وتعيّن الحكومة بطريقة للماقصة من بين المفتدريين رحلاً يقال له (المقوم) ، يقوم بتقديم الحمال وعبرها من المطايا اللازمة للركب في الذهاب والإياب ، بحيث إذا هلك أحدها في الطريق يقوم بتقديم غيره في الحال ، وذلك لقاء أجرة مقطوعة تعيها الحكومة وتعسها على الملاء . وتأخذ من المقوم كملاء كي لا يقصّر بواجبه ، وإذا قصّر توب الحكومة عنه بتأمين مطايا الخجاج في الطريق . وكذلك تعيّن الحكومة سرية من الحمد تتألف من مئتي حندي من راكبي البعل وترفقها بمدفعين حسيبين مع دحائرهما لتأمين المحافظة على الخجاج من تعدّي البصوص في الطريق .

السَّنْحَق

عندما يتكامل الركب ، تخرج أولاً الشموع والريوث والعطور من دار مستمرها (متعهدها) ، فيحتفلون بها حرمة لمقامات المهدة إليها ، ثم يخرج لواء الرسول الأعظم من مسجد الصحابي الخليل أبي الدرداء (عامر الخزرجي الأنصاري) في قبة دمشق ، ويؤتى به من سوق البواخية فالآبارين فالخايرية فالسروحية فجامع السحقدار . حيث يصلي القوم صلاة

العصر جماعة ، ثم يطاف بالنواء (السحق) إلى قصر المشيرية⁽¹⁷⁸⁾ ويوضع في قاعتها الكبرى ، وتتلّى قصة المولد السوي الشريف تيمناً وتبركاً ، ويظل النواء ليلة في هذه الدائرة تحت حراسة اخند . وتطلق اندفاع عند حروحه من القلعة ، ولدى وصوله إلى الجامع ، وعند حروحه منه ، وحين دخوله من باب السراي .

المحمل

المحمل⁽¹⁷⁹⁾ هو في الأصل المودح (العظمة) الذي تركبه ساء العرب أيام الحروب لحث الرجال بالحوة للدفاع عن العرص والوطن ، ثم اتخذ في القرون الوسطى كرمز لموكب الحج ، وأقره سلاطين بني عثمان وصار عبوياً للموكب يروح ويعود معه في كل عام . وهو عبارة عن محفة كبيرة محللة بالديجاج ومقوش عليها بعض الآيات القرآنية والطراء السلطانية ، ولها رصافات مموهة بالذهب .

* * * * *

وكان الاحتفال بخروج هذا المحمل مع الححيح وعودته بموكب عظيم على النحو التالي

كان يوم المحمل بدمشق ، وهو اليوم الذي يبي خروج السَّحَق ، والذي يبدأ فيه جموع الحجاج بالمسير نحو القصة ، يعدّ من الأيام العظيمة . حيث تعطل فيه الأعمال في دوائر الحكومة وفي أغلب أسواق المدينة ، وخصوصاً على الطريق الطويلة المستقيمة (الدَّرب السلطاني) التي يسير عليها موكب الحج من سراي العسكرية إلى بوابة الله فالعسالي على مسافة تقرب من 16 كيلومتراً . وكان يحفّ إلى دمشق عدد غير قليل من أهل البلاد والقرى المجاورة للاشتراك

(178) المشيرية أي السراي العسكري ، كان موقعها عند القصر العدلي حالياً .
(179) انظر الصورة المرفقة ، وهى من الصور النادرة لمحمل الحج بأواخر القرن التاسع عشر .

بالفرحة على الركب والاحتفاء به ووداع المحتاج الراحلين .

ومد بروع شمس ذلك اليوم يهض جميع سكان المدينة تقريباً وروادها من نساء ورجال وشيوخ وأطفال ، ويتشرون على تلك الطريق ويملاؤون الخوانيت والأسطح وطاقات المنازل وشرفات المادد . وعند الصبحي حيث تكون القافة أخذت بالنسيب يحمل يحمل على حمل صحم الجئة ويُسار به وبالسحق من ورائه عموكب رسمي يتقدمه نقيب السادة الأشراف بملابسه الحصراء ، ثم أمير الصرة السلطانية ، ومحافظ ركب الحج الشريف ، ثم أصحاب المراتب السلطانية من عمية وعسكرية ومكية ، بملابسهم الرسمية على أصول التشريفات السلطانية . وتدوي التحية السلطانية الشهيرة : «ياديشاهم حوق يأتا»⁽¹⁸⁰⁾ .

ويعادر هذا الموكب باب السراي بين أصوات المدافع وصحيح الحق ، تحفّ به كوكبات الخند من مشاة وسوارية (فرسان) وسرايا الذرك والشرطة ، وتلامذة المدارس العسكرية والملكبة ، ورجال الطرق الصوفية مهللين مكبرين . ومن أمام المحمل وحلقة تسير حوكتان من أحوق الموسيقى العسكرية تناديان العرف بالألحان العسكرية ، وعلى نقاط متقاربة على حابي الطريق تصف فصائل الحود المحتففة لتحية الموكب الذي يقطع هذه المسافة بحوالي ثلاث ساعات على الأقل .

وعقيب وصول الركب إلى انصارب التي تكون قد أعدت على دكة المحمل في العسالي ، يحف لاستقباله وإلى الشام (الاشا) ومشير جيشها ، اللدان يكونان قد حصرا سماً لتشجيع الركب . ثم توزع الحلوى والمرطبات على الحاصرين ، ويُسم المحمل واللواء إلى محافظ الحج . حيث بصمهما في صاديح محكمة يتولى حراستها الخند ، ويبيتان لبيتها في العسالي .

الركب . ب

يطلق احجاج الدين يؤمنون الركب ويعادرون دمشق ميممين شطر القسة ، ويرافق بعضهم لعيف من الأهل والأصدقاء بعية وداعهم من مسافات مختلفة تختلف بسببة استطاعة

(180) بالتركية : Padisahim Cok Yasa ، أي عاش مولانا السلطان .

المودعين ، ويتبعون جميعاً تلك المراحل التي ذكرناها آنفاً . وعندما يسبح الركب أول مرحلة من مراحله ، يكون العكامون ورفاقهم قد سبقوا إليه ، ويصو الحميم وأعدوها على شكل مدينة صغيرة ذات أرفقة متعددة ، وهياؤها الماء والخطب وسائر أسباب الراحة فيتزل كل حاج في حيمته ويعلم موقعها الذي لا يتبدل طوال الطريق في الذهاب والإياب ، وترتبط المطايا بحف الحيام وإلى حاسها الرحال والأحمال .

وتنار أرفقة المصارب ليلاً بالندشاعل التي توقد بالقطران ، وباطن المصارب أيضاً يبار بالمصارات ذات الشموع . وبسما الحاج يتوصاً ويصلي ويتلو أوراده ، يكون العكام قد أعد له اطعام فيأكله بدة وهناء وفي أوقات الخط والاستراحة يتراور الحجاج بين بعضهم ويتسامرون ويتحدثون وقد حرت العدة أن يكون قيام الركب ونزوله بانتظام تام ، متحمعاً غير متعرق ، كي لا يصل أحد في الطريق التي تماثل بعضها ، ولذلك يطقون المدافع عند الرحيل ووقت اللوم .

* * * * *

المطايا

مطايا الحجاج ثلاثة أنواع : التحتروانات والمخاير والرهاوين . والتحتروان كوح حشبي ذو باب يحمل على حملين أو بعين متقابلين . ويجلس فيه رجل واحد مرتاحاً ، والمخارة محمّة تحمل على حمل وتعطى بأقمشة مرخرة على طرار أقمشة الحيام من نسيج دمشق ، ولها مقعدان يجلس ويرقد فيهما حاجان اثنان والرهاوين يختارها بعض الحجاج ويفصلونها على المخارة لأنها تساعد على النزول في الطريق ، حيث توحد مقاه سياراة ترافق الركب في مسيره ، فيشربون فيها القهوة ويدحون الأركية . وأكثر مسافات المراحل طويلة ، لذا يجعلون في منتصف المسافة ساعة استراحة يتزل فيها الحجاج ويقصون حاجاتهم ويصلّون ويأكلون ويشربون ويعلفون دوابهم ، ثم يرحبون على أصوات المدافع أيضاً

الإحرام . حرام

لما يبلغ الركب أرض رابع ، وهي من أرض مكة ، يدخل الإحرام ، أي يبدأون بأداء لمسك ، فيحلقون ثيابهم ، ويرتدون مآزر بيضاء غير مخططة .

المجردة

المجردة إرسالية تجارية تنقل للححيح ما يحتاجه من مأكّل وملبس وغير ذلك من اللوازم الضرورية . وهي كانت تبحر دمشق في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة تحت محافظة سرية من فرسان الدرك ، وتتقي بالركب في متربة هديّة ، فتقيم في هذه المتربة وما بعدها من المنار سوقاً تجارية سيّارة

عودة الحجاج

يعود ركّب الحج الشامي إلى دمشق في منتصف شهر صفر ، وقبل وصوله يقوم أهل الحجاج ودوهم بإعداد أسباب الإكرام والضيافة لهم والاحتفاء بهم ونحاشيتهم ، فيجهررون لكل حاج وحاجة كسوة جديدة ، وقد تعدد فتكون أكثر من واحدة . ويدهنون لاستقبالهم ويعودون معهم فرحين بقائهم . وتقام لهم الأفراح عقب وصولهم ساعة أيام بلياليها ، والناس تحف إلى دورهم لسلام عيهم والترك بهم . وقد يأتي الحجاج بعض الهدايا من المنتوحات والمصوغات الهدية ، ومن ثمر المدينة المحبّب المدعو (حلي) ، وهو كبير اللحم صغير النواة لا مثيل له في سائر الجهات ، ومن ماء رمرم والحناء وغيرها .

* * * * *

طرائف

من كتاب مجمع المسرات

للدكتور شاكر الخوري

صور من الحياة الاجتماعية بدمشق

في أواخر القرن التاسع عشر

صيدلية سوق الخيل

كنتُ ساكناً في الشام محارة باب توما ، أما الدوات والأعياء فكانوا يقضون الجهة الأخرى ، مثل باب ساروحا والقنوات ، ورتأيتُ ان أشتري صيدلية في تلك الجهة أكون فيها بعد الظهر ، وقببه أبقى في جهة باب توما .

وصيدلية سوق الخيل كانت ملك أمين افندي الحدي ، الذي هو من أسرة الحدي التي أصلها من حماة ، وكان من أعظم سراة دمشق ، لأنه كان مفتيها سابقاً ، وقد أقامه بمده

الوصيفة فؤاد باشا سنة 1860⁽¹⁸¹⁾، ثم تعين عضواً في مجلس شورى الدولة، ثم أرسل إلى اليمس لأجل تطعيم محاكمها ومحاسنها وكل شيء علمي فيها، ثم عاد إلى دمشق وقطعها عبر وحاه وعنى واعتار، وكان كل أهل دمشق يقتلون يديه. ومجله قرب المستشفى العسكري⁽¹⁸²⁾، وهو مترلان متسعاً جداً

أما عدم توقيفه بالاولاد فأمر مستعرب، وقد قال لي انه ولد له سعة عشر ولداً روج معظمهم فأولدوا، غير أنه لم يبق من سله إلا حفيده أمين.

[حكاية الحمار]

بما أن سكي كان في باب توما والصيدلية سوق الخيل، اضطرت أن أشتري حماراً ليقني من جهة إلى أخرى. وكان هذا الحمار يهق دائماً، ولما كنت أربطه على باب الصيدلية كان يهق الحيران بصوته المرعج ويقلقي. ولما أذهب إلى مترل أمين أميدي الحدي، كنت أربطه قرب الباب، غير أنه كان يبدأ بالتهيق إلى ما لا نهاية، حتى يضطر الأميدي إلى السكوت أحياناً وليلطر إلي سطف، فكنت أحل منه.

وفي أحد الأيام، سيما كنت أقرأ كتاباً إفرسياً اسمه «تذكر الحمار»⁽¹⁸³⁾، رأيت أنه فقرت⁽¹⁸⁴⁾ ذكرت ان اللصوص إذا أرادوا سرقة حمار ربطوا دبله ليسعوا بهقه. وقرأت

(181) فؤاد باشا كان المندوب الذي أوفدته الدولة العثمانية، بصلاحية مطلقة، للتحقيق في مجازر عام 1860 التي راح ضحيتها الاف المسيحيين، وللمعاقبة فاعليها.

(182) المستشفى العسكري المعروف في أواخر العهد العثماني بالخسئخانة، كان موقعه في بوابة الصالحية عند دار المهندسين ومرأب فندق الشام في عصرنا.

(183) لا ندرى العنوان الأصلي للكتاب الفرنسي، لكننا نخاله يكون: *Mémoires d'un An*، أي: مذكرات حمار.

(184) يريد: فقرة. وهكذا نرى بعض مثقفي لبنان يكتبون التاء المربوطة، ويلفظونها، بتاء مبسوطة، فأكثرهم يقولون: الجمهورية اللبنانية.

سيرة عنتره بن شداد ، فرأيتُ بها أن متى أراد إخماء صوت أبحره ربطه بديله ، كي لا يسهل .
فصرتُ أعللُ هذه المسألة طئياً ، وعرفتُ أن الحمار متى أراد الهيق يحرك ديله ، خصوصاً إلى
الأعلى ، ولربما هذه الحركة تسعفه على الهيق ؛ أما إذا أثقل دَنهُ فيبطل هيقه .

لذلك ارتأيتُ أن أُحرِّب . لأن التجربة أقوى الأدلة العقلية والقيمية ، فأحدثتُ معي
عياراً محاسياً من الصيدلية ، وربطته بديله . وبعد برهة ، بدل ما أسمع هيق الحمار سمعتُ هيقاً
آخر يشتم الحمار وصاحبه ، فهضت لأرى سبب ذلك ، وشاهدتُ رجلاً من الأعيان يقول :
لمى هذا الحمار الذي يرفس كل من مرّ بخانه ؟ وما هذا الثقل المعلق بديله ؟ فأخبرته قصته
صاحكاً ، قال : إن هيقه لا يصيرُ كرفسه ، فارفع عنه هذا الثقل ، ودعه يهيق ما شاء ، ولا
تدع أمارتين تهق صدك (185) .

لو كان لحم الحمار يؤكل !

ذهب طبيبٌ مع تلميذه لعيادة مريض . ولما وصلا إليه سأل الطبيب
المريض : هل أكلتُ بطيخاً ؟ فأبكر أولاً ، ثم أقّر ، فعالجه ودهب . فتعجّب التلميذ من ذلك
وسأل معلمه من أين عرفتُ أن المريض أكل بطيخاً ؟ قال : أما نظرتُ عدد دخولنا قشر
البطيخ بكثرة قرب الباب ؟ قال . نسي ! قال . منه حكمتُ أن المريض أكل بطيخاً . فتعجّب
التلميذ

وفي ذات يوم ، طُلب التلميذُ لمريض ، لأن الطبيب كان عائداً . فدخل على المريض
وقال له : لماذا أكلتُ لحم حمار ؟ فتعجّب المريض من هذا السؤال ، وأبكر . وعرف الطبيب
قصته . فسأل تلميذه : كيف علمتُ أن المريض أكل لحم حمار ؟ قال : أم تُحيرني أنه متى
وُخذ شيء قرب باب المريض يكون أكل منه ؟ فأنا رأيتُ حلال حمار في الخارج ، وحكمتُ
أن المريض أكل لحم حمار .

فقال الطبيب : لو كان لحم الحمار يؤكل ، لما بقيتُ إلى اليوم ! اذهب واستبدل

صنعتك ، لأنها لا تليق بك ولا أنت أهل لها⁽¹⁸⁶⁾.

* * * * *

(186) مجمع المسرات ، ص 370 .

دمشق الشام (187)

هي أقدم مدينة في الدنيا نظراً لتاريخها وموقعها الطبيعي ، لأن الإنسان بعد حالته البدوية ارتأى أن يسكن محلاً ، فاحتار ما حاور الكلاً وحصب التربة مرعاه ومرعى مواشيه ، ولم تجمع بقعة في بلادنا هذه الشروط لطير دمشق . وذهب بعضهم أنها هي الفردوس الأرضي حسب التوراة ، وأن بعد حرواح آدم منها وطرده عاش في الأرض المقفرة الكائنة عريبها . واستدلوا على ذلك من الأسماء التي فيها بطير أبيض وهي أن قاي قتل أحاه هاييل فيها . وإن لم تكن دمشق الفردوس الأرضي ، فإنما دون شك مثال الجنة فيها الأهجار والعسل واللبس ومن كل فاكهة روحان وحوار الحين ، ومن رأى دمشق وأهجارها وفاكهتها ولسها وعسلها وحوارها لا يشك بأنها مثال الجنة المستقبلية أو هي الجنة الحاضرة .

ولا أتعرض لذكر تاريخها ، فقد تقدمي الكثيرون ، غير أن منه ما لم يرل عامصاً وذلك لعدم احصريات على الآثار القديمة التي فيها ، لأن ترنتها كثيفة وسبها الأثرية التي تتساقط عيبها كل سنة من الأعلى لأنها واقعة في سهل ولو أرادوا الكشف عن حفراتها لرم عمق عظيم . ولا أدكر شيئاً عن قدمها إذ هو معلوم أن في أيام ابراهيم الخليل كانت عامرة ، وأنه أحد حادمه البعارار الدمشقي منها ، ولا أقول إلا ما رأيته فيها : قد شبهتها من الصالحية بمركب سائر في بحر أحصر ، وقد ذكرتُ عنها وعن أهلها ما هو كاف بكتاني «صحة المتروح ورواح العارب»

(187) النصوص من كتاب مجمع المسرات ، ص 261 وما بعدها .

وما رأيت دمشق ووفرها عن عكا ، اكرتيتُ محلاً في حارة باب توما حاصة الحموي
الذي كان أعمى وصاحب لوكدة .

* * * * *

شغلي الطبي في الشام

لما اكرتيت محلي في الشام وعرمت على الإقامة فيها ، كتبتُ إعلان وشرته في المدينة
وهذا نصه .

قد حصر إلى هذه المدينة الدكتور شاكور الحوري ، وهو تلميذ مدرسة القصر العيني
بمصر ، ويعاين المرضى بحله الكائن باب توما في لوكدة الحموي . ومن اختصاصاته مداواة
أمراض العين على اختلافها ، ولا يطلب أجرة إلا بعد شفاء المريض .

وجعلت هذه الحمة الأخيرة روحاً عظيماً عني ، وفي اليوم الثاني كان اردحام المرضى
لا يُقدَّر . وهم يريدون على المائة أعمى تقريباً ، فصعقتهم بالدار وابتدأت بمعائنتهم ، وكنتُ
الذي أرى داءه غير قابل للشفاء أحرجه من الصف وأرسه من حيث أتى ، أما الباقون
فكلفتهم أن يعودوا إلى منزلي لإجراء العملية لهم . واشترط عليهم أن يقوا في منزلي معرفة
مخصوصة لينالوا الشفاء التام وأحرقت منها خمس عمليات كحدقة صاعية وكتركتنا (ماء
ررقاء) .

وبعد ثمانية أيام شفى الخمسة عميان ، وكانوا من الذين يمشون أمام الأموات
ومشهورين بعماهم ، فأبقيتهم عندي إلى يوم الجمعة وكلفتهم أن يذهبوا إلى الصلاة في الجامع
الأموي وأن يعودوا إلى منزلي ، وأبقيت عصبهم رهأً عندي . وبعد الظهر رحعوا إلي ومعهم
حمٌ عمير يتعجبون من شفائهم .

ورأيتُ فتاة تسوّل بالبحلات العمومية وعيها شطراء ، فأعطيها ليرة مرساوية لتقبل
معي أن أحرري لها عملية ، وأبقيتها عندي حتى نالت الشفاء وعادت إلى صحتها . فكان كل

من يراها يعجب من شعائنها ، وهذا العمل هو الذي سبب لي السحاح ، لأن أطباء دمشق المحصوصين لأمراض العين كانوا من الدّحّالين من عائلة بيت صحر وعائلة أخرى تدعى عائلة الكفّاي (188).

وبعد مدة خرجت من متولي الأول واستأجرت محلاً شرقي المطير كحانة المارونية ملك السعبي ، واضطرت أن اشتري أتاناً وأمتعة لأن المتزل الذي كنت استأجرته كان بأمتعة من صاحبه .

ناشد باشا

حين أُتيّت إلى الشام كان والياً عندها صاحب الدولة الحاج ناشد باشا ، وبعد مدة عُزل وتعين محله ضيا باشا (189).

ضيا باشا

هو أحد الولاة العظام ، تنقّى عبومه في أوروبا ، وكان متمدداً جداً عفيف النفس ذا حمية وعيرة . أحرى أن أوروبا ليست كما طر فيها وأن المعارف سائدة بكل نواحيها ، بل فيها من هم في حال من الجهل عظيمة ، وقد أحرى القصة الآتية .

قال : كنت مسافراً بالسكة الحديدية ، وكان فيها عدة ساء يتكلم عن الشرقيين ويقبل لبعضهم أن لأهل الشرق قروناً تست في رؤوسهم . فبعد ذلك تقدّمتُ إليهم كُشفتُ عن رأسي وقت لهن : اسبح لي أيتها السيدات أن اعاطكن في ما ثقله ، فما أنا شرقي

(188) يذكرنا هذا بما روتّه فاطمة البديوي عن مداواة العيون بدمشق آنذاك حوالي عام 1875 .

(189) كانت ولاية راشد ناشد باشا 8 أشهر في عام 1876 ، ثم وليها ضيا باشا في نفس السنة .

ورأسي لا قرون فيه ! هم يصدّقون أنني شرقي ، بل قس لي : لو كنت من هذا الجنس لكان
برأسك قرون ! فانظر الى هذا الخهل السائد في بلاد معارف .
وأهم ما فعله صيا باشا في الشام هو .

حجرة صلاح الدين الأيوبي

عندما رار صياء باشا قبر صلاح الدين الأيوبي ، ورآه بحالة دراسة ، قال لمن حوله :
أهكذا تفعلون بمحافظ الدين والإسلام ومدينة ؟ ألا تدركون أنه هو الذي أعاد هذه البلاد إلى
الإسلام نعمة وجهاده ، وولاه لما كنتم فيها الآن ؟ فيلزم أن نصح هذه القبة ، ونقيم له مقاماً
لائقاً به .

فادّعوا عدم وجود الدراهم . قال : إني أوحدها لكم . وعمل لائحة ورّع بها عني
بعض الدّوات قدرًا معيولاً ، حتى جمع ملعاً غير يسير ، وأقام حجرة عظيمة نافية حتى اليوم .

وصلاح الدين الأيوبي هو الذي حكم سوريا ومصر وكان أعظم حاكم بالعدل
والإنصاف ، وقد حفظ له التاريخ ذكراً محمداً وحسناً وشهامة لم يذكرها لسواه ، حتى أن
أعداءه الصليبيين يشهدون له هذه الشهادة . وكان عدوه الأكبر ريكاردوس قس الأسد ملك
الأكبر ، فكاننا عند انتهاء المواقع يحتمعان ويأكلان سوياً ، وفي الحرب يعودان إلى العداء⁽¹⁹⁰⁾
ولما تماديا رجع ريكاردوس إلى ممكنته وبقي صلاح الدين في بلاده ، وتوفي بدمشق ولم

(190) ليس ذلك بصحيح ، وهذه الرواية روج لها القصاص السكوتلندي الشهير
والتر سكوت Sir Walter Scott في روايته المعروفة «الطّلسم» *The Talisman* .
أما الواقع فإن الملكين كانا يتهاديان ويتبادلان الأطعمة ، دون أن يلتقيا ولا
مرة واحدة ، بل كانت هناك لقاءات عديدة بين الملك ريتشارد وأخي صلاح
الدين الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب ، وما يهم ذكره أن
ريتشارد عندما عجز عن استرداد القدس الشريف الذي حرّره صلاح الدين
عقب حطين عام 1178 م ، لم ير بُدّاً من استجداء الصلح مع السلطان .
ولقد فصّلنا في كل ذلك بنشرتنا للكتاب الرائع الذي وضعه بهاء الدين ابن
شدّاد في سيرة السلطان الناصر صلاح الدين : «النوادر السلطانية
والمحاسن اليوسفية» ، صدر عن منشورات دار الأوانل بدمشق 2002 .

يُحَلَّف شيئاً من المال ، فذهب في القلعة الأول ، ثم نُقل إلى الصاحبة ، ثم إلى حاش الحامع الأموي الشريف حيث لم يرل هناك .

وقد أناط صبا باشا هذا العمل بصاحب الدولة أحمد عرت باشا العابد ، الذي كان يومئذ رئيس الأقالام بدمشق ، والذي بنى الحجره رحل نصراني من دمشق اسمه الوردى وهو من السحاتين المشهورين .

حالة صلاح الدين

قد أحرى يومئذ دولتو أحمد باشا والوردى الذي كان نحاً مسيحياً أهما حين أرادوا نقل التابوت إلى الحجره وحدوا الخنة على حالتها الطبيعية ، كأما دُفنت حديثاً ويس من ستمائة سنة ، وكان لم يرل شعر رأسه وشاربه وخيته (191) .

ولم تطل مدة صبا باشا ، حتى نقل إلى أدربه ، وتوفي فيها ، وحلفه دولتو «حودت باشا» إلى الشهرة إلى اكتسبها صاحب الدولة حودت باشا لتأليفه تاريخ الدولة العلية وعلومه الشرقية وتعه في ترتيب ايجمة والطامات ، كانت عظيمة جداً . وقد اتى معه احد مواطيا الدكتور الياس أمدي مطر ، وجمعه طبيب بندية الشام بدلاً عن الدكتور كوسيني .

مستشفى نور الدين

(191) هذا الأمر وارد بحسب معذل الرطوبة الموجود في الأرض . ولقد روى لي أستاذنا وصديقنا الحبيب الأستاذ هاني المبارك ، أنه حضر بنفسه في عصرنا عملية ترميم أجريت لضريح البطل صلاح الدين ، وشاهد بنفسه جثمانه ، الذي لم يزد على بقايا عموده الفقري . وطبيعي أن فتح الضريح في عام 1876 ودخول الهواء إليه قد أدى إلى تكاثر البكتيريا التي أدت إلى التحلل النهائي للجثمان . وإن كان كل ذلك لا يعني شيئاً !

كان في دمشق مستشفى قديم جداً ساه نور الدين ، وأوقف له أوقافاً عظيمة وعيّن فيه أطباء ومستخدمين عديدين ، منهم فئة وحدثت أسماءهم في دفاتر قديمة في هذا المستشفى ، كانت تُدعى المطمّنين ، ووطيئة المطمّن أن يجلس في عرفة قرية من محل المريض بحيث يسمع صوته ويقول : إن الطبيب أحبرني عن فلان البائس في الفراش الفلاني أن مرضه بسيط جداً وسيتشفى عن قريب . فحين يسمع هذا القول يتشّط ويكون النشاط سبباً لشفائه ، فانصر إلى هذه إعادة الحمية التي عمت عنها مستشفيات عصرنا (192).

أما حالة هذا المستشفى الآن فهي عبارة عن ساء قديم من تلك الأيام ، وأوقافه قديمة جداً لا تكاد تمي راتب اساطير والكاتب والمصاريف التي يتطلّوها خمسة أو ستة مرضى . وقد حصّوه بمحاجر (193) ، ومن واحداً طبيب السنية رباته وعيادة المرضى كل اسبوع على الأقل (194).

(192) حقاً فهذا أمر لطيف ويدل على سموّ الحسّ الحضاري لأهل ذلك العصر . وحكاية هؤلاء المطمّنين في البيمارستان النوري ودفاتر أسمائهم ينفرد بذكرها الدكتور شاكور الخوري .
(193) ولذلك صارت كلمة «المريستان» بدمشق تعني مشفى الأمراض العقلية ، أو «العصفورية» كما يسمّيها بعضهم . أما أصل الكلمة ففارسي مركب من مقطعين : بيمار - استان ، أي محل إقامة المرضى ، أو مشفى . يحكي الرحالة الأندلسي ابن جبّير ، حينما زار دمشق عام 580 هـ ورأى بها البيمارستان النوري : وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موقّون ، نعوذ بالله من المحنة وسوء من القدر . وتتدّ من بعضهم النوادر الظريفة ، حسبما كنّا نسمع به . ومن أعجب ما حدثت به من ذلك : أن رجلاً كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتي مسحة جمال واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به ، فزاد كلفه حتّى اختبل وأدّى إلى المريستان ، واشتهرت علته وفضيحتة بالصبي ، وربما كان يُدخله أبوه إليه . فقبل له : اخرج ، وعُدّ لما كنت عليه من القرآن ! فقال متمجناً تماجناً المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما بقي في حظي من القرآن شيء سوى : { إذا جاء نصرُ الله } ، فضحك منه ومن قوله . ونسأل الله العافية له ولكلّ مسلم . فلم يزل كذلك حتّى توفي ، سمح الله له .

(194) بعد هذه الفقرات في نص الدكتور شاكور الخوري معلومات تاريخية هامة عن شمدين أغا الدقوري ، أحد أعيان الأكراد بدمشق في عصره ، وهو

الذي تولى ابنه محمد سعيد باشا إمارة الحج الشامي (1870-1892 م) ، ثم
تبعه في ذلك حفيده عبد الرحمن باشا اليوسف (1892-1918 م) .

نبذة تاريخية
في الحرف الدمشقية

تأليف
الياس عبده قدسي

قدّمها المؤرّر المستشرقين
المعقد في لايدن هولاندة 1883

توطئة

أنشاء بحثي عن بعض المصادر التاريخية المتعلقة بمدينة دمشق ، عثرتُ بمصادفة على رسالة صغيرة هامةٍ تدحل في نطاق التاريخ الحصارى لدمشق ، عنوانها : «سُدة تاريخية في الحرف الدمشقية» ؛ فتيّستُ على الأثر نُذرةً هذه الرسالة ، إذ أنّها مطبوعة في لايدن هولاندة عام 1885 ، فصار من المتعذر حقّاً العثورُ عليها لمراجعتها والاستفادة منها ، وقد لاحظتُ أنّ

بادراً ما أشار إليها أحدُ الباحثين المعاصرين ، واحتفى اسمُها تقريباً من قوائم المصادر والمراجع التاريخية المتخصصة .

ولذا رأيت من المفيد إعادة نشر هذه الرسالة من حديد مع شيء من التحقيق تعميماً لعائلتها ، وتيسيراً في وضعها بين أيدي الباحثين المهتمين بتاريخ مدينة دمشق وما يتعلق به

لا ريب أنَّ البحث في موضوع الحرف الدمشقي أمر هام للغاية ؛ إذ يمكن التعرف من خلاله على سمة واضحة من سمات الحضارة التي كان يطغى بها مجتمع الدمشقي قبل قرون مضت . ومن المعلوم أنَّ بحث تاريخ الصناعات الحرفية لمجتمع مدينة ما كفيل بإعطاء صورة صادقة عن ركيز أساسي من أركان الحياة الاجتماعية السائدة فيها لعصر من العصور ، ذلك لأنَّ الحرف ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة عامة الناس ، صالماً أنَّها تشغل نصف الاهتمام اليومي لكل فرد منهم دوماً استثناءً .

ويعكس تطور الحرف الصناعية والصِّبة مدى رقي الثقافة الاجتماعية ، ومدى رُسوح عُصر المدينة الفعَّال في حياة عامة الناس .

تكرر مكانة هذه الرسالة التي بين أيدينا في أنَّها تُدوِّن لنا معلومات واقعية عن عطاء الإدارة الحرفية في مدينة دمشق⁽¹⁹⁵⁾ قبل التحديث الذي طرأ على مجتمعها منذ بدايات القرن العشرين ، والذي رافقه قيام تحوُّل جذري في جميع ظروف حياتنا ، انعكس منه ما انعكس على الحرف الدمشقي فاندثر بعضها لقبة الحاجة إليه⁽¹⁹⁶⁾ .

وظهر منها ما هو حديد طبقاً لحاجات المدينة المعاصرة . أصف إلى ذلك تحوُّل النظام الحرفي من بدوي إلى آلي . ومن فردي إلى اقتصادي عام . وانتقال إدارته وتنظيمه تدريجياً إلى أيدي الدولة بدلاً من إدارته الشعبية المستقلة .

ونظراً إلى ما سبق تتبيّن ضرورة دراسة نُظم إدارة الحرف ما قبل التحديث ؛ لفهم علاقات مجتمع الاقتصادية التي رسمت - وترسم دائماً - دوراً هاماً في تسيير مجريات أموره

(195) وذلك في القرن التاسع عشر ، بأواخر عهد الدولة العثمانية .
(196) تجد بعض هذه الحرف البائدة في «قاموس الصناعات الشامية» للقاسمي .

العامة . ولكم يبدو لنا يسر هذه الدراسات إذا ما عينا أن مجتمعاً يومذاك كان يستوحي مواريس نظمته الاقتصادية من تراثه وفكره الخاص ، لا من الأفكار والنظم المحبوبة من العرب . وهذا يهيئ أن الدراسة تحيى عددٌ عني غاية من الصفاء والاسحام ، لاعداد المداخلات العربية المتابعة فيها .

نقد كانت ممارسة الحرف اليدوية صفةً لازمةً لجميع أفراد المجتمع الدمشقي فيما مضى ، فقل أن تجد شخصاً مهما كانت مكانته الاجتماعية لا يُنظر مهنةً يدويةً ما . ويذكر الشيخ نجم الدين القرني في كتابه «الكواكب السائرة بمنافع أعيان المائة العاشرة» (197) أعلاماً كثيرين بدمشق كانوا من أكابر عصرهم وعلمائه . ومع ذلك لا يستكفون أن يعيشوا من عمل أيديهم في مهني شتى ، كسج المصاحف ، والنورقة ، وصناعة الحر ، وسج المصريات وغيرها ، غير معتبرين أن من شأن ذلك الخط من مكانتهم وقدرهم (198) .

أما بعد ذلك فقد صنعت الآلة ، وصارت الحرف والصناعات مختصةً بأصحابها فقط ، وأضحى تأمين حاجات المجتمع منها موطاً بقتة قليلة ؛ لظهور إنتاج الحملة المكثف ، وعرف الدقون عنها مصرفين إلى المهني الأخرى الإدارية والعلمية .

إن الباحث في مجال تاريخ الحرف الدمشقية لو رام الاستقاء من المصادر المختصة لرب يجد سوى بعض البحوث القليلة ، أذكر منها :

- «كتاب في الحسة» (199) ، ليوسف بن عبد الهادي (توفي عام 909 هـ) . :
وهو رسالة موحدة ، ذكر فيها صاحبها قواعد الحسة على صنائع دمشق ، ويستفاد من تعدده لأسماء هذه الصنائع التي كانت بدمشق في عصره (أواخر عهد المماليك) .

(197) صدر بثلاثة أجزاء في منشورات الجامعة الأميركية في بيروت ، 1945 - 1959 .

(198) ناهيك أن سلاطين بني عثمان أنفسهم ماكان واحد منهم يسعه جهلُ صنعة يدوية ما ، فكان فيهم الخطاط والنجار .. وغير ذلك .

(199) سننشر هاتين الرسالتين ضمن كتابنا : «دمشق في العهد المملوكي» - الجزء الأول .

- «رهة الرفاق عن شرح حال الأسواق»⁽⁵⁾، نفس المؤلف :

رسالة موحدة ، فيها أسماء بعض أسواق دمشق التي كانت في عصر الكاتب ، وذكر ما يصنع ويبيع بها .

«قاموس الصناعات الشامية» (بذائع العرف في الصناعات والحرف)⁽²¹⁰⁾، محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وحليل العظم .
وهو أهم مصدر يعدد حرف دمشق وبيان أوصاعها في القرن التاسع عشر ، وهو بالإجمال أحسن ما كتب في موضوعه .

دراسات وتعقيبات على قاموس الصناعات ، منها :

«المظاهر الاجتماعية في قاموس الصناعات الشامية» ، لطاهر القاسمي⁽²⁰¹⁾ .

«أصواء على قاموس الصناعات الشامية» ، ليدر الدين السباعي⁽²⁰²⁾ .

- «فنون وصناعات دمشقية»⁽²¹³⁾، لمير كيال :

وهو كتاب حديث ، يتناول الموضوع من ناحية فنية ، مع تقديم موجز بعض الحفريات التاريخية

فعمسى أن يكون في «السنة التاريخية» التي يقدمها اليوم سند للنقص ، وهي تفرّد موضوعها تكمل قاموس الصناعات الشامية الذي اكتفى سرد أسماء الحرف بدمشق وبيان معانيها وأحوالها ، بينما تُعنى هذه السنة بشرح الصام الإداري الحرفي الذي كانت تنتظم فيه تلك الحرف سابقاً ، في القرن التاسع عشر .

-
- (200) صدر بجزئين في دمشق عام 1960 .
(201) مقالة في كتاب «أبحاث المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام» ، المنعقد بدمشق 1978 ، 1 : 156 - 175 . وأعيد نشرها في مجلة التراث العربي ، 1 : 126 - 139 .
(202) كتاب نشرته دار الجماهير بدمشق 1977 .
(203) نُشر بدمشق ، وزارة الثقافة 1962 .

وهي فوق ذلك تكشف أعرافاً وتقاليداً ارتبطت بالحياة الحرفية في دمشق رداً طويلاً من الرأس ، ثم احتفت مع تعاقب السنين حتى صارت في أيامنا سيئاً مسياً .

* * * * *

طُبعت هذه المدة التاريخية - كما أشرت آنفاً - في لايدن بهولادة عام 1885 بالغة العربية ، وقد قام نشرها المستشرق السويدي المعروف كارلو لاندبرج ⁽²¹⁴⁾ Carlo Landberg مع تصدير كتبه بالعربية ، وأضاف إليها بعض الحواشي .

وها أنا ذا أسوق ترجمة المقدمة الفرنسية ، ومن بعدها نص الرسالة الذي أضيفت إليه بعض التعليقات والملاحق . ونميراً لتعليقاتي من حواشي القدسي ولاندبرج دُيئتُ كلاً منها باسم صاحبه . وقد حافظتُ على لغة النص الأصلية كما هي ، رغم ما يفشو بها من أخطاء وتعاير عامية ، وذلك لأنه نصٌ كُتِبَ منذ قرنٍ مضى ، والأولى عدمُ التعديل به إلا حيث تستوجب الضرورة .

6 كانون الأول 1981 م

أحمد إيش

* * * * *

(204) مستشرق معروف (1848 - 1924) ، ترجمته في مجلة المجمع العلمي ، 445 : 4 ، وأعلام الزركلي ، 6 : 66 .

ترجمة المؤلف (205).

إلياس عبده قدسي

1850 - 1926 م

ولد بدمشق عام 1850 م ، وأخذ مبادئ العلوم في المدرسة المطيريكية بدمشق ؛ فتلقّى فيها أصل العربية واليونانية ، ثمّ وافتى مدرسة عبطورا في لسان (وكانت من أشهر المدارس الثانوية الخاصة) فأتقن فيها الفرنسية . وبعد ذلك عاد إلى أُنيسة ، ودرس في حامتها ستّ سائر ، ونال منها شهادة الّيسانس في اللغة اليونانية القديمة والحديثة وفي الفلسفة . وتعمّم مددئ الإيطالية والإنكليزية والتركية .

عاد سنة 1872 إلى دمشق فتولّى بناية شؤون القفصليات اليونانية والبرتغالية والبشحيكية والهولندية ، وطلّ على ذلك إلى سنة 1888 م . فولّي قفصلاً لليونان ثمّ وكيلاً لسمسا والمحر ، وقفصلاً لبرتغال إلى قبيل وفاته (206).

وقد تعبّر عصفوا في المجمع العلمي بدمشق (مجمع اللغة العربية الآن) ، وقام تأسيس (الجمعية العلمية التاريخية) بدمشق عام 1878 (رالت) . وكان قد بُدب لإدارة مدارس ابروم بدمشق ، فأشأها إنشاءً حديثاً ، وطلّ يديرها ويعمّم فيها أحياناً مدة 33 سنة .

كان القدسي نعوياً وأديباً وشاعراً وناحناً بالتاريخ ، وكان المرحع الأوّر بدمشق في

(205) هذه الترجمة مُستقاة من : معجم المطبوعات لسركيس ، ص 1496 - 1497 ، مجلة المجمع العلمي ، مجلد 6 (عام 1926) ، ص 370 - 372 ؛ الأعلام للزركلي ، 1 : 349 ؛ معجم المؤلفين لكحالة ، 2 : 315 .

(206) ومراراً ما نجد اسمه في السجل الرسمي السنوي «سالنامه ولايت سوريه» بالتركية : يونان قونسولوس مأمورى موسيو الياس قدسي . كما في العدد 24 لسنة 1891 ، ص 131 .

اللمحة العامية (على قول العلامة محمد كرد علي) ⁽²⁰⁷⁾. وله نحو 20 قصةً تمثيليةً طُبِعَ بعضها ، ورسالة في مسك الدفاتر (طُبِعَت) ، ومقالة في الحرف الدمشقية (وهي موضوع شرتنا) . وقد جمع طائفة من الأمثال الدارحة بالعربية وقابلها بما يُماثلها في اللغات الأوربية ، بلغت نحو 3000 مثل (لم تطع) .

ومن أبحاثه : مقابلة بين اللغة اليونانية القديمة واللغة العربية ، والبرهان على اشتراك البعثين في بعض الاشتقاقات (نشر بعضه في مجلة مجمع دمشق) . وكان له وبعث بالقرائات ، أي الشعر العامي ، فظم فيه بعض النواذر والوقائع ، ومنها ما نقله عن لافونتين (La fontaine) القصصي العرسي المشهور ، ومنها ما وضعه وصفاً ، ويدخل ما نظمته في محلدتين لم يُطبعَا ، وثمّا حدا به حدو لافونتين : «نواذر وفكاهات من أحاديث الحيوانات» ، باللغة العربية الدارحة (طبع بدمشق 1912) .

ونوحي القدسي بدمشق عام 1926 م .

* * * * *

(207) نتمنى اليوم لو كان القدسي جمع في موضوع اللهجة العامية الدمشقية مصنفاً وافياً ، على غرار ما جمعه علامة حلب خير الدين الأسدي في موسوعته المقارنة عن لهجة حلب وتراثها اللفظي . فهذا الأمر لم يُعن به إلى الآن أحد بما فيه الكفاية ، ولا شك أن دراسة أصول اللهجة العامية من ألفاظ وكنائيات وأمثال ، أمر يفيد البحث في أصول التراث الشعبي أيما إفادة . وكنا جمعنا من هذه الألفاظ والكنائيات الكثير مما يُعَدُّ بالآلاف ، ورددناها إلى أصولها من الفصحح واللغات الأخرى ، التركية والسريانية والفارسية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية ، مع دراسة لغوية مقارنة عن اللهجة العامية بدمشق . وسنعمل على نشرها يوماً .

م يصلي الموضوع الذي بين أيديكم إلا بعد انقضاء هذا المؤتمر ، وكان قد تحرَّق تماماً بسبب أحجرة التطهير الريدية بدرحة أني في نادى الأمر قطعت الرِّحَاءَ هائياً من إمكانية إعادة إنشاء النص من حديد . ولحسن الحظ كانت مادته مأنوفة لي تماماً ، وبالإضافة إلى ذلك كنت حريصاً على أن أُسِرَ للشرقيين بهذه الشرة مدى رعتنا في رؤيتهم مهتمين قليلاً بالنعم لأحل العلم المحرَّد . فلربما كانت هذه المرة الأولى التي يقوم فيها أحد العرب بتقديم عمل أمام مؤتمر المستشرقين . وقد لا يعي ذلك أن هذا العمل مكتمل تماماً ، ولكن المؤلف استطاع أن يقدم فيه كثيراً من التفاصيل ، وهو بالدرحة الأولى أضحى في إعداد موضوع دي فائدة وافية وأهمية كبيرة .

إن مؤلفنا الشاب الذي تلقى ثقافته في الخارج بمتهى العناية ، قد وعدنا بتقديم الكثير إذا هو شاء متابعة تمرُّعه لعلم . ولقد كنتُ أعمل دائماً على نشر الفكر العلمي الأوروبي في الشرق ، وقد أحدثتُ على نفسي العثور - في مكان ما - على تلميد يتقيدُ بمتابعة بصاحبي التي تلقَّيْتُها بدوري عن أساتذتي في أورنا . ولعلي لم أسعَ في ذلك هاءاً ، فيبدو أن السيّد إلياس قدسي قد وضع نفسه قيد العمل بكثير من الاندفاع . وها هو الآن قد وافانا بمادّة مشوّقة لعناية ، حذيرة بأن تُقرأ مع بالغ السُرور .

قال امؤرَّج الحكومي السُّويدي «كأير» Geijer : «إن تاريخ الشعب السُّويدي هو تاريخ موكه» . كانت هذه البديهة تدو لي دوماً مشكوكاً في صحتها ، سواء فيما يتعلّق بتاريخ السُّويد أو غيرها من البلدان ؛ فإن تاريخ الشعب مسيٌّ دائماً - بشكلٍ أو بآخر - بما فيه من أساطيره وقوانينه الاجتماعية وعاداته وحرافاته ومعتقداته وكيفية مواجته مختلف القضايا .

إنه في واقع الأمر ، هناك في هذا الجمهور من الأفراد ، بعيداً عن كرسي الملكية أو الوزارة تدور الأحداث الكبرى ، أكثرَ فاعليّةً وأطولَ استدامةً بآثارها من يعود الإرادة الملكية .

ولم يحدث سوى في الأرملة القريّة الناصية أن بدأت هذه الطريقة قديمة العهد في كتابة

التاريخ بالتخلي عن مكانها لأخرى مختمة ، حيث يحتل الشعبُ والأمةُ والاتحادات والنقابات الحرفية والأقاليم ، وحتى الأسرُ نفسها تحتل مكانة بارزة متميزة .

هذا الصَّرب من التاريخ (الذي أَسَمَّيه : التاريخ الإثنوغرافي (208) Histoire Ethnographique) أكثر إهمالاً في الشرق ممَّا هو عليه في أوربا (209).

جميع المستشرقين يعرفون آية موضوعات هي التي تدرجُ حولها كلُّ التواريخ المكتوبة باللغة العربية تقريباً . الخليفة - الوزير - حروبهم وملذاتهم - محاسنهم ومساوئهم . وكلُّ ذلك يُسجَّل صمراً مشهوداً مسجلاً بالوادرات التي لا تدُّ منها دائماً ، مع أشعار متممة بعض الأحياء ، ومقالات أدبية تأتي غالباً عن أهمية تُذكر . وهذا بالنسبة لعام أوروبِّيٍّ ناحت يعني التقاط الشوائب المُعترية من التاريخ الاجتماعي للمشاركة ؛ لكي تتبين لنا معالمُ حياتهم وأعرافهم وعاداتهم وصيغتهم الاجتماعية الدنيا .

ليس من السَّهل كتابة هذا التاريخ الإثنوغرافي لعصور الماضية ، لكنني مُقتنع بأنَّ تحقيق ذلك يُمْ

(208) الإثنوغرافيا (Ethnographia) كلمة منجوتة من جذرين باللغة اليونانية هما (Ethnos) وتعني : الشعب ، و (Graphia) وتعني : وصف . ومعنى الكلمة الحرفي : وصف الشعوب . ومعناها الاصطلاحي العلمي في الدُّول الغربية : (وصف الأعراق البشرية) أي : من ناحية أصولها وتطورها البيولوجي . والمعنى هو ذاته في الدُّول الشرقية ، مع فارق إضافة الناحيتين الاجتماعية والثقافية . وهو فرع من (علم الإنسان الطبيعي (Anthropologie) . وعلى ذلك يكون معنى التاريخ الإثنوغرافي : التاريخ الشعبي الوصفي . (إيبش)

(209) في هذا الرَّأي شيء من الحق ؛ إذ أنَّ مؤرخينا في العصور المتأخرة لم يُعنوا بتاريخ حياة عامة الشعب ، بل اقتصروا على كبار الشخصيات المشهورة ، اللهم إلا ما كان عن طريق تدوين المذكرات اليومية التي تجد فيها شيئاً من هذا القبيل ، مثل : حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق ، في القرن الثاني عشر للهجرة . وتعليق أحمد بن طوق ، في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين . وفي الأخيرة معلومات عن المجتمع الدمشقيِّ العام في غاية الأهمية بفترة جدُّ حرجة ؛ هي نهاية عصر حكم المماليك واقترب زمن الفتوحات العثمانية .

وكذلك فمن المصادر الهامة لدراسة حياة العامة في مجتمعاتنا : رحلات السَّيَّاح والأثريين الأوروبيين (في العهد العثماني خصوصاً) ، انظر مقدِّمتنا لرحلة الفارس دارقيو إلى دمشق . (إيبش)

عن طريق استخلاصه من الشرق الحي . وأهم ما في ذلك الإسراع ، لأنه مد نصعة عقود من السنين لم يعد للحياة الشرقية استقرارها للمعهود .

وللشاح في تمييز ما هو قائم منذ القديم ، وللإصعاء إلى صدى الماضي العابر يسعي للمرء قطع أي اتصال وبين المدنبة الأوربية . والمعتبر في وسط المجتمع الشرقي ليس إلا ، هذا المجتمع الذي لا زال مؤثماً ولو حريئاً . دوماً إدراكه مع على بقايا حصارية عريقة .

وبتوصل إلى نتائج مرضية ، لا يكفي القيام برحلة في رنوع الشرق ولو كانت لسنة أو اثنتين ، بل هذا يرم العيش هناك طوال سنوات عديدة مع تعاطي التجارة اخصوصية والتعامل اليومي مع كافة طبقات السكان .

إن الثمود إلى أعماق الحياة الاجتماعية والعقلية للشرقيين بالنسبة لشخص أوربي هو أمرٌ حذ شاق . وسأتحراً على القول بأن معارفا في أوروبا عن الشرق ما ترال حتى يوماً هذا صخلة تماماً .

باستطلاع هذه الحال انني تحري عنها الأمور ، نجد أنه ليس بوسعنا سوى أن نوحه إلى الشرقيين أنفسهم راحين مهمهم ترويدا بالوثائق المدرسة التي تحتاج إليها ، ولكن بما أن هذه الوثائق تعتبر حديرة نكل اعتبار من حاسب العلماء الأوربيين ، فمن الضروري قطعاً أن يتبع رملأنا الشرقيون في أبحاثهم مزيداً من التحقيق الذي لس بالنسبة هم أمراً مألوماً (وليس من أي داع هما للتشكيك في صحة مقالي) ، فإن أبناء الشرق عموماً لم تُتاح لهم فرصة الدراسة في أوروبا ؛ حيث المرء معتاد على البحث عن أصول كل الأشياء وأسباب وجودها . وأقول : أن ليس هناك في الشرق كثير من الأشخاص الذين لديهم الرعاية الكافية في مد أيديهم بأنحاشها ، بيد أنه يبقى العصب القليل مهم سيفعلون بكل ترحاب وإلى هؤلاء في الواقع أتوحن بتقديم الخطاب باسم أعضاء المؤتمر الدولي لمستشرقين .

وحس كل سرورٍ رحب بهذا النتاج الكبر لسيد إلياس قدسي ، وكم تمنى له أن يجد من يحاكيه به ، وسوف يكون مستعدين على الدوام لتسهيل طبع أعمالهم دون مقابل ، إذا نحن رأينا فيها ما يستحق ذلك . وأملنا أن يصعب العلماء الشب في الشرق أنفسهم قيد البحث والدراسة ، غير مهتمين بسوى المواضيع التي يعرفونها حق المعرفة ، وبما لم يستطع الأوربيون التعمق فيه بشكل يسير .⁽²¹⁰⁾

(210) النشرة الشرقية الوحيدة التي تزعم بكونها علمية هي المجلة الشهرية

وعلماً مميّ بأنّ هذا العمل الحاضر سوف تورّع منه مئات السّح في الشّرق ، فقد اعتبرت أنّ القصّد من كتابة هذه الكلمات هو حفّز رملاحي لموحددين عبي السّاحل الأحرار البحر الأبيض المتوسط ، على السّير في إثر خطى السيّد إلياس قدسي . نقد استهّل لهم الطّريق ، وعى الآخرين الآن أن يحدوا حدوه .

أمّا بالنّسبة لهذا العمل الذي أنتم بصدده قراءته فاسمحوا لي أن أعلّق عليه بعض الكلمات :

إنّ لدى الكاتب طمناً في استخدام اللّغة المكتوبة التي يجدر بالاجتماع الرّاقى المعاصر استعمالها . وهي عى سبل الإيضاح ، لا يحتاج معها إلى الاستعانة بالمعجم التّقليدي ، وحذاً لو أنّ الجميع يعملون إلى هذا الأسلوب ؛ إذا هم أرادوا فعلاً أن يكونوا بفاعلين لشؤون المشرفيات .

وكون السيّد قدسي مائلاً إلى أيّ مطلق الحرّيّة في التصرف بعلمه كما أشاء ، فقد عدّلت فيه الكثير : أساء الكاتب استعمال النّحو العربيّ على شكل لم يرقّ لي ، رغم أنّي نصحتُ به إذا هو اهتمّ بمتابعة كتاباته - بأن يزيد عايتّه بما يُحصّصُها للنّشر ؛ إذ لا يتوارى دائماً الصّديق الذي يتكفّل تصحيح النّصّ وتقيحه وتهذيبه .

يرقى تاريخ الثّقافات الحرّفيّة بدمشق إلى أرميّة ماضية بعيدة ، ولا زالت ممارساتها محفوظة كما هي بما يملك إثباته وتيسّره . والمعلومات التي روّدا بها السيّد قدسي هي - بدون شكّ - قيّمة حدّاً . عدا عن أنّه لم يستوف بها الموضوع حقّ قدره كما ينبغي . فكلّ ثقافة حرّفيّة كان يجب أن تُوصف عى حدة .

وإنّ - بالمأساة - أمل أنّي تمكّنت في الجزء الثّاني (الخاصّ بدمشق) من كتابي «الأمنال والأقوال للأثورة للشعب العربيّ» من تقديم أكثر المعلومات تفصيلاً حول هذا الموضوع ثمّ صار محوريّ حتى الآن ، وقد جمعت معظمه من دمشق .

ولقد أحسن السيّد قدسي تماماً بعدم تحويل لغة الملحاطات في النّصّ ، فالتّعديل فيها غير وارد إطلاقاً .

«المقتطف» ، ولكثّها غالباً ما تكون مملوءة بالحشو بدلاً عن أن تكون مفيدة لنا . (لاندبرغ)

أمّا المسألة التي طرحها الكاتبُ في آخر بُدَيْتِهِ فتبدّر لي غير مُحْدِيَةٍ ، ونَرْكُهَا لِلْمُحْتَصِرِّ لِيَرُدُّوا
عليها أحذر وأولى .

وبشأن إنشاء النَّصِّ أَحْيَرٌ ، فقد نَرْكُهُ إِجْمَالاً كما استتمُّهُ ، ولم أُعَدِّلْ فيه إلّا في المواضع التي
رَلَّ بِهَا قَلَمُ الْكَاتِبِ سَهْواً فأوقع أخطاءً سافرةً ، والحواشي بالغة العرسيّة هي من وصعي .

كارلو لانديبرغ

* * * * *

نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية

جمع الياس بن عبده بك قدسي قنصل دولة هولانده في دمشق

قَدَّمَهَا لِلْمَجْمَعِ
الْعِلْمِي الشَّرْقِيِّ الْمُنْتَظَمِ فِي مَدِينَةِ
لَيْدِنِ
1883

إنَّ البحثَ الذي أقدمتُ على الخوض فيه أمامَ حفيظكم الموقر هو بُدَّةٌ تاريخيَّةٌ عميقةٌ عن الصَّنَاعِ ، أو ما يُقال له (الحِرْفُ) في مدينة دمشق . والذي بعثني على ذلك هو أنَّني قرأتُ بشرف معرفة العالم العلامة والسحر الفهامة الدكتور «كارلو لاندرع» الأسوحي الشهير ؛ إذ سافرتُ معاً من بيروت إلى دمشق وكان آتياً من ممكة هولانده بقصد جمع لغة العامَّة في دمشق وضواحيها .

ولما علمتُ بُعَيْتَهُ التي من أحلها تكثف أن يُكابذَ مشقَّات السَّفر ويحتملَ مصارِفَهُ ، عرَّضتُ نفسي عليه أن لا يؤخَّرَ عني الثَّعب في كلِّ ما يحتاجُ إليه للوصول إلى بُعَيْتِهِ . وعرَّضتُ عليه أيضاً ما كتبتُ أحداً به من جمع الأصول المشتركة بين اللغتين العربية واليونانية . ورحوته أن يعيِّرَ لي علاوةً عن ذلك عملاً على سسة قدرتي أحعله باكورة أقدمها لحفيظكم الموقر ، ومقدِّمة لما بويت الاعتكاف عليه من الأشغال والدروس في مثل الذي يحذِّرُ وراه هذا الحما

فأشار عليّ أن أضع مجموعة في ماداة البيّعين لترويج مبيعاتهم من العواكه والحصرووات ، ثم قال لي أن أحرر سدة في الحرف الموحودة في دمشق آملاً أن أعثر فيما أحرَّره على بعض الكلمات والاصطلاحات التي يقصدها فطرت بادئ بدء إلى هذين المثيرين نظر المردي . ولكن لدى الفحص وحدث أن محث المداة حدير بكل اللغات ، لأنَّه يدل :

(أولاً) على أحلِّ الخواص التي يعتقد الشرقيون أنَّها موحودة في تلك العواكه والحصرووات المتنوعة . (ثانياً) على المحل الأصلي الذي حسب منه صف الفاكهة أو الحصرة لصادي عليه . (ثالثاً) على محل اشتهاار كل قرية أو بقعة من حوار دمشق أو من سورية نصف من الأصاف .

(رابعاً) على كَيْفِيَّةِ تعبير شعب دمشق في مصادره ، وهذه طريقة تختلف جداً عن التي في بيروت وفي مصر وفي حلب ، إلخ ، وجميعها تدخل في مطالب التاريخ والعلم واللغة ، وقد كتبت ناشرتُ بهذه المجموعة ثم أراجعتها ، فموعدني بها في فرصة ثانية .

أما أبحاث الثاني المختص بالحرف الدمشقيّة ، فهو من أوجه عديدة أعمّ وأفضل من ذلك ، ولهذا السبب ناشرتُ به حالياً ، وسيأتي الكلام عنه بوجه مختصر ؛ إذ أنّه لا يمكن لمثلي استيعاؤه في سدة وحيرة كهذه .

* * * * *

تهيد

إن من تَحَصَّ أحوال الحرف الدمشقية وطر إليها نظر المتقدم المدقق ، يرى أنها في تأخر عظيم يوجب الأسف من جهة ، وفي إتقان يوجب الدهشة من جهة أخرى . أما التأخير فلأن عموم الصنائع والفنون فقدت ما كانت عليه من الرونق في الأرملة العائرة ، وهي بعيدة عن أن تُقاس على ما هي عليه الآن صنائع أوربا وأميركا ، بل بعض ما اشتهرت به هذه المدينة القديمة فقد مطلقاً كعمل السيوف الدمشقية⁽²¹¹⁾ واقيشاني والظاهر⁽²¹²⁾ ، إلخ . وأساس ذلك عديدة منه سياسية ومنها تجارية ، وأعظمها إهمال العلم في هذه الديار ، وتلك مسألة لا يحسن التعرّص للكلام عليها في مثل هذا المقام

وأما الإتقان الذي يوجب الدهشة ، فهو كمال الانتظام وحسن الترتيب اللذان لم يراهما مخطوطين من أرملة قديمة إلى يومنا هذا بين غملة اليدين من كل نوع وملة ، فهذا الانتظام والترتيب ، وإن حصل له من بواعث قست مقصده إلى غير العاية المرادة في الأصل (كما يحدث لأكثر الجمعيات) ، إنما لم يطرأ عليه تغيير في جوهره . فالحرف لها رئيس أعظم وهو شيخ المشايخ ، ورؤساء تلاميذ وهم مشايخ الحرف ، ومعهم وصناع ومبتدئون - أو خدام - في كل حرفة على حدة ، ولهم كلام ورموز تُصنع بالأيدي والأرجل (ولو لم يقف على تعبير معانيها) . ولهم في كل مسألة رسوم لا يحدون عنها ، وهم ارتسام يُسمونه (الشّد) أو

(211) انظر بحثنا عن «أسطورة السيف الدمشقي» في كتابنا القادم . (إيبش)
(212) إن بعض الدمشقيين أخذ من نحو خمس عشرة سنة بتجديد صناعة النقش على الأواني النحاسية المسماة : صناعة الظاهري ، والفصل بذلك للشباب أسكندر بن يوسف دوناتو الذي ابتدأ به حين كان لا يبلغ من العمر إلا 12 سنة ، وتوفاه الله وهو في شرح الشّباب . وقد أخذ عنه كثيرون أخصهم من اليهود ، واتسع جداً الاتجار بالنحاس الظاهري ، لكنه إلى الآن لم يبلغ حدّ الإتقان كما كان في القديم . (قدسي)

(التعليق) يحرومه للمتمدن عند انتقاله من درجته إلى درجة صانع ، وآخر عند انتقاله من درجة صانع إلى درجة معلم ، ولهم اجتماعات وأسرار وقصاصات وانتخابات ومآدب . ووجه الإحمال ، كانه هم جمعية الفتوة الأحرار (الماسونية) ومعهم الأعظم ومحترموهم وشدهم ورفقاؤهم ومستدوؤهم⁽²¹³⁾، إلخ ..

سيأتي الكلام بالتفصيل على كل هذه بقدر الإمكان ، وقد قسمته إلى فصول ، ذكرت فيها ما تيسر لي الوقوف عليه فيما حصّ شيوخ المشايخ ، والقيس ، وشيخ الحرفة ، والشاويش ، والمعتمدين ، والصناع ، وشدهم ، وسكافاة ، والقصاص ، إلخ .

* * * * *

(213) هذه المقارنة ، وإن كان فيها بعض المقابلة من حيث الشكل ، لا تعدو كونها قصوراً عن فهم هذه الطقوس السرية المرتبطة بالشذ والعهود . والواقع أن هذه الطقوس تتبع إلى ما عُرف في العهود الوسطى (الأيوبية والملوكية خصوصاً) بعهود الفتوة وشرب كأس الفتوة . وترجع أصول الفتوة إلى مذاهب التشيع ، التي تضع أمير المؤمنين الإمام عليّ ابن أبي طالب في مصاف المثال الأعلى للفتوة والفداء ، تحت الحديث النبوي الشريف : «لا فتى إلا عليّ ، لا سيف إلا ذو الفقار» . ثم انتشرت حركة الفتوة في الإمبراطورية العثمانية في الأناضول ، فعُرفت بـ «فتيان الأخية» في القرن السادس عشر ، ثم ارتبطت بالطريقة البكطاشية في التصوف ، التي انصوت تحت لوانها أوجاقات الإنكشارية ؛ فكانت لهم في بلادنا ، بالشام ومصر خصوصاً ، تنظيمات حرفية مخصوصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما يُستفاد من مؤرخي تلك العصور ، كالجبرتي . وما يذكره المؤلف في نبذته هذه في القرن التاسع عشر ، إنما يمثل البقية الباقية لهذه التنظيمات بدمشق ، التي كانت مرتبطة بالإنكشارية . فلما زالت الإنكشارية ، تحولت هذه التنظيمات إلى نقابات مهنية مدنية ، وصفها لنا القدسي في مرحلتها الأخيرة قبل انقراضها . هذا ولقد ظفرنا في دمشق بمخطوط هام للغاية ونادر عن «عهود الشذ» السرية وأصولها ، سوف نقوم بنشره تالياً كتتمّة لهذه النبذة التاريخية . (إيبش)

الفصل الأول

في شيخ المشايخ

هو السيّد الشيخ الحاج أحمد أفندي بن محك⁽²¹⁴⁾، أرشد عائلة بني عجلان من أشرف دمشق، ومن السلالة التّويّة الشّريفة من السّلسلة المحمّديّة، لقبت بعض عائلته «مَنحَك»؛ سبّة لإحدى حدّات العائلة التي كانت من بلاد التّتر، وأمّا سائر العائلة فلم يرل محافظاً على تسميته بيت العجلاني وهو يسكن في بيته المعروف بالقرب من الجامع الأمويّ ويعيش من إيراد أوقافه في صواحي دمشق. ولعصر أفراد العائلة مداحلات في خدمات الحكومة المحليّة، وهم حائرون على اعتناز عظيم، ولاسيّما السيّد الشيخ محمّد أفندي العجلاني أحد أعضاء مجلس استئناف الولاية

أمّا أحمد أفندي محك فهو على جانب عظيم من التّقّي الإسلامي ويعرف حرص الكهاية من الفقه الدّييّ، ولكنّه ليس على شيء كثير من العلوم الرّياضيّة وبأقلّ من ذلك على صعبة أو حرفة. وهو طويل انقامة ذو منظر وفور، وقد كلّمته فكان كلامه بسيطاً لا يدلّ على تصنّع ولا عحرفة.

هذا هو الذي كانت أسلافه تعيّن المشايخ لأكثر من مائتي حرفة، وتأمّر ونهى، وتفصّل كلّ مسألة ونحسم كلّ مشكلة لديهم بتفاسي الجميع، وهو الشيخ عبيهم الأمر الأعلى، والحاكم الأعظم، والرئيس الأسمى الذي لا يُنتحب ولا يُعزل ولا يُبدّل، ولا يحلعه من مصبه إلا الموت أو الاستقالة.

قلتُ: لا يُنتحب؛ لأنّ هذه الوظيفة محتصّة بعائلة العجلاني، كما أنّ نقابة الأشراف

(214) راجع ترجمته لدى كل من البيطار والحصني والشطي.

ومشيحة الطرق توارث فيهم من أيام الحصرة السوية الشريعة إلى يومنا هذا من السّف إلى الخف يتولّاها الأكبر سنّاً من أعضاء العائلة . وقد حدث شيخ المشايخ الحالي : أن أحاه عطا أمّدي الذي كان تابع معه على المشيحة قبل وفاة والدهم بارعه عليها بدعوى أنّهم أفقه وأقدر منه على ضبط أمورهم وإرجاعها إلى روحها الأصلي . أمّا هو أن يذهب إلى عاصفة السلطة حتى اسحصل السلطان عبي فرمان عال منبت الحقوق في مشيحة المشايخ ؛ إذ أنّه أكرّ سنّاً من أحبه وليس له ما يدلّ على عدم أهليّته أن يتولّى هذا المنصب فوّلاه ولم يرل فيه إلى الآن (215)

أما السلطة التي ذكرتها لشيخ المشايخ فكانت فيما مضى عظيمة حدّاً قبل أن تمكّنت سيادة الباب العالي على سورية حين كان رؤساء المسمين أشرافهم لا يقرّون له إلّا باسم السيادة وكانوا هم الحكّام الحقيقيّون . فكان لشيخ المشايخ السلطة والقدرة أن يلقى من تعدّى من المشايخ أو من سائر أهل الحرف في السحر أو يكلّله بالقبود وأن يصرنه بالعصى .

أما الآن ، فمن عهد السلطان عبد الحميد ومن بعده حيث أعطيت التنظيمات الخيرية ، قلّ تسطّ شيخ المشايخ إلى حدّ غير متناه ، حتى يسوع بال القول : إنّ غداً محصوراً بالتصديق على نصيب شيخ حرفة من الحرف بعد أن يتحمه معنموها . وبعد الآن هذا التصديق غير كاف ، لأنّه حينئذ يحتهد المنتحب ومريدوه بأن يحصل على البيولوردي (216) (الأمر) وحتم الشيخة من قبل مجلس السديّة ، بل كثيرون يكتفون ببيولوردي الحكومة وأحد الختم غير مبالغ بالتصديق من طرف شيخ المشايخ على انتحابهم ، ولاسيّما غير المسلمين منهم ؛ لأنهم

(215) بلغني أنّ منذ نحو أربعين سنة سعى أحد أبناء الترك مع حكومة الأستانة فسمّته شيخاً للمشايخ ، وأرسلته إلى دمشق لتنزع هذا الحق من يد بني العجلاني ، فساء أمر الدمشقيّين من أهل الحرف وخلافهم ؛ لأنّه لم يكن من السلالة النبويّة ولا أحد العهد عن أجداد كرام ، فارتأوا أن يجمعوا له مبلغاً من الدراهم ليرجع به من حيث أتى ، وهكذا كان ، فبقي شيخ المشايخ الدمشقي في منصبه ، وسبقى ومن بعده فيه طالما يعترف لهم بشرف التسب .

(216) الكلمة محرّفة عن بيورلدي ، والكلمة تركية Buyuruldu ، تعنى المرسوم

كانوا يدفعون رسوم الشيحة ويخلفون يمين الصداقة لكنهم لم يُعطُوا العهود كالمسلمين ، ولذا
 عند انتشار التنظيمات الخيرية رأوا دوائهم معكّين مما كانوا يُحترّون عليه ونعص منهم لم
 يُشدّوا قط . والدين لم يراوا يحرصون على تصديق الشيخ فيمعنون ذلك لاعتقادهم بسريرة
 شيخ المشايخ سليل النبي (ص) ، وركاته التي تحلب الحيرات وتدرأ انصرّات . ولذا تراهم إلى
 الآن يرضحون لأوامره ويتجنّون إليه عند الحاجة .

* * * * *

الفصل الثاني

في النقيب

مَّا كَانَ لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ الشَّيْخِ ، بَلْ لَوْ أَرَادَ لَمْ يَكُنْ بَوْسَعَهُ أَنْ يَكُونَ حَاصِرًا فِي
الْإِحْتِمَاعَاتِ الْعَمُومِيَّةِ الَّتِي تَصْطَرُّ كُلَّ حُرْفَةٍ لِعَقْدِهَا شَدَّ صَانِعٍ أَوْ مُعَلِّمٍ أَوْ لِمُدَاكِرَةٍ فِي شُؤْهَا
، فَلِشَيْخِ الْمَشَايِخِ أَنْ يَبْعَثَ مِنْ قَبْلِهِ رِسَالًا يَدْعُونَ الْقِيَاءَ وَيَحْصِرُونَ الْإِحْتِمَاعَاتِ وَيَتَلَوْنَ الْأَدْعِيَةَ
وَيَجْرُونَ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا نُوْكَانَ شَيْخِ الْمَشَايِخِ حَاصِرًا بِنَفْسِهِ . وَكَانَ الْقِيَاءُ فِيمَا مَضَى أَكْثَرَ مِنْ
وَاحِدٍ حِينَ كَانَتْ إِدَارَةُ الْحُرُوفِ مَحْصُورَةً فِي يَدِ الشَّيْخِ الْأَعْظَمِ . أَمَّا الْآنَ فَقَدْ قُنَّتْ أَهْمِيَّتُهُ حَدًّا
فَلَا يُوَحِّدُ لَهُ إِلَّا نَقِيبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ السَّيِّدُ الشَّيْخِ أَنْبَسُ الْحَرَاثِرِيِّ الْقِمَاقِمِيِّ ، وَهُوَ مِنَ الْأَشْرَافِ
مِنَ الْمُسَسَّسَةِ الْبُيُوتِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، إِنَّمَا لَا تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْوُطَيْفَةُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبِهَا شَرِيفًا وَلَا هِيَ
مُورُوثَةٌ فِي عَائِلَتِهِ بَلْ لَشَيْخٍ أَحَقُّ أَنْ يَقِيمَ مِنْ شَاءَهُ نَقِيبًا وَأَنْ يَعْرِلَهُ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ ، فَالنَّقِيبُ
الْخَالِي نُسَبُّ مِنْهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً ، وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ أَحْوَالِ الْحُرُوفِ وَالتَّرَاتِيبِ أَكْثَرَ مِنَ الشَّيْخِ
نَفْسِهِ .

* * * * *

الفصل الثالث

في شيخ الحرفة

لكل حرفة شيخ ينتجبه شيوخ الكار ممن اشتهر بحس الأخلاق والطوية وامتار بمعرفة أصول الحرفة .

ولا يشترط به كونه أكبرهم سناً أو كونه من الشيوخ فعلاً فيحور أن يكون حديث السن إلى حدّ معيّن ، فإن شيخ حرفة القمبيلاتية سنّه من 25 إلى 30 سنة ، وشيخ الحبيلاتية من 20 إلى 27 ، والكمربية 20 تقريباً .

والقاعدة بذلك هي كما ذكرت أعلاه بأن يكون حاكماً بحس الصّفات وعنده العلم بأمور الكار ، وأن يكون كما قيل لي (مدفوعاً) ببر الناس و(موحّهاً) عند أرباب الحكومة ، (أي ذا وحشة) ، ومن المحتمل أنه لا يكون هكذا فعلاً ويكميه أنّه حار على هذا الصّيت عند لأهل حرفته سبحانه يوماً ما محلّ مشكلة .

وفي بعض الحرف تنقل المشيخة بالإرث من الأب للابن ، وهذا لا يخالف قاعدة الانتخاب لأنّه عني كل لا يكون إلاّ سماح من شيوخ الكار مراعاة خدمات الشيخ المستوفية ، وأما إذا رُئي انتحاب غيره أكثر موافقة فيحرون الانتخاب بدون مراعاة . أما مدّة الشيخة فغير محدودة ، فيست الشيخ طول حياته شيخاً ما لم يجر منه ما يوجب إبداله بسواه .

ومن حقوق الشيخ أن يعقد محالّس لصالح الحرفة يترأسها ويسهر عني حفظ ارتباط الكار ، ويُفصّل من أتى بإحلال في حقّ الصّعة ، وكثيراً ما يكون مكلفاً بإيجاد شغل للمعلة فيوصي بهم لتعلّمين ، وله وحده الحق أن يشدّ نالكار المتدئين الماهرين فيصبرون صناعاً أو معلّمين ، وله بعض الإيرادات سيأتي ذكرها ومعه تكون محاربة الحكومة فيما يتعلّق بحرفته

وانتحانه يكون على الصورة الآتية : عندما يفرع مركز الشبيحة من الشيخ يجتمع شيوخ الكار ، ويعيّنون حلاله بالذاكرة والاستحسان ، ولا يحرون بذلك على أكثرية الأصوات بل باتفاق الآراء ، وقد استقصيت جداً لأعلم هل أنهم كانوا يراعون في الرمز السابق أكثرية الأصوات أم لا ، فلم أقف على حقيقة ما من هذا القليل لأن الشيوخ إما أن يتفقوا على تعيين أحدهم وحينئذ لا خلاف ، أو أن يختصوا بمرجع الأمر إذ ذاك لشيخ المشايخ الذي يعيّن أحد المرشحين (217).

أما التصديق عليه من شيخ المشايخ فيتم هكذا : يذهب أهل الحرفة من الشيوخ والمعلمين وبعض الصّاع المشدودين شيخهم الجديد إلى شيخ المشايخ فيدخلون عليه ويقولون : «إنا قد عينا فلاناً شيخاً علينا» . فيأخذ شيخ المشايخ بأن يتوكل عليه بعض آيات قرآنية ثم يقدم له الصّاع اللارمة لإدارة حرفته بالعدل والاستقامة والسهر على صالحها ، ثم يسلمه العهد وبعد ذلك يقال عن شيخ الحرفة الجديد أنه قد دخل على ساط الشيخ ، أي : أنه فار بالتصديق على مشيخته من لدن شيخ المشايخ .

وفي واقع الأمر عند التصديق يمدّ أمام الشيخ بساط أحضر تذكراً ساط السي (ص) . وعيه يستم العهد إلى شيخ الحرفة الجديد أمام الحضور بصوت محفص .

تعدّرت عليّ أولاً معرفة هذا العهد وكيفية إعطائه ، لكنّه سعي فيما بعد أن ما هو إلّا نفس العهد الذي يؤخذ على الصّاع حين شدّه وسيأتي بيانه .

* * * * *

الفصل الرابع

في الشاويش أو الجاويش

كما أن لكل حرفه شيخاً كذلك لكل حرفٍ شاويش . وبسته للشيخ كسبة القبيب إلى شيخ المشايخ ، والفرق بينهما هو أن ليس لشيخ وحده أن يتحب الشاويش بل الكار يستحسه إذا ما قلنا يتحبه . وليس للشاويش حق ولا سلطة قضائية على أهل حرفته بل هو رسول الشيخ ومتمم أوامره ، فهو يدعو بإذن الرئيس شيوخ الحرفة وسائر أهلها للاجتماع ، ويكلفهم حضور الشدّ والولائم ويبلغ اجراء من حكم عنده الشيخ بشيء .

ومما فهمته عنه أنه يحج عنى العالب للصّاع أكثر مما يميل لسواهم من أهل الكار فإنه يعدّ داته مهم ، حتى أنه عند الثورات التي تحدث من القعة عنى المعلمين بطلب ترييد الأجرة (أو يعرّون عنها بقولهم : الكار قانع ، أي . نائر) هو الذي يطوف عندهم ويحثهم على الشات ليل المقصود .

وربما طرأ أحد أن وطيفة الشاويش مستحدثة بسبب أن هذه التسمية عربية عن العربية وفارسية الأصل ، ولكن هذا الطنّ غير صحيح فإنّ وطيفة الشاويش قديمة حدّا واعتقد أنه كان له في الأصل تسمية عبر هذه لم أقف عليها ، وأنه حدث بها ما حدث على تسمية المخطّط (وصحيحها المخطّط من حطر عليه = وضعه في السح ، أو المخطّط من أحصره أمام الشرع) في المحاكم الشرعية ، فقد جرى الآن الاصطلاح بتسميته مباشراً في المحاكم الطامية ، وإذا أُلغيت يوماً المحاكم الشرعية تقى تسمية المباشر حارية وتندثر تلك لا محالة من ذاكرة الناس .

الفصل الخامس

في المبتدئ

إني بعد أن سردت بعبارات وحيرة ما كان من أمر المترأسين في إدارة الحرف بقي عني أن أذكر ما علمته بحق المرؤوسين أو الصعبة ، وهذا هو القسم الأكثر فكاهة في هذه الرسالة ، لكي سأحري به عكس ما حريت عليه أولاً ، أي : أني سأتي على ذكر المبتدئ والصانع والمعلم وما يتعلق بهم نرى كيف يرتقي المبتدئ في سلم التقدم في حرفه . أما بخصوص المبتدئ فليس عندي أن أذكر إلا شيئاً يسيراً وهو أن المبتدئ أو الأخير هو الولد الحديث السن الداحل محرراً إلى الحرفة ، إما لكي يحترف حرفة أو يملك بيده ما بصون مستقلة من العور والفاقة

فيبقى المبتدئ عدة سمر بلا معاش ولا أجرة ، ويكتفي أهله بتعليل أنفسهم أنه ساع بأحد الصعة عن أستاذه . ومنهم من يرتب له حُمعية (أي أجرة تدفع له كل أسبوع) متناسبة مع مهارته ، لكنه يست مسمىً أخيراً إلى أن يدخل في سرّ الرحولة أو يصل في صغته إلى حدّ الإتقان فيدعى صاعاً ولو لم يُشدّ بالكار بعد ، أما آخرته فتبقى محصورة نوعاً ، ولا يسمح له أن يفتح محلاً وحده لحسانه (218) . وهذا مما يشوق المبتدئين أن يُقبلوا بالشدّ أملاً بازدياد الأجرة .

ويحسب ما أن نذكر هنا بعض الأمثلة والأقوال الدارحة التي تجعل الناس يحيلون

(218) كان هذا جارياً بدقة وصرامة حين كانت الكارات منوطة بشيخ المشايخ ، أما الآن فلا يعتبر الشدّ أو عدمه سبباً لقلل محل فتحه أحد المبتدئين ؛ فإن الحكومة لا تساعد بذلك ، وعملت جهدها على رفع تسلط مشايخ الحرف ليكون لها وحدها الحق القضائي .

للاعتكاف على عمل البدير . وهي .

1 (مثل) «كارٌ باليد أمانٌ من الفقر» واعامة تقونه هكذا : كارٌ باليد أماناً من الفقر .

ومعناه : أن الإنسان إذا كان يعرف صعة ما أمن بواسطتها من أن يمسي يوماً فقيراً . ولهذا كثيرٌ من أهالي بلادنا من ذوي الاقتدار يعلمون أولادهم أحد الكارات بعد معرفة القراءة والكتابة .

2 (مثل) «صاحب صعة مالك قلعة» . ولا يختلف كثيراً معناه عن المثل السابق .

3 (مثل) «إني ما له كارات بيعاير رطيلات» يعني : أن الذي ما ساعدته الظروف بأن يتعلم إحدى الصنائع يقضي عمره وهو يعتني بتقدير الأوزان دون أن يحديه ذلك نفعاً .

4 (مثل) «اشتعل بنفس و حاسب المطال» أي : أن الشغل ولو بأجرة رهيدة يفصل عني البطالة .

5 (مثل) «من كثرت كاراته قل ما بيده» : إن هذا المثل ليس يدلّ على الحثّ بأن يتحد الإنسان كاراً فقط ، بل يوحى عليه أيضاً أن لا ينتقل من كار إلى آخر لأن ذلك يكون سبباً لصباغ وقته سدى .

6 (من الأقوال الدارحة) «خدمتها أحيّر معنم» لا يأف أن يقول ذلك بعضهم افتحاراً مشيراً إلى أنه قد تعنم كاراً من الكارات ومرّ بدرحانه من الأحيّر إلى المعنم .

وسمعت يوماً أحد الحرّامة يقول

7 (من أقوال العامة) «علّمت ابي كار الحزامة وحوزته وشديته فما له برقتي بعد ، هل قصّرت معه شيء ؟» . كأنه بترويح الولد وتعليمه الكار وشده تنتهي واحبات والده نحوه .

الفصل السادس

1 - في الصّانع

إنّ الصّاع هم العدد الأكثر والسّواد الأعظم في كل الحرف والكارات ، وعليهم مداد العمل ومن أحبهم وصعت هذه التراتيب التي نحن بصدها وهم تتوارث وثيقة العمل في كل الأرمّة ويحفظ سرّ المعرفة في الصون والصّانع . وهم كالأرض يبيع تروة السلاذ ومصدر كسورها الثّمية ، بل لولاهم لما كُنّا نحصل على كبير نفع فما تبته الأرض لنا من مواد العداء والكساء . أحلّ إنّ الصّاع والفلاح هما القوتان المادّيتان اللتان عليهما يتوقّف نجاح الأمم أو تأخرها .

ومع أنّ هذا الأمر يدهي لا ريب فيه ، لم يُنتفت إليه من زمن طويل ، وقد أهملت حدّاً آداب الصّانع وتعليمه حتى فقد بالكثبة بعض من الصّنائع كما سبق الإيماء إليه ، وبعضها الآخر كاد يبيد لولا أن يتقيّد بالسلطة المتسلسلة في الحرف . فالآن لا يطلب من الصّاع أن يكون عارفاً القراءة والكتابة بل يكفيه أنه قد حصل درجة للمهارة في صعته مع أنّه كان من حملة الشروط الموصوعة أن لا يقبل شتدّ أحد في الكار ما م يكن قد تاب عن المكرات ورحى دقه (أي : التحي) .

2 - في شدّ الصّانع

عندما يبرح الأخير في المهمة التي امتهنها منذ حدثته . يأخذ رملأوه وشاويش الكار بالإحاح عليه بأن يُشد بالكار (أو أن يُمنح) ، أمّا الشاويش فلاّته ينتظر ما يصيه من رسومات الشدّ ، وأمّا رملأوه فلاّتهم يتعون اردياذ عددهم وربط الداحل الحديد بعهود الإحاء ،

فيحاول تأجيل الأمر إلى وقت آخر ويساعده حينئذ على ذلك معلّمه بالتردد عن القول شدةً قائلاً للملحّظين : «لَسَا مَا حُتْ ، هَذَا دَسَاتُهُ مَرَاق» . وهذا من كلام العامة ومعناه : أن أحيره لساعة احاصرة لم يأت الوقت الدلائم لشدة وأن دراهمه لا تحتل مصروفاً غير عادي .

وحالئ يقبل الأخير بالشدة يسرع الشاويش بأن يهديه على العور عرقاً أحصر . وهذه إشارة معناها أنه يحب عليه أن يولم وليمة لرفقائه ، ويكون العرق الأحصر على العال من الرّيحاح ، ويجوز أن يكون من نوع آخر ومن أعصاب الشجر أيضاً ؛ لأن الشاويش يقطع عرقاً صراً من أول ريحانة أو شجرة يصادفها ويسرع تقدمتها لمرمع أن يُشدّ فيأخذ ذلك منه العرق بكل قبول وشكر ويوسه ويضعه على رأسه ، فيذهب حينئذ الشاويش إلى شيخ الحرفة ويجره بأمره فيقيّد اسمه مع المرمعين أن يشدّوا سوياً إذا كان منهم أحد ، وإلاّ فيعيب له وحده يوماً يُشدّ به ، ثم يرجع الشاويش ويدعو بيانة عن المرشّح لشدة رفقائه وشيوخ الحرفة وشيخها وقيي شيوخ المشايخ ومن شاء من عندهم . وفي بعض الأحيان يدعوهم هو نفسه لحضور شدة .

الشدة يصير إمّا في أحد بساتين المدينة هماراً ، أو في أحد السيوت ليلاً أو هماراً ، ففي اليوم المعين يجتمع الصّناع وسائر المدعوّين في المكان المعدّ ، ثم يحصر شيخ الحرفة والشيوخ والقيب . وبعد مادنة السّلام والكلام يقول القيب : «يا إخوان لستدئ شعب» فيصمت الجميع ، أما هو فيأخذ الشاويش والطلب إلى عرفة ثابّة ويشده هاك بالطريقة التي سيأتي ذكرها ، ثم يرجع به إلى مكان الاجتماع ، ويكون القيب متقدّماً عن الشاويش والمشدود ، وبعد القيب يمشي الشاويش حاملاً بيده صبيّة وعليها هدايا الشدة كما ستعلم . فيأتي بها ويضعها أمام شيخ الحرفة على طاولة صغيرة مربعة تسمّيها العامة (اسكمة) . ثم يأتي الطاب مكتوف اليدين على صدره بكل حشمة ومشدوداً بالحرّم ، فيوقفه الشاويش في الوسط على ساط أحصر . ويجعل إهام راحه اليمى يدعو إهام راحه اليسرى . وفيما هو على هذه الحالة يطبب القيب من الشاويش أن يقول الفاتحة ، فيتنوها بصوت عال ويكون الجميع راكعين على ركبهم وطارقين رؤوسهم إلى الأرض ، ثم يطلب القيب الفاتحة الثانية التي يسمّيها (ثاني شرف) فيقول الشاويش الفاتحة مرة ثانية ثم يطبب احتام بذكر سيد المرسلين فيتلو الفاتحة دفعةً ثالثةً ، وبعد أن يمرع منها يأخذ القيب في السلام على الحاصرين من الزوّار

الكرام (219) إذا كان أحد منهم موحوداً ، وإلاً فيكتفي بالسعة سلامات الآتية ، وهي :

سلام للعموم : «أول سلامي عليكم يا حصار . السلام سنة وردّه فرص (220) يا أحيار ، في إدد افتح ساط الطريق باددكار . أو أحليه مطوي يا أهيل الحلي ، الفاتحة اقرؤوها معي أنتم بأجمعكم للنبي المختار» .

فكل من الخصور يتلو الفاتحة صوت مسحفص ، أما الشاويش فيتلوها بصوت عالٍ سلام ثانٍ لأهل الصدر ، وهم شيخ الحرفة وشيوخها :

ثاني سلامي على أهل اصدر أسيادي
وأهل الحاحير بهم راد يرشادي
من قبل م أدحل وسمّعكم بإنشادي
يا من حويتم المكارم والدكا والدوق
والفاتحة اقرؤوها معي أنتم بأجمعكم
إلى النبي الهادي

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

ثالث سلامي على أهل الميمة رخي
وأركان هذه رخالس وكل من رخي
كم حيّ ميت وكم ميت حرح من حيّ
واقرؤوا الفاتحة معي أنتم بأجمعكم

(219) إن السلام على الزائرين هو : أزكى السلام التام عليكم جميعاً يا ذوي المكارم والعلو والافتتاح . أنتم حويتم الفضل يا سادتي وجمعكم معروض بأصلح الصلاح . أزكى السلام التام على أهل الوفا ذوي المكارم سالكين الطريق . معدن الأفضال ومن لهم طلعة نورها شريق ، ما مثلكم يوجد في الوجود على ما يليق ، انتهى . ثم بعد أن ينتهي النقيب يتلو الشاويش الفاتحة .

(220) اقتباس من القرآن ، سورة النساء - 86 (لاندبرغ) .

إلى نبي شرف ليثرب مع المحرة وذاك الحبي

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

رابع سلامي على أهل الميسرة يقول
غير تلك السلام يحي عرصها والطول
والفاتحة أقرأوها معي أنتم بأجمعكم
إلى نبي أنى لنا رحمة ورسول

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

خامس سلامي عليكم يا سادتي أحسن
غير تلك السلام كالعطر بل أحسن
طمت من بحر فكري ما لقيت أحسن
إلا امتداحي بأهل الفضل بل أحسن
كل فاتحة أقرأوها معي بأجمعكم
إلى النبي أحسن

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

سادس سلامي عبيكم أيها الإصلاح
سلام نشره عنق الأرياح
نقيبكم واقف يشد كلام وصاح
والفاتحة أقرأوا معي أنتم بأجمعكم

إلى عِيّ بالشّفاة انسح الأرواح

الشاويش يتلو العاتحة جهاراً

سابع سلامي عليكم أيها الأحباب
السلام سنة وردّه فرض يا أنحاب
عريب ومسكير ودمعة عرق الاثياب (221)
في قصده ينتطخ في رعفراكم
في إدن يدحل ولا يرم الأعتاب
والعاتحة اقرأوها معي بأجمعكم
إلى عِيّ بمعمراته حير الكتاب (222)

اشاويش يتلو العاتحة جهاراً

وبعد فراع القيب من هذه السلامات يتلو بعض شائد بيوّة مها

يا أهل بيت رسول الله حاكم فرض عيّي وبلقرآن أبرله (223)
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له
العاتحة وعيرها :

رسول الله صاق بي المصاء وحلّ الخطب وانقطع الرحاء

(221) كثيراً ما يصدف أن المشدود حين شدّه يكون مغروراً بالدموع من شدّة التأثير .

(222) كتابة النبي ﷺ الذي كان أمياً ومع ذلك حير بمعارفه أهل المعارف .

(223) إن أكثر هذه الشائد مخلولة الوزن ؛ لأنّ الذي تلقّيتها منه غير عالم بالعربيّة .

فجاهك يا رسول الله حاه ربيع ما لرفعته انتهاء
رسول الله إني مستحيرٌ تجاهك والرمان له اعتداء
وإني وحل شديد من دبوب وما أدري أعمو أم حزاء
وما كنت دبوبٍ عن عباد ولكن بالقصا علب الشفاء
وطي فيك يا طه حيلٌ ومك الخود يعهد بالسحاء
وحاشا أن أرى صيماً ولأ ولي نسب بمدحك وائمة (224)

ثم يتقل بعد ذلك إلى فتح الأشعال فيقول مشدداً :

فتحت باب الطريقة أرتحي ممنا من حائق الحق ربي باري السم
وحلت مستأداً أرحو بهاتحة عفران دبي وما قد كان من إني
ودك من أحل إحراء العهو دها وحفظها فيه عاية النعم
من حيث ما كان أصل العهد حاء أهلك آدم يا ذا الخرفا فافتهم
مه لثيت وإدريس كذاك سري إلى أسياء الله (225) كهم
حتمهم سيد الكوير أحدا نور الشريعة سامي المحر واهمم
وحاء بالعهد ايات مكرمة وحافظ العهد في حبر وفي نعم
وحائس العهد لم ترح تجارتة وهو بالحشر كم يلقي من القم

ثم يلتفت قائلاً إلى المشدود :

«أوصيك يا من تحاوى أو تعاهد احتشي من فرض رب العالمين ، إن عهدك ثم شدك

(224) هذا الشعر لمحمد الكازروني ، انظر فهرسي لمجموعة مخطوطات بريل ، رقم 161 ، (لاندبرغ) .

(225) يمكن جعلها : (دعوا لله) ليستقيم الوزن ، (لاندبرغ) .

في عد يشهد عليك يوماً نَقف حائرين . من يحفظه رب السماء ومن أطاعه يكتب من المعدس . وأحتم نظامي بمدح أحمد المحتر إمام العالمين . - الفاتحة - » .

أما ربط المحرم (وهذا يكون إمّا من المحازم أو من الثّالّات) فهو حقّ النّقيب ، فيرفع يدي الطّاب من على صدره إلى قمّة رأسه حاعلاً بصل كفه اليمى يعنو ظهر كفه اليسرى وأصابعه متصقات (سألت لماذا لا تكون الأصابع العشر مشتبكات بعضهنّ ببعض ، قيل لي : إن ذلك لا يوافق لثلاً تعرّس الأمور على المشدود فالتسريح أولى) . ثم يمرّد النّقيب المحرم ويلف المشدود به من وسطه إلى قرب قدميه ، ويعقد طرفيه الأعلىين من الحلف إلى الإمام ثلاث عقد ، الواحدة احتراماً لشيخ الحرفة ، والثانية لمعلم المشدود ، والثالثة للشاويش . وتفسير ذلك أنّ الشّيح له وحده القدرة أن يحلّ الأولى من الثّلاث عقد ، لأنّه رئيس الحرفة كي يعلم المشدود ما له عليه من واجبات اخصوع ، وأمّا الثانية فيحلّها المعلم ليعتحر أنّه أخرج تلميذاً ماهراً . أو كما يقولون شرافاً (حراق) من تحت يده . ويحلّ الشاويش الثالثة لأنّه أحد السّطّات الثلاث التي على المشدود أن يحصع لها في الكار .

إنّ التفسير المار ذكره تقنّته من شاويشية بعض احرف ، إمّا لا أطه صحيحاً ، لأنّ النّقيب أحبري أنّه في شد بعض الحرف يجعل العقد ثلاثاً ، وفي بعضها حساً وفي بعضها سعاً ، ويراعى بذلك شدّة تمسك أهل تلك الحرفة بمحط العهود والأمانة أو عدمه .

وتدلّ هذه العقّد على عقّد العهد والميثاق بالإحاء ، فيعتبر حينئذ أهل حرفة المشدود هذا الأخير كأخ لهم ، لا بل يفصلونه في بعض الظروف على الأح الطّيعي ، وربما من ذلك أطلق القول بعقّد العهد أي : تعهّد محطه .

وقد لاحظت أنّ أكثر المحترفين من الأورثيين يربصون مئزرهم من الإمام إلى الحيف ، أي : أهمّ يحصون عقد المئزر وراء ظهورهم بعكس محترفي بلادنا السّورية الذين في وقت الشّدّة وغيره لا يربطون المحرم إلّا من الحيف إلى الإمام تذكّاراً بوقت شدّهم .

وبعد أن يتمّ النّقيب الشّائد والفواتح يعيّن أنا الكار بمشدود أحد الحاصرين من المعتمين ، وعلى الغالب يكون معلّم ذلك المشدود أباً له بالكار ، ويحور أن يتخذ حلافه . لأنّه لما كان يعدّ الأب بالكار بمنزلة كفيل فهو مطالب بما يقع به المشدود من الحيل ، فإذا كان

المشددود غير ممدوح السيرة يتمتع معلّمه من قبوله ابناً له (وهذا نادر الحدوث) فيعتبر حينئذٍ حلاله . ثم يأخذ شيخ الحرفة بأن يقدم للمشددود التصانيع الآتية . «يا ابني إن جميع الحرف هي كارات أمانة على الأموال والأعراس والأرواح ، والأمانة هي الدين فإذا عك كارك احفظ ديتك . كن صادقاً وأميناً ، واعلم أنّ كارك مثل عرصك حافظ عليه بمقدرتك ، وإذا استنمت أموال الناس فلا تفرط بها ، وإيك أن تحوّل أهل الحرفة ، والحائن قبيله الديان» . ثم يلتفت إلى الحاصرين ويسألهم قائلاً . «ما قالت الإحوال إحوال وصايعة ومعلمين ، هل هذا المشددود يستحقّ مصاعة ؟» ، فيحيونه : «نعم مستأهل ومستحقّ» ، فيتقدّم حينئذٍ أبوه بالكار ليبيعه . ويأخذ عليه العهود ، فيركعاً سوياً الواحد إزاء الآخر نصف ركعة ، أي : أنّ ركتيهما اليسيرين تسانان الأرض ، وأما رحلاهما اليمينان فتشيان نصف ثنية ويقتربان من بعضهما حتى يتلاصق الإهامان اليمينان وأعلى الركتين ، ويمسك الأب بالكار بيده اليمى يد المشددود اليمى مسكة الإحاء المعروفة ما عدا أنّ إهام يد الواحد والشاهدة يتلاصقان حول إهام يد الآخر فيستر الشاويش أيديهما محرمة أو مشعة كي لا يطّبع احصرون من الخارجين على الإشارة التي تنادى بينهما . ويقول حينئذٍ الأب للطالب : «عاهدي بعهد الله ورسوله أنّك لا تحوّل أهل الحرفة ولا تعشّر الكار» ، فيعاهده بقوله . «أعاهدك عهد الله ⁽²²⁶⁾ ورسوله أنّي لا أحوّل الكار ولا أعتشّر الصّعة شيء» . فيتلو النقيص فوق رأسيهما الفاتحة ثم ينهضان . ويطوف بعد ذلك الشاويش على مشايخ الحرفة بالمشددود فيحل كل منهم عقدة كامنة من عقد المحرم إذا كانت كثيرة ، أو نصف عقدة إذا كانت قليلة ، وأمّا آخر عقدة فيحلّها الشيخ ويسمّ المحرم إلى الشاويش الذي يصعه على كتف المشددود ، ويقول له مهتاً إياه : «حعه الله ماركاً» .

3 - الهدايا المرسومة

ثم تورّع الهدايا التي ذكرنا أنّها موضوعة في صينية على «اسكملة» أمام شيخ الحرفة

(226) تجد في الجزء الثاني من كتابي «الأمثال والأقوال المأثورة للشعب العربي» شرحاً مفصلاً عن ((عهد الله)) عند البدو . (لاندرغ) .

وقت الشدّ . وهي لكلّ من شبح الحرفة وشيوخها والقيّب .

«لوح صابون مطيّب ، وشورة شاش مطرّرة ، وحلال ، وعرق أحصر» ، ومهم من أضاف إليها : كيساً لوضع التماك ، ومسبحة .

وقد نحثُ حدّاً لأقف على معنى هذه الهدايا فما أحدثت حواً يقعي ، وأطرّ أنّها هدايا تتعلّق بالوليمة ، لأنّ الصّابون يصلح لتطيف اليدين بعد الأكل ، والشّورة لمسح الفم ووقاية الأنثواب ، والحلال لأحل تطيف الأسنان الأماميّة من طرفه الواحد وتطيف الآدان لسماع آلة الطرب من طرفه الآخر ، والعرق الأحصر لتزال به رائحة الأكل من اليدين بعد التعسيل .. والله أعلم .

وبعد توزيع الهدايا يتلو القيّب الفاتحة فتكون فاتحة العمل .

4 - الوليمة

من الحضور من يأخذ بتهنئة المشدود بعد شدّه ، ومهم من يباشر بالعراصة ، وهي رفع الأصوات بتهليل ، حيث يقولون مراراً عديدة .

«صنّوا عني عيسى وموسى ومكحول العين ، ومن يقدر يعادينا ، هه» .

وإن كانت الوليمة قد أعدّت في ذلك النهار فيجلسوا حالاً على الطّعام ، وإن كان تعبٍ لها اليوم الثّاني أو يوم آخر فيصرفوا ويحصروا بالوقت المعيّن . ومن المشدودين من يكون قد أعدّ أيضاً آلة الطّرب قبل الأكل ، أمّا المسكرات فلا دخل لها أصلاً في هكذا احتفالات ، وإذا أراد أحد من غير المسلمين أن يحضر شيئاً منها فيعّبه سرّاً .

أمّا الأكل فيكون من أسط المأكولات ، وعلى العال صفيحة وشعبيّات سكر يصطحب أهل هذه المدينة على استحصارها عند المرأة ليحمقوا بذلك الثّقلة عن أهل بيوتهم .

ويسمّون الوليمة «اتمليح» أي : طعام الأصحاب من الحر والمّح ، ومنه يستعمل العلة فعل «مّح يملّح» ، بمعنى عمل وليمة شدّ ، ومنه (بعده) أكل الوليمة ، ومنه معنى :

نصب عليه وأحد منه دراهم فيقولون . فلان ملّح له تألف عرش ، أي : أكل عليه ألف عرش

ولا يحفى أن الحبز والملح أو الملح وحده هو من المواد التي يمررون بها من أقدم الأرمسة إلى حسن السحايا وحفظ العهود . هكذا ورد في الإنجيل قول السيّد المسيح إلى تلاميذه : «أنتم مِبح الأرض فإذا فسد الملح عماداً يملّح؟» . وهكذا هوميروس يتكلم باحتقار عن الناس الذين لا يمحرون الأكل بالملح (الأوديسة ، 6 : 123) .

وأفلاطون يسمّي «الملح» في تيماون محبوباً عند الآلهة ، ومن الأقوال الدارحة العربية : «الحكم ملح الأرض» و«اس التُّرك ملحه عني ديه» . أي : أنك طالما تطعمه يحفظ ما يقع عني بأدبيله من حبرك وملحك . وإذا قام يقع منحك عيها ، أي أنّه يسي ما أنعمت عليه به . وأيضاً : «يا حوية الحر والملح الذي أكلته عدي» ، و«تذكر يا فلان الحر والملح» .

واخلاصة : أنّ الملح له عند العرب واليهود واليونان كما وعند الرومانيين شأن عظيم ، ولا أعلم إذا كان هكذا الحال عند باقي الشعوب الشرقية والعربية .

5 - كلفة الشدّ

إن كلفة الشدّ تختلف بحسب درجة عى المشدود من أربعين فرنكاً إلى مائة فرنك ، وهاك تفصيل ذلك :

إلى الشيخ : من 4 فرنكات إلى 10

إلى النقيب : من 2 فرنك إلى 6

إلى الشاويش : من 2 فرنك إلى 3

أجرة احبسة ومصروف الوليمة : من 21 فرنك إلى 81

أولاً :

إن الروايات تختلف كثيراً في ترتيب الشدّ ، فمنهم من قال لي : إن توزيع الهدايا يسبق الشدّ وأحد العهود ، ومنهم من قدّم أخذ العهود على تقديم النصائح وقد اعتمدت فيما ذكرت على ما طسّته أقرب للصحة .

ثانياً .

إن شدّ المعلم ، أي انتقال الصّاع المشدود إلى درجة معلّم يختلف عن شدّ الصّاع بما يأتي :

أولاً : أنّهم لا يسمّون له أباً بالكار .

ثانياً : أنّهم لا يربطون له المثرر .

ثالثاً : أنّهم لا يأحدون منه العهود بركوعه ، بل يكتفي بأحد قول منه على أصول الكار والخرفة .

ومن الصّاع من يُتندّ في التّهار دانه صاعاً أو معلّماً ، والطريقة بذلك أنّهم عندما يسأل الشيخ قائلاً : «ما قالت الإحواء ، هل يستحقّ مصاعة؟» يصيف إليه سؤالاً آخر قائلاً : «هل يستحقّ معصية؟» فإن كان مستحقّاً يحويه بالإيجاب ، وإلاّ فيقولون للطالب : «حاحتك هلق مصاعة ، إنشا الله سة الحاية تصير معّم» أي يكفيك الآن أن تشدّ صاعاً ، فإن شاء الله في السّنة الآتية تصير معّمّاً .

ثالثاً .

إذا كان المشدود لا يستحقّ أن يأحد المصاعة ، فعندما يقول شيخ الخرفة : «ما قالت

الإحوا؟» فمعلّمه أو الذي يريد أن يعارض بشدّة يطرح بين أيدي الحاضرين صاية أو عملاً من شعله ، ويقول للشيوخ ومعلمي الحرفة : «احكموا بذلك إن كنتم مصمّين ، هل يستحقّ هذا الرجل الشدّة أم لا؟» فيفحصوا العمل ، وإذا كان فيه ما يوجب تأخير المشدود فيؤخّروه ولا يحشون بذلك لومة لائم ؛ لأنّهم يفضلون أن يبقى الكار سائداً من السّقط والشوائب أكثر مما يجرّصون على خاطر أحد الصّاع .

رابعاً :

من الممكن أن يشدّ كثيرون دفعةً واحدةً ، والعمل بذلك هو : أنّهم يوقفونهم بالوسط بالقرب من معصمهم ويشدّون كلّاً منهم بمحرم ، ويجرون باقي الترتيب كما لو كان المشدود واحداً

أما الهدايا وسائر المنصروف والرسوم فتدفع محاصّةً ، أي : كلّ بقدر ما يوفيه منها

خامساً :

إنّ المحترفين من كلّ المذاهب يشتركون بالشدّة ، أمّا المسيحيّون واليهود فلا يعطون شيئاً من العهد والإشارات ، بل يكتفى بشدّهم بالمحرم وتلاوة : «أنا الذي في السموات ... إلخ» وهم يسمّونها «فاتحة النّصاري» ، أو بتلاوة الوصايا العشر في شدّة اليهود . ويسمّونهم آباء الكار من المسمّين ويأخذون منهم العهد وميثاق نأ لا يخونوا الحرفة ، ولا بصروا بالأموال والعباد

سادساً :

إنّ حرفة النّائين والتّحاتين الذين جميعهم من المسيحيّين لا يعرفون شدّة ، ولا علاقة هم بشيخ المشايخ ، فيقيمون منهم شيوخاً معلّمين ويصنعون روابط لأنفسهم يصوبون كارهم بها ولهم الآن جمعيّة معلّمين مؤلّفة من اثني عشر عضواً تجتمع بالشهر مرةً ، وتعيّن رئيساً لها

في كلّ ثلاثة أشهر تديده سواء . ومن أحصّ واحاتها حفظ رابطة الكار ، وقد أفادي أحدهم
أهم إذا لم يقدروا على أن يصوبوا رابطة كارههم من الأحلال فهي يتهم أن يذهبوا إلى شيخ
المشايع ليقيم عندهم شيخاً ، ويترددون بذلك هرباً من الدّحول تحت استئثار لا يسهل عليهم
التخلّص منه فيما بعد

إنّ القبيح قصص ما بلعي عنهم بأنهم لا يشنّون قط ، وقال : إنهم كانوا يشنّون قليلاً
ثمّ تمصّوا من سلطة شيخ المشايخ ، وسأحت عن ذلك .

سابعاً :

أذكر على سبيل التّفكيه - ولعلّ في ذلك أيضاً منفعة - أنّ صفّ المسحّين والمهرّجين
أو الطّفليّة أو الطّرفاء - كما يقولون عن أنفسهم - يدعون أنّهم حرفة منظمّة لها مشايخ
معلّمون وشاويشيّة ، وكان قبل سنة 1860 شيخ المسمّين منهم أمين اعّا حُمتهم ، وشيخ
المسيحيّين يوسف شاتيللا ، وشاويش الكار حيران سباح . وأمّا بعد ذلك التاريخ فلت الكار
ولم يعد له رابطة ولا أصول .

وكانوا يحرون شدّهم على طرقٍ هرليّةٍ مغلقة ، وقد وقفتُ على بعض بعض ما كانوا
يتصّون به في هذا الموضوع ، فإنّ الشّدّ عندهم هو تمثّل لما هو حارٌّ في سائر الكارات ، إنّما
التّصائح التي يعطونها للمشدود هي :

«يا بني إذا فرغ حبيك استر عيبك ، واعلم أنّ المهرّج الشاطر من كان مثل الرماح
على أكتاف الأحاويد فيقتضي أن تكون كالدثّ تأخذ الريح عن الأعراس والولائم والسهرات
فتذهب في كل مساء لقراب ناعمة الخلويات والمعجنات والقشطة فتترصد من أتى وابتاع شيئاً
مها فتعتم من ذلك أن عنده وبيعة فتسرّع حالاً إليها وتدخل على القوم بوجه باشر ، ويكون
في حبيك ألف قصّة مصحّكة حتى لا يشفّ وجه صاحب البيت منك وإن كان نحيلاً ، وإذا

صادقت أحد أولاد الكار فبايك أن تعاكسه بل اتفق معه على شَيَاتٍ ⁽²²⁷⁾ (أكلات) العير ، وانتقل من القاعة إلى المطبخ بحمّة حتى تعيم ما الأكل المطبوع وما الحلو المعدّ ، فإذا عمت أن الأكل أطيب من الحلو فقل لرفيقتك عند جلوسك على الطعام : الصّلاة على الحاصر ، وإذا كان الحبو أفضل فقل له رافراً بدو أن يفهمك سائر الحاصرين أيها الناس إنّ الدّنيا لا تعي عن الآخرة ، واعلم أن اسم الكافة عدداً : «مُحَيِّطَة» ، والقطائف : «لزيقيّات» ، والمعمول : «صبرات الأثحق» ، والمهيطلية : «ستي ارمقي» ، والعب : «فقي» ، والعومة : «رصاص الأسياء» ، والكوسا : «مدافع الخوع» ، إلخ» ، انتهى .

ويرفق الشيخ أو أحد المعلّمين كلاً من هذه الصّائغ والتعاليم بصعقة على رقعة المشدود يتلقاها بالشّكر وهو صاعر ، إلى أن يتمّ الشّدّ على هذا الدّوال . ولا يفعه الشّدّ شيئاً سوى أنّه بعد حينئذٍ من معلّمي التّهرّيج والأسجاد لا يبارعه على كاره مارع .

الفصل السابع

في المكافأة والقصاص

إن الارتقاء إلى درجة صانع ومعتمّ هو المكافأة العظيمة التي يتطرّحها عملة الحرف على اجتهداتهم ، فلا وجود لها للمعارض العمومية أو الخصوصية ، ولا مساقيات ولا حوائر ولا من يضمن لمن أتى بتحسين أو احتراع في فنه أن يحصل على مكافأة مادية أو امتياز يكفل له مستقبل ويبشّط غيره إلى الاقتداء به .

(227) شَيَاتٍ : مفردّها (شيّة) تستخدم بدمشق بنفس معنى كلمة (بتاع) الشّائعة على السّاحل وفي مصر . وهي محرّفة عن (شيء) الفصحى . أما في فلسطين فيستعملون مرادفاً لها (قيّة ، جمعها : قيات) ، (لاندبرغ) .

عم في الطامات الحديدية حصص بعض من بودها لهذا الموضوع . إما حرى ذلك
مماثلةً بالطامات الأوربية ، وعلمنا احوادث أنها نقيت في حقيقة الأمر حبراً على ورق مهمةً
في روايا السبيل

أما القصصات فقد وُجِّهوا إليها أفكارهم حفظاً لروابط الكارات وصوناً لأموال الناس
، وهي كثيرة ومتنوعة . وأذكر منها ما تمكنت الوقوف عليه .

(1) - في أكثر الكارات يطرد الحائس والسارق طرداً باتاً فلم يعد أحد من أهل حرفته
يقبله ، بل إذا أرادوا فيحرون عليه حرباً شديدةً لأجل إسقاطه من كل عمل

(2) - إذا ثبت أن أحد معلمي الكار يقص الصاية عن الطون أو العرص المألوف ،
فكان يحضرها شيخ الكار ويقصها ويعلقها في السوق فيصير صاحبها عيرةً لم يشتغل .

(3) - إذا أدخل أحد العش بالكار فكان يرسل الشيخ شاويشه فيقبل دكانه ولا يعود
بإمكانه فتحها إلا برضى الشيخ وأهل الحرفة .

(4) - إذا أدخل أحد الصياع العش والرعل في مريح معاده ، فكان شيخ الصاعة
يقب له السدان على قفاه فيبقى مربوطاً عن شعبه إلى أن يحصل على رضاه

(5) - إذا ترتب الحق على أحد معلمي الكار بأنه أحل بالروابط فيعطونه عرقاً أحصر
دلالةً أنهم يكفونه عمل وليمة ، وهذا يعادل الخراء التقدي وهو المصطلح عليه أكثر من غيره
من أنواع القصاص .

(6) من حملة القصصات التي كانت حاريةً فلأنهم كانوا يقصون للمذنب خصنة
من شعر رأسه .

* * * * *

الفصل الثامن

مسألة وختام

هذا حدّ ما وصل إليّ من أحبار أهل الحرف الدمشقيّة وما يتعلّق بها ، جمعته سرعة
كلّية كيلا يفوتني وقت اجتماع محفكم الموقر ، ودوّنته بهذه الكُبيّات واعدّاً أن أجمع ما
سأقف عليه من هذا القليل إتماماً للعائدة .

وقبل الفراغ من هذا الموضوع ، رأيت من المناسب أن أصع لدائي ولكرّ من شاء
الدخول في هذا المسحّ من الدّوات الكرام الأعلام المحقّقين الذين سيطلّعون على أعمال المجمع
الشرقي العلمي في ليدين حلّ المسألتين الآتيتين :

أولاً . هل أن هذا الانتظام في تراتيب الحرف في دمشق رباط تاريخيّ يربطها بالماسويّة
مد القديم ؟ وإذا كان ذلك كذلك فالمراد تعيين الوقت والصّرف الذي حدث فيه الأمر
المذكور .

ثانياً : إذا كان لا يوجد هكذا ارتباط فلماذا روعي في الحرف نفس الترتيب تقريباً
الحاري في الماسويّة ؟ هل أن هذا محرّد صدفة أو أن ترتيب الماسويّة كان مشأه في هذه الدّيار
؟ أرحو الجواب على ذلك (228) .

(228) سبق أن شرحنا سبب هذا التشابه في مقدّمة هذه النّبذة ، وأن لا علاقة

* * * * *

وما كنت حديث النشأة قليل المعرفة ، فأحتم حظاي بطب المعدرة وعصّ الطرف عما
تحرّأت اليوم عنكم به ، وبدحولي إلى هذا المقام الخليل ، وولوحني بموضوع لم أحد لي به معيماً
في كتب المتألفين ولا دليلاً إلا ما تناقلته الألسنة من تقاليد الأقدمين ، فلا تحسوه مي هوحاً
إن رأيتم حلاً بالتعبير أو إحلالاً من التقصير ، فإن العصمة لله وحده - وهو الحكيم الخبير

عن دمشق في 12 / اب 1882م

إلياس عبده قدسي

* * * * *

من مذكرات أبي

نوري بن أحمد أفندي إيش آغا

لأنظمة طوائف الحرف البتّة بالماسونية . وعلى أي حال ، فهذا سيكون
موضوع دراسة وافية لنا .

حكاية أبي السيفين

يروى المرحوم والدي نوري الإيش هذه الحكاية ، وأذكر أن الفجر والإعجاب كانا يأخذان منه كل مأخذ وهو يترنم بذكر وقائعها .

في أواخر القرن التاسع عشر ، كانت عائلة الإيش⁽²²⁹⁾ (أحمد أفندي وولده حسين ونوري) تقيم مدارها الكبيرة المعروفة في حي سوق ساروجة ، وكانت على مقربة منها في ساحة البحصنة البرّانية المطلّة على ساحة المرحّة من جهة الشمال بقرب مبنى البريد والبرق . كانت تُقام في العيدين والمناسبات الوطنية والدينية الأخرى حلقات الألعاب ومباريات السيف والترس .

ويحكى نوري أن والده كان يجمعه عن لعب اسيف والترس ، ولكنه كان يلعب بالسرّ . وكانت للأب سطوة كبرى وشخصية قوية نافذة . كان حينما يدخل ساروجة من طرف حارة الورد أو العبد يقال : «حاء أبو الشوارب الذهب» Altin biyikli geldi . وكان مرهوب الخائب لا يحسر على محاكمته أحد .

(229) تعود أصول العائلة إلى بورصة ثم توطنت ديار بكر ، وكان جدّ العائلة «إيش اغا» مرافقاً للسلطان ابراهيم خان الأول (1640-1648 م) . والاسم في التركية تصغير ابراهيم .

والدي نوري إيش في مصنع شباه

1891 - 1975 م

ذكر بعض الأصحاب لأحمد أفندي أنهم رأوا ابنه يلعب في العيد وأنه كان شاطرًا للعبادة . استدعى الأب ابنه وقال له : نوري .. هل صحيح هو ما سمعتُ عنك ؟ تلكأت الإجابة بعض الشيء بين شفتي الفتى ، غير أنه لم يكن يألف غير الحسارة وعرة النفس ، فقال : نعم

أقدم . لاحت برفقة رصا في محيّا الألب وابتدر ابنه قائلاً : أي نوري ، هذه اللعبة لا تتأتى بهذه السهولة دونما دراية وتدريب ، بل إن لها أصولاً وقواعد محكمة يسعى بلاعب معرفتها كلها ، وإلا أدّى نفسه إلى إصابة بالغة أو حتى إلى اهلاك . فإن كنت ترغب بتعلّمها فعلاً أتيتك من يعمّمك حسب هذه الأصول . قل العتي ، والانتسامة ترقص عبي طيف الشاربين الغصير : نعم أقدم ، أتى ذلك .

قال فطلب الأب أقدر معّم نسيّف والترس والحكم بدمشق ، وكان انذاك رحلاً يدعى أبا حالد (ومع الأسف صاعنت من ذاكرتي ما كان يرويه أبي عن اسمه الصريح وحيّه بالشام) ، وكان أبو حالد ماهراً قوياً رشيق الحركة عارفاً بأصول اللعبة متمرساً نفوها . وكان جميع معلمي الفرس يديون له بالأسبقية .

مكث العتي نوري لدى معّمه احديد بصعة أشهر يتعمّم منه فنون اللعبة حتى أتقنها جميعاً وورع فيها أينما براعة . وكان لا يصدق بلوع ساعة الانصراف من مدرسته (الغارارية) ساب توما ، حتى يطق عائداً للمعاودة تدريباته الصعبة والطويلة . واشترى له أبوه سيفاً أحدث ذا نصل أصيل من الفولاذ الدمشقي (حומר صناد) ذا قراب محليّ بالعصّة من نوع (كسر حفت) الإسطنبولي ، مع تواع التدريب من الشيش وحيزرانات الحكم .

مصّت الأيام ، وسمع أحمد أفندي إيش راده بقدوم معّم شهير من حلب إلى الشام . وكان هذا المعّم مختار عن أقرانه بأنه كان يعب بسيفين لا بواحد ، استبدل الترس في اليد اليسرى سيف آخر ، قال وكان يعب بكلتا اليدين بنفس البراعة ، وإن لزم الأمر لعب باليمين فقط أو اليسرى ، أو بالاثنتين معاً . ولم يكن في البلاد من يصاهيه بهذا الفن . حتى أنه كان إذا هاحه ثلاثة أو أربعة لاعبين هرّمهم جميعاً بسيفيه . واسم هذا المعّم كان : الحاح أحمد . غير أن النقب الذي علب عليه كان : «أبو السيفين» .

انتقل نوري إلى التدريب على يدي أبي السيفين ، وسرعان ما طهرت على العتي علائم النجابة وأتقن الفنون الحديدية التي تلقّاها ، وصار يعب بالسيف أو الاثنتين بكل مهارة ودربة . غير أنه لم يكن يعرف أن هذا الأمر قد أوغر عليه صدر معلمه القديم أبي حالد . ولكن الأيام الآتية ، كانت على أي حال كفيلة بكشف ما تخنه الأقدار .

ففي أحد الأيام ، نُصِت حلقة الاحتفال بمناسبة حفل ظهور ابن أحد أعيان احيي ، ولم تلت ألعاب المثاقفة (المناررة بالسيوف) أن سيطرت على الموقف ، وراح العار يتعالى مع صيحات التشجيع وأصوات صليل الشيش الفولاذي على الأتراس الحديدية . كان العتي نوري واقفاً يتفرّج مع أقرانه الياهيي ، غير أنه لم يترل إلى الساحة حيث كان أبوه يشدد عيه دوماً في المنع راح الشاب والياهيي يتساقون للتنافس ، تلاحقهم صيحات التشجيع ونصفي الألف ، بينما كانت ثمة بين الجمع المتراص عينان ما برحتا تراقبان العتي نوري دون انقطاع ، كان ذلك معمه القديم أبو خالد نفسه .

محرّكة ملؤها الكبرياء والخيلاء ، اندفع أبو خالد إلى الساحة وراح يبوّح بسيمه بصريات سريعة شقّت اهواء بصميرها احاد السائر ، ثم راح بين الغيبة والأحرى يخلحل بصريات طهر سيفه على ترسه المدوّر الصغير ، مُدياً براعته وقاصداً تحديّ الموحودين من اللاعبين .

تسمّرت الأبصار في المعتم الكبير ، فمن تراه سيحرّو على مبارلته وهو بتلك الشهرة الكبيرة والمهارة التي لم يصل إليها أحد في دمشق كلها ؟ أم هل تراه سيختار حصمه نفسه ويسمّيه ؟ وإن فعل . فكيف يحسر هذا الحصم المسكين على مبارلته ؟ أما إن أحجم واستنكف ، فالأمر أدهى وأمرّ عيه ، وسيلحقه حري ووصمة عار بوصفه حوّاراً جباناً

نوري إيش مع بعض رفاق الدراسة
في الجامعة الأميركية في بيروت ، عام 1908

م يطل انتظار الحاصرين ولا حيرتهم ، إذ سرعان ما أعلن أبو خالد بصوت قوي ولهجة
واعدة متهددة . يا نوري .. نزيل لقلبك ! وراح يحوم ويحوم في ساحة الصراع كاندئب
الخريخ ، وكأنما كانت تلكم اللحظة فرصته الساعية التي ما برح يرقبها مدد شهور طاللت .

عقدت الدهشة لسان الفتى نوري وأقرانه ، فهو لم يكن يوماً أكثر من عرّ يافع في
الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة لم يكذب يحطّ شارباه بعد ، فكيف تراه ينارل المعمم أنا خالد في
معركة مشهودة من عشرات الحاصرين ؟ والتزال آنذاك لم يكن بالمناسبة كما نراه اليوم عسى
شاشة التمرير ، كأشبه ما يكون بالرقص أو الحركات الإنمائية الاستعراضية ، بل كان بالفعل
يأخذ شكل القتال الحقيقي وعالماً ما كان ينتهي بعض الجراح وإسالة الدماء .

على الدم في عروق الفتى ، وبرعم قمسك بعض رفاقه بتلايب قساره الحريري ، اندفع إلى الساحة محرّداً سيفه ، وكان لا يختار دوماً إلا السيف الثقيل والكبير . هاهأ .. لاحت عني محيّا أي خالد انتسامة رصا ممتوحة بالطفر ، فها هو الساعة سيُدرِك تأراً طال انتطاره . فمثته من يُترك للحاق بأبي السيعير ؟ أية إهانة تلك التي أصابته في الصميم !

ابتدأ التزال بصعّة حركات ، قام الخصمان من حلالها بالتحويم حول بعضهما . وكانت عينا أبي خالد الباردتان تحمقلان بعيني الفتى نوري . وكأهما عينا دُث يوشك عني شُب أنياه الحادة بعريسة لا حول لها ولا قوّة . غير أن في نفس الفتى لم يكن ثمة موضع لتراجع أو الدعر ، بل كان فحوراً بما تعلّمه طيبة الأشهر السافقة ، وانثفاً من مقدّرتة عني التزال .

سرعان ما اتهالت صربات أبي خالد السريعة والقوية عني متر ترس الفتى نوري ، الذي كان يلاحقها بالكاد لاهتاً ، ولا يجد من الخال متسعاً للردّ عليها .. ولم يست أن فهم أن أبا خالد يبوي تحطيمه وتقيبه أمام أحداه درساً قاسياً يرمي به إلى الحصيص . راح «يكعّره» إلى الخائط ويقسو عليه بصربات مخيفة لو أن ترسه أخطأها لمُرّقت أحشاءه ، أو لتبرت إحدى يديه . أو لشوّت وجهه على الأقل . لم يكن في الأمر لعة وإما كان راءاً حقيقياً ، المقصود منه هزيمة ساحقة للأقل صراوة .

لمعت عينا والدي ها وهو يحكي لي . لما رأيتُ الموقف كدلك أيقنتُ أنني غير ناح إن أا اقتصرت على الدفاع وتشتيت حركة حسمي بيسراي التي تحمل الترس . كان لا بد من المحوم ، الذي معاه انكشاف دفاعي لحطات ربما تكون كافية لإصابتي بصربة فاتنة . ولكن ، هل ها موضع للتردّد أو التفكير ؟ الفارق بين الفوز والهزيمة حراء من لحظة واحدة . إما لحظة إقدام أو تردّد . حرمتُ أمري وشددتُ أعصابي وعلى الدّم في عروقي . و«دحمتُ» على أبي خالد وصربته «كعب» برحله . ثم أنعتته بحركة «داور برّاني»⁽²³⁰⁾ بارعة ، فما كان منه إلى أن تراجع إلى الوراء للمرة الأولى منذ بدء التزال .

(230) هذه التعبيرات والمصطلحات بحاجة لتفسير من قبل أحد الخبراء العارفين باللعبة .

كانت تلك فرصتي الوحيدة ، فقلت له : «وقف لقلك» ، وبدأت أمثال عليه ضرباً
بسمي الثقيل بكل ما أوتيته في أكتافي وأدرعي وربودي من قوة ، حتى «كعرت» إلى اتجاه
الحائط ، ثم لما لاح لي أحيراً انخفاض يسراه إلى مستوى خاصرته ، عاجلته بصره ناترة على
مستوى رأسه ، شرطت بها هامته بدبابة السيف عرض شبر ..

رمى أبو خالد السيف والترس إلى الأرض ، وأمسك برأسه ، وكان يسس «قسار
رور» أبيض فتسريل بالدم حتى زنتاره . وركض من فوره إلى أحمد أهددي والد العتي ،
فموجيء داك به وقال : «شك أبو خالد ؟» . قال له : «يا أبو حسين ، ابك دحكي» .

نادى الأب على الخدم : حدوه فاعسلوا حراحه وبادوا على الطبيب ليفحصه ويحيط
الحرح . وتبين لحسن الخط أن الشظية كانت سطحية غير نافذة ، ولو كانت تخد السيف
لقتنه حتماً .

يروى أبي . لما انتصرتُ على حصمي الذي يفوقي كثيراً بالنسـ والقوة والخبرة ، وقفتُ
وسط الساحة وقد انتمحت أوداحي وأنا أنفخ برهو الانتصار ، بينما راح رفاقي يصيحون
مستهجين بكل تحدٍ للاعبين الكبار . «أيوه الشغنة مو تكبر اللعة ولا تكبر الدق» .. ثم
يردفون صائحين : «نوري .. نوري .. نوري ..» .

قال أبي . يومها لم تكن خشيتي من التوال كخشيتي ساعة أدخل البيت على أبي ، فما
هو ردّه سيكون ؟ غير أنه تابع : ولكن على غير المتوقع . لم يأت أبي أمامي أبداً بذكر
الحادثة ، وعلمت أنه تعمد ذلك لئلا يكون سباً في إصابتني بالتقاعس إن هو حمل علي باليوم ،
أو تحريثي على أذية الناس إن هو امتدح فعلتي .

* * * * *

أحيراً أقول :

كم كان فرحي كبيراً عندما عثرتُ بمحض المصادفة على صورة قديمة ، من محلة

National Geographic الجغرافية الأميركية تعود إلى عام 1900 ، صوّرت في معرض دولي أقيم في شيكاغو وشاركت به دمشق ، ومن بين المشاركين كانت فرقة الحاح أحمد الشامي (أبو السيمى) . وعادت في الذكريات إلى هذه القصة التي ألفاها أبي على مسامعي مد أكثر من ثلاثين عاماً ، فقت : أن الأول لأن أكسب هذه القصة الطريقة ، فيها هي دي وتلك هي الصورة .

وأما تاريخ الحادثة ، فكانت محدود عام 1904 أو 1905 ، على اعتبار أن ولادة أبي كانت في عام 1891 ، وكان يذكر أن عمره حينها يقارب 13 أو 14 سنة على أعتد تقدير .

الرياضة بدمشق في مطلع القرن العشرين

وحدث في مذكرات فحري البارودي⁽²³¹⁾ (1 · 45) نصاً يتم حكاية والذي عن
السيف والترس والحكم ، وكذلك فيها ما يخص رياضة كرة القدم ، التي كان أول من أدخلها
إلى سورية عمي حسين الإيش في عام 1900⁽²³²⁾ .

الفوتبول بدمشق

أما كرة القدم وكرة السلة فلم يكن يعرفهما . وإني أذكر أن أول لعبة «فوتبول»

(231) مذكرات البارودي ، ستون سنة نتكلم ، دار الحياة ، بيروت ودمشق
1951-1952 .

(232) سأقوم في كتابي القادم «سقى الله هديك الأيام يا شام» بتدوين بعض
ذكريات عمي حسين الإيش بدمشق في أوائل القرن العشرين ، وهو البطل
العنيد الذي ذاع صيته في سورية ولبنان ، حتى تحولت سيرته إلى ما يشبه
الأساطير .

رأيتها في دمشق ، كانت تمرّياً يقوم به الأحوال نوري وحسين الإيش في مرحلة الحشيش قرب «صدر البار» ، وكان هناك حشر على نهر بردى ، وميدان فسيح للعب الحرير .

وأذكر أن الكرة سقطت يومئذ على رأس أحد المتفرّحين ، المرحوم نعيم العربي وكان من المتعمّمين - فصعّطت عمته على رأسه إلى ما تحت أذنيه . وكان بين المتفرّحين حقّي باش مشير الشام ، فصحت حتى وقع طروشه في العربة . وقد شاهدته بنفسه ، لأنني كنت واقفاً مع وكيل حرج دارنا أمين أعا إلى جانب عربة المشير .

وقد تعمّ السيد نوري الإيش يومئذ هذه النعة من الجامعة الأميركية في بيروت ، إذ كان طائفاً فيها .

السيف والترس

كانت لعبة السيف والترس في ذلك العهد ، أكثر الألعاب انتشاراً بين الدمشقيين ، توارثوها أباً عن جد ، لأنها تعمّ الشباب الرّحولة والحقّة . وتروّص الأحسام ، وتعوّد الشباب على الصّبر ، ولها أصول ثابتة لا يمكن إخلالها عنها . ويشترك في هذه اللعبة من اثنين إلى خمسة لاعبين ، فإذا لعب اثنان حمل كل واحد منهما سيفاً وترساً ، وقد يصمم إيهما ثالث يحمل سيفين ويتوسّط اللعب . وإذا لعب خمسة ، ترأس أحدهم المعركة وحمل سيفين في آن واحد وتوسّط اللاعبين (233) .

ويكون اللّعب على الأكثر حبّاً ، أما إذا وقع حصار بين لاعبين ، فإنه ينتهي إلى حادث مؤلم . وكان من الرؤساء المشهورين لحفقات السيف والترس أبو سعد الخصري ، أبو شاكّر مستم الحانجي ، الرئيس العسّه الميداني ، أبو عني الصّاع ، أبو علي القبّاني ، أبو صالح رشيد الحجا ، أبو عرو حسّ الأرباؤوط ، أبو عادل السّروحي . وأكثر هؤلاء اتقنوا إلى رحمة الله .

(233) هذا يقابل ما كنا ذكرناه أعلاه عن أسلوب اللّعب بالسيفين .

من تفاليد لعبة السيف والقرس «الشَدَّ»⁽²³⁴⁾، وهو أن يقطع رئيس النعّة على التلميذ الحديد عهد الولاء، وبعد ذلك يكرّسه لاعباً رسمياً، ويأديه بلقب «اسي»، وكانوا يسمّون التلميذ بالشراف، وهي كلمة فارسية تعني لمولى.

وتجري هذه المراسم بحضور رؤساء هذا العمر من جميع الأحياء، فيقرأ الرئيس دعاءً مخصوصاً لهذه النعّة، وهو: «بعد الفاتحة، سبحان أبدّي الأبد، سبحان من بسط الأرض على ماء خمد، سبحان مفسّم الأوراق، من لا يسي من فصله أحد، سبحان من داته وصفاته، قلّ هو الله أحد». ثم يبادي بأعلى صوته «صحائف البي (ص)، صحائف «العشرة المشترية بالحنة» من الصحابة الكرام، صحائف الأسد الكرّار علي بن أبي طالب، ابن عم البي المختار، رضي الله عنه وكرّم وجهه، صحائف فاتح الشام أبو غنيدة الخراج، صحائف سيف الإسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه، صحائف فلان وأبي فلان وأبي فلان» ويعدّد أسماء أبرر الحاضرين من وحوه المحلّات.

ثم يفتح بقفحة من الثياب، فيها قنبر حريري يسمّى بالصّاية، وشملة، فيلبسون التلميذ الصّاية. ومعنى رتّوه بالمشح دحل في حملة اللاعبين، ويقرأون الفاتحة، ويصح الشاب بعد ذلك لاعباً، ويمكن أن يشترك في طوائف اللعب!

لعبة الحُكم

لعبة يتمرّد عليه أولاد الأحياء، تمهيداً لانتقالهم إلى لعب السيف والقرس. ولا يتمكن لاعب السيف من إحادة لعته إلا إذا تعلّم الحُكم

عدّة هذه اللعبة هي درقتان من حيد، محشوتان بالصوف أو القطن، ولندرتين مقاصر يتقي بها اللاعب ضربات خصمه. والدّرقة الواحدة اسمها «حكمة»، واللعب يكون نقصيب من الحيرران أو السقرحل.

(234) وهنا نعود إلى ما كان طالعنا في مبحث طوائف الحرف بدمشق «نبذة تاريخية».

وهذه اللعبة ترتبي في الشاب عصلاته . وتعممه على الشجاعة والصبر . وهي من أمتع الألعاب . وليت الوادي تعيدها سيرتها الأولى !

* * * * *

الهواء الأصفر بدمشق

عام 1906

بين أوراق والدي القديمة ووثائقه وصوره . عثرتُ على دفتر رث قديم . يعود إلى ما قبل 95 عاماً ، وقد كتب عليه والدي بخطه الحميل بالرقعة . «دفتر فرص العربي حاصّة نوري إيش» .

وفهمتُ أن الدفتر كان من حمة دفاتره في الصف الخامس ما قبل الحلقة الاستعدادية (freshman) في الجامعة الأميركية في بيروت . التي كانت تُدعى آنذاك في أيامه (235):
«الكبة الإعيبة السّوريّة»

أما النص الذي سبقه هنا من الدفتر ، فهو موضوع إشثائي كتبه كوطيفة . وأتى فيه بذكر لمحة عن حياته بالعقد الأخير من القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين . وأهم ما فيه ذكره لحادثة اشتار واء الكوليرا (الريح الأصفر) بدمشق في عام 1906 . لكن ما يشوق فعلاً ، هو تأثر كانه بالأسوب الأدبي المعهود لدى لحكواتية . فحاول فيه أن يأتي بما يصارعهم . وكان تدوين النص كما يتصح في شهر تشرين الأول من سنة 1907 .

لمحة عن تاريخ حياتي

ولدتُ في دمشق الشام ، سنة ثلاث مائة وستة هجرية ، وأخذ أبي وأمي يربوني حتى بلغتُ السابعة من عمري ، فعندئذ أدخلوني أحد المدارس الابتدائية ، ومضيتُ هناك نحو سنتين ، وبها تعلّمتُ قليلاً من القراءة والكتابة العربية .

وقد انتقلتُ من تلك المدرسة إلى المدرسة العسكرية ، ومضيتُ فيها نحو ثلاث سنوات بتعلّم اللغة التركية والنظامات العسكرية .

ولما خرجتُ من تلك المدرسة ، دخلتُ مدرسة الآباء العازريين ، وتعلّمتُ بها اللغة الأفرنسية والصّرف العربي وبعض أشعار من مجموع مجاني الأدب . ومدةً فعودي بها سنتين ونصف ، وعدم تكميلي نصف السنة الأخيرة هو وجود الريح الأصفر .

وهذا الوباء قد أتى من جهة يافا والخليل ، بعدما ترك منهم القليل ، وأتى إلى الشام وقد شيد من الأوساخ جيوشاً وعساكر ، ومن المكروبات أبطالاً وعناتر . وجعل يضرب بحسامه يميناً وشمالاً ، ولم يفرق بحال الشيوخ والأطفال . فعند ذلك ، انتقلتُ عائلتنا جميعاً إلى القسم العلوي من الشام ، وهو الصّالحية ، وجعلنا لا ندخل لعند أحد ، ولا أحد يدخل لعندنا . ولم نأكل شيء لا يدخل النار .

ولما خلصتُ تلك السنة ، دخلتُ هذه المدرسة التي تساموا ذكرها على كل المدارس ، بعلومها ومعلّميها وقوانينها وتلامذتها . وأوّل ما دخلتُ الصف الثاني ، وجعلتُ أنتقل من صفّ إلى صفّ ، حتى وصلتُ إلى الصفّ الخامس ، ولم أزل الآن فيه ⁽²³⁶⁾.

(236) هذا غيض من فيض من مذكرات أبي نوري بن أحمد أفندي الإيش (1891-1975) ، وكانت له موهبة رفيعة في رواية أحداث عصره ، تدعمها ذاكرة طيّبة . أذكرُ كنتُ في طفولتي مغرمًا بالإصغاء إلى حكاياته ونوادره الممتعة ، وبخاصة أنه عاصر كل الدول التي تعاقبت على سورية ، إبان أواخر عهد الدولة العثمانية ، والدستور ، وعهد الاتحاديين ، والانتداب الفرنسي ، والعهد الوطني برمته حتى وفاته في 8 شباط من عام

1975 ، عند بداية الحرب الأهلية اللبنانية . كان نوري الإييش شخصية نادرة ومرموقة ، ترك مذكرات مكتوبة وشفاهية ، سنعمد إلى نشرها بعنوان : «مذكرات نوري الإييش ، صفحات من التاريخ الاجتماعي والسياسي لسورية ، 1891-1975» .

فصول الكتاب

هذا الكتاب	7
شكر ورجاء	11
أحلام اليقظة	12
مُلح ونوادر من كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار	17
دمشق في أواخر العهد المملوكي ، من كتاب نزهة الأنام للبديري	33
وصف دمشق من خلال نصوص نادرة لرحالين أوروبيين	83
مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام ، لأديب حلي	101
من مذكرات جدّة أمي ، فاطمة بنت محمد سعيد البديوي	149
موكب الحجّ الشامي ، صورة من الحياة الاجتماعية بدمشق	197
طرائف من كتاب مجمع المسرّات ، للدكتور شاكّر الخوري	209
نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية ، لالياس عبده قدسي	221
من مذكرات أبي ، نوري بن أحمد أفندي الإيش	269

* * * * *

وكان الفراغ من تسطير هذا الكتاب وتحريره
بمحروسة دمشق الشام ، في السابع والعشرين من
أيلول ، من شهور سنة ألفين واثنين للميلاد ، على
يد مؤلفه ، والحمد لله على ما وفق وأعان .